الفتوحات الإسلامية

من عصر النبوه إلى الغزو الصليبى

دراسة فى العلاقات السياسية الأسيوية

دكتور

محمد نصر مهنا

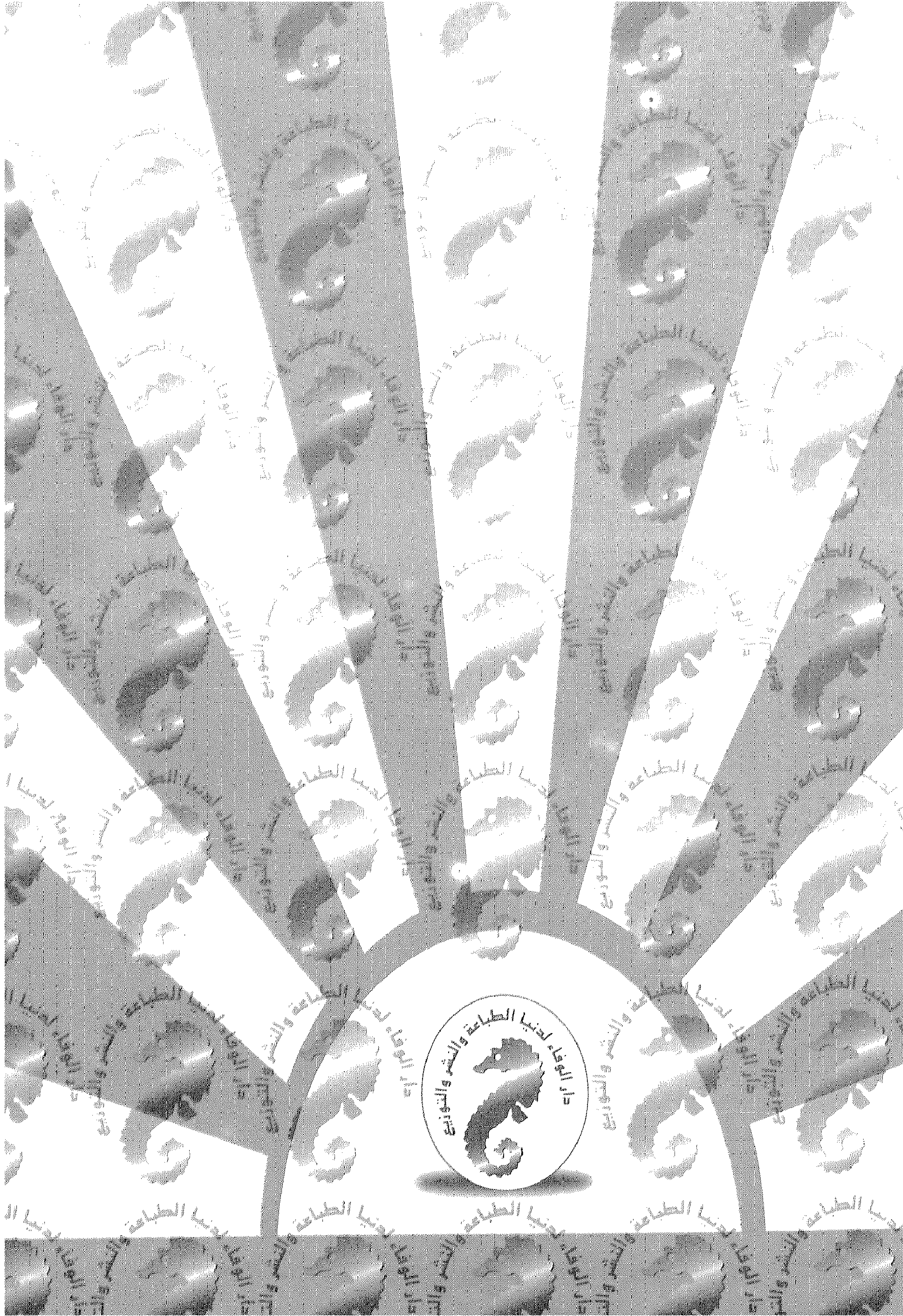
أستاذ العلوم السياسية - والعلاقات الدولية

" جامعة أسيوط "



تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ / ٠٣ - الإسكندرية


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع

الفتوحات الإسلامية

من عصر النبوه إلى الغزو الصليبى

دراسة فى العلاقات السياسية الآسيوية

دكتور

محمد نصر مهنا

أستاذ العلوم السياسية- والعلاقات الدولية

"جامعة أسيوط"

2011م

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5274438- الإسكندرية

مقدمــــة

انعكس تأثير الإسلام فى عقلية العرب علــى مظهــرين، الأول: إن التعاليم الإسلامية جاءت مخالفة لعقائد العرب، وأما المظهر الثانى فهو أن الإسلام قد مكن العرب من فتح بلاد الروم، ومن الثابت أنهما أمتــان عظيمتان حملتا مدنية راقية فى هذه الفترة. وقد قضت تعــاليم الإســلام بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم أولا، الدعوة إلى الدخول فى الإسلام، فإن أسلموا كانوا وسائر المــسلمين ســواء، وإن لــم يــسلموا فإن عليهم أن يسلموا بلادهم للمسلمين يحكمونها، ويبقــوا علــى ديــنهم - أن شاءوا - ويدفعوا الجزية - ضريبة على الرأس يدفعها الرجال غير العرب- وليس النساء - فإذا قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم مــا عليهم، وكانوا فى ذمة المسلمين يدافعون عنهم ويتعهدونهم بالحماية.

ومظاهر الحضارة الإسلامية التى تركها العرب كانت بناءة بدليل أن الفتوحات الإسلامية قد خلقت تأثيرا عظيما ؛ حيث ارتقى العرب بهذه الشعوب، مثال ذلك عندما غزا محمد بن القاسم الثقفى شبه القارة الهنديــة سنة 93 هــ فقد استأثر باهتمام وتقدير شعوبها ولــدى مغادرتـــه هنـــاك ودعته شعوبها بالدموع والعواطف الجياشة وهو دليل على اندماج العرب المسلمين بهذه الشعوب رغم أنها غريبة عنها فى اللغة والتراث التاريخى والعادات فإن العرب كانوا أهل عقيدة وحضارة عريقة معا، ممــا جعــل الشعوب الأخرى تندمج فى الحضارة الإسلامية ومن الثابــت أن انتــشار العقيدة الإسلامية فى السند والبنجاب ووسط آسيا وتغلغلها حتــى الوقــت الحاضر هو خير دليل - كما لمست بنفسى خلال فترة عملى بالباكستان- على قوة الحضارة الإسلامية التى تم من خلالها بناء هذه البلاد.

فى حين أنه فى الوقت الذى ابتليت فيه هذه الشعوب بالاستعمار الأوروبى بشتى أنواعه، فقد فقدت حضارتها، وتم استنزاف ثرواتها إلى الدول الأوروبية، ووصل الاستعمار الأوروبى إلى مرحلة شرسة فى التمييز بين الأوروبى وغيره من الشعوب المستعمرة- بفتح العين- وحقوق الإنسان.. فما هو تفسير هذه الظاهرة؟

الواقع أن الحضارة الإسلامية هى حضارة صادقة فى حين كانت الحضارة الأوروبية مجرد شعارات للرجل الأبيض فحسب. وتاريخ العرب – وسيطه وحديثه- خير دليل على ذلك ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة التى نجيب من خلال ثناياها على التساؤلات الآتية:

- كيف اعتنقت هذه الشعوب الآسيوية الإسلام ودخلته قانعة راضية؟
- هل صحيح أن العرب كانوا يمارسون حكما استبداديا- وخاصة فى العصر الأموى والعباسى- تجاه هذه الشعوب؟ وكيف يمكن مقارنة ذلك ببناء الحضارة ماديا ومعنويا للشعوب التى اختلطت بالعرب فأحبتهم وأحبوها واستفادت منهم وأفادوها؟
- لماذا ينزلق البعض إلى آراء المستشرقين؟ وأليس المستشرقون – أو جزءا كبيرا منهم على الأقل – قد أساءوا إلى الإسلام أكثر مما أفادوه؟
- لماذا لا يعيد العرب كتابة تاريخهم دون الانسياق وراء المستشرقين أو من يرددون آراءهم ويتأثرون بها؟
- من واقع دراستنا لحركة التاريخ الإسلامى فكيف يمكن تحليل ما ردده البعض أن العرب ليسوا أهل حضارة؟! أليست شواهد الحضارة الإسلامية فى آسيا تنفى ذلك؟

والكتاب الذى بين أيدينا يوضح الحقائق الآتية:

أولاً: إن انتشار الإسلام فى العصور الوسطى يرجع إلى اتفاق الحركة الإسلامية سلوكيا مع مبادئ وقيم ومعتقدات الإسلام، لقد كانت الحركة الإسلامية فى ذلك الوقت حركة فعالة، ذات هدف، تحررية، متسامحة، رحيمة ويقظة وخاشعة لله سبحانه وتعالى.

وقد استتبع اعتبار الحركة الإسلامية كنظام سلوكى منذ انتشار الإسلام فى القرون المبكرة- أن تميزت على جميع النظم السلوكية بمعيار محدد فرض نفسه كشئ مقدس فى الوحى الذى نزل على الرسول ﷺ ، وكان الوحى فى نفس ا لوقت مصدر جميع المعرفة فى القرآن الكريم... (ما فرطنا فى الكتاب من شىء). وكان أسلوب تطبيقه فى سنة النبى ﷺ، وكان النموذج هو حضارة المدينة التى أسسها النبى ﷺ، وناضلت الحضارة الإسلامية عبر عصورها المختلفة- الوسيطة والحديثة والمعاصرة- فى بيئة دولية وفرضت نفسها بأفضل ما تستطيع لتصبح الحركة الإسلامية عالمية النطاق وحقيقة فعالّة متفوقة فى الكيف والكم بمقارنتها بحصيلة عمل القوى المعادية لها، وتمثلت هذه الحقيقة الفعالة فى تقديم الدين الإسلامى كنموذج لحل جميع مشاكل البشر.

لقد عاش الإنسان على الأرض ملايين السنين، غير أن أحداث التاريخ المسجلة لا تتعدى ثلاثة آلاف عام، وحتى المئات الأولى منها تعد غامضة من وجهة نظر المؤرخين، وإيحاء القرآن الكريم وإتمام رسالة الإسلام من خلال النبى محمد ﷺ قد مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرنا، وقد تغلب المسلمون من صحراء شبه الجزيرة العربية فى الطور الأول من تاريخهم على المدنيات المتطورة فى بلاد فارس وروما، ثم انتشروا بعد ذلك وأقاموا حضارة مزدهرة بسماتها الإسلامية المتميزة شملت الجزء الأعظم من العالم المعروف فى ذلك الوقت وظلت حضارة الإسلام سائدة حوالى ألف عام.

ثانيا: امتدت دولة الإسلام قوية مرهوبة الجانب حتى نهاية حكم الأمويين وبداية حكم العباسيين- لتشمل مساحات هائلة من الأرض وأعدادا ضخمة من البشر- ربما لم تتوفر لدولة قبلها أو حتى بعدها-، وقامت الدولة الإسلامية بفتوحات رائعة ونشرت الإسلام والهداية والتعمير، وشملت في هذه الفترة اقليمي جرجان وطنجارستان في بلاد ما وراء النهر، وقاربت حدود الصين، ووصلت مدن هامة من نواحي بلاد ما وراء النهر في حوزة المسلمين الأوائل مثل خوارزم وسمر قند وبلخ ومرد، وفي جنوب شرقي آسيا بلغت حدود دولة المسلمين في بلاد كشمير وبلاد السند ووصلت إلى ما يلي ا لمغرب جنوبا من الصحراء في أفريقيا، أما من جهة الشمال الشرقي فقد بلغت الدولة الإسلامية جبال القوقاز وأرمينية وتاخمت في الشمال حدود الدولة البيزنطية، وأصبح خط حدود الدولة الإسلامية مع بيزنطة يمتد من قليقلة في الشرق ويحاذى الأطراف الجنوبية لآسيا الصغرى ضمن الأراضي الإسلامية حتى طرطوس في الغرب جنوب بلاد غالة ودخلت الأندلس ضمن الأراضي الإسلامية التي اشتملت أيضا على كل اراضي الشمال الأفريقي من مصر إلى بلاد السوس في المغرب الأقصى.

ثالثا: احتك العرب عند امتداد دولتهم الكبرى بثقافات متنوعة ونجحوا في التعامل معها، ومن الثابت أن الغالبية العظمى من هذه الشعوب التي اعتنقت الإسلام بعد الفتح الإسلامي لبلادها قد شكلت جزءا من التيار الإسلامي، وامتزج العرب مع الأجناس الأخرى، كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية، وتأثرت الحياة والنظم السياسية والاجتماعية بهذا الامتزاج، وكان العرب هم العنصر القوى الفاتح فقاموا بتعديل هذه النظم بما يتواءم وعقليتهم، ولكنهم تأثروا أيضا بالنظم الاجتماعية والحضارات الأقدم، والواقع أن الامتزاج كان قويا،

فالموالى- كما سيتضح من الدراسة- كان لهم أثر فـى مرافـق الحيـاة، وأصبحت الدولة الإسلامية- بعد فتوحات أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم- مجالا فسيحا لأنواع أخرى من الحروب مثـل حـرب اللغـة العربية واللغات الأخرى، والإسلام والديانات الأخرى، والنظم الاجتماعية العربية البسيطة والنظم الفارسية والرومية، والحياة العقلية هى الأخـرى كان شأنها شأن هذه النظم، وامتزج العقل العربى بالعقل الأجنبى، وكمـا تضاربت النظم السياسية الفارسية والرومية مع النظم الإسلامية، اختفـت ايضا القوانين الفارسية والرومية، كلها كانت فى حروب مستمرة، وكانت الدولة الإسلامية هى مسرح العمليات وموطن القتال.

رابعا: من الثابت أن العرب انتصروا فى نشر الـدين الإسـلامى لهذه الأقطار، وظل الانتصار حليفهم حتى اليوم باعتناق الأقاليم المفتوحة للدين الإسلامى، كما انتصرت لغة العرب وسادت الممالـك المفتوحـة، وانهزمت أمامها اللغات الأصلية للأقاليم المفتوحة، وصارت اللغة العربية هى لغة السياسة والعلم معا حيث عنى المسلمون بالتفكير المـنظم مـن تشريع وتفسير وحديث وتاريخ وسير، ولما فتح المسلمون هذه الأقاليم كان العنصر العربى هو العنصر الحاكم فتعلم وقرأ وكتب، واضطر الداخلون فى الإسلام من غير العرب إلى تعلم العربية ورفع الإسـلام المـستوى العقلى للعرب من خلال نشر تاريخ وأحوال الأمم الأخرى، وفيما يتعلـق بالحياة العقلية فقد تأثرت هى الأخرى بالإسلام ودعوته إلى الإيمان بـالله وصفاته من وحدانية وعلم وقدرة والدعوة إلى ما فى العالم من ظـواهر، وانتشر علماء المسلمين فى الدولة الإسلامية فى عصر النبـوة والخلفـاء الراشدين، بل أن رسول الله ﷺ فعل ذلك فى مدن جزيرة العرب، فأرسل إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها، وكذلك فعـل عمـر بـن الخطاب عندما توسعت فتوحاته عندما كتب إلـى أهـل الكوفـة قـائلا:

"أنى بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وآثرتكم به على نفسى، فخذوا عنه"، وأنشأ هؤلاء الصحابة والعلماء حركة علمية نشيطة، واشترك العرب والعجم معا فى تلقى العلم عنهم حتى إذا كان عصر التابعين وتابعيهم كان بعض حملة العلم عربا وأكثرهم من أبناء الموالى - أبناء البلاد المفتوحة- واشتهر كثير من علماء مكة، والكوفة والشام ومصر.

خامساً: انتشرت الحركة التاريخية- وليس المقصود بها تأليف كتب التاريخ- وإنما ما انتشر فى الدولة الإسلامية من أخبار الأمم الماضية والأحداث فى فترة النبوة والخلافة الراشدة، وكانت حركة نشيطة، فالرسول ﷺ قد كتب إلى أمرائه وقادة سراياه من الصحابة وبلغ عدد كتابه ما يزيد على الثلاثين- حسب تقدير المصادر العربية- ومن أبرزهم الصديق والفاروق وعثمان بن عفان رضى الله عنهم، كما كتب له على بن أبى طالب وخالد بن سعيد، وشرحبيل ابن حسنة، ومعاوية بن أبى سفيان وغيرهم.

وأرسل النبى ﷺ جيرانه، وتحفظ المصادر مراسلاته مع أهل نجران، وكان معظمها بخط على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كذلك كتب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى الملوك والحكام والأمراء يدعوهم إلى الإسلام وأرسل إليهم شعراءه ومبعوثيه برسائل مكتوبة، فأرسل عمر بن أمية الضمرى إلى نجاشى الحبشة، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى فارس، ودحية الكلبى إلى هرقل امبراطور الروم، كما أرسل حاطب ابن أبى بلتعة إلى المقوقس حاكم مصر من قبل البيزنطيين، وسليط بن عمر إلى هوذة بن على ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرى إلى منذر بن ساوى ملك البحرين.

كما كتب رسول الله ﷺ العهود، ومنها عهده إلى أهل اليمن الذى وجهه مع عمرو بن حزم، وصلح الحديبية الذى أملاه على على بن أبى طالب كرم الله وجهه، كما كتب لتميم الدارى وأخوته بالشام، وتذكر المصادر التاريخية أن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان لرسول الله ﷺ أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له خرص النخيل، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان له المداينات والمعاملات.

وفى عصر الخلفاء الراشدين كتب عثمان بن عفان وزيد ابن ثابت لأبى بكر الصديق، وكتب للفاروق ﷺ زيد بن ثابت وعبد الله بن خلف، كما كتب مروان بن الحكم لعثمان بن عفان ﷺ، وكتب لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه عبد الله بن رافع، وسعيد بن نجران الهمذانى كما كتب للحسين بن على كاتب أبيه.

وقد نبعت هذه الحركة من شعور الخلفاء بالحاجة إلى تعرف أخبار الملوك فى الأمم الأخرى وسياستهم بعد اتساع الدولة الإسلامية وفتوحاتها، ويروى المسعودى أن معاوية بن أبى سفيان كان يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها، والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها، وبالتالى فقد ازدادت أهمية الكتابة بازدياد فتوحات الدولة الأموية، وتعددت مراسلاتها، وظهرت وظيفة الكتابة بشكل أوضح، وكان ديوان الخليفة يتولى التوقيع على القصص ويصدر الأحكام، وكان الكاتب ينفذ ما يصدره الخليفة إليه. ...

تعاونت هذه الحركات واعتمد أصحاب المذاهب الدينية فى تعاليمهم فيما بعد على الفلسفة، وتعاليم الكتب، واستعان المفسرون والمحدثون والفقهاء بالشعر والأدب لتفهم معانى القرآن الكريم والحديث، واستمد المؤرخون أهم معلوماتهم من القرآن الكريم والحديث، وفى عصر

التابعين ومن بعدهم قويت الحركة العلمية بسبب الفتوحات الإسلامية المتعاقبة ودخول الأمم المتحضرة فى الإسلام والحاجة إلى تشريع واسع يساير الأحداث، فكثر التدوين وتطورت الكتابة بشكل واسع فى العصر العباسى وكان ديوان الرسائل يضاف إلى الوزارة أحيانا، فكان الوزير هو الذى يتولى أحول الديوان- الذى أطلق عليه ديوان الانشاء- ويصرف أموره بنفسه، وأحيانا كانت إدارته توكل إلى كاتب يختص به ويعتمد على ما يرد إليه من ديوان الوزارة، وظلت الكتابة فى بغداد تستأثر باهتمام الخلفاء العباسيين إلى أن بطل رسمها بسقوط العاصمة العباسية أمام جيوش المغول عام 656 هـ- 1258م.

ومن خلال الاعتبارات الأساسية السابقة سارت حركة التاريخ الإسلامى فى فتوحاتها ونشر الإسلام ثم تأثيره المتعاظم فى قارة آسيا والسؤال الذى يفرض نفسه الآن؟

ماذا عن قوة التاريخ الإسلامى الحديث؟

الواقع أن جهود المؤرخين والباحثين المسلمين المحدثين تجاه التاريخ الإسلامى الحديث قد اطردت منذ أول هذا القرن الذى أوشك على الانصرام. ولأن اتصال هذه الجهود قد استوثقت واشتدت على صعيد المنهج المتكامل فى العلوم الاجتماعية الذى ذاع صيته فى الفترة الأخيرة حيث اجتهد الباحثون فى التخصصات المتعددة فى العلوم الإنسانية **Multdiscipline** فى تفسير ظاهرة هذه الإشراقة الإسلامية التى امتددت لتشمل، ليس العالم الإسلامى فقط، وإنما قوة الإسلام المتدفقة قد أثرت فى القوى العظمى والسياسات العالمية حيث تعمق الباحثون الغربيون - هم الآخرون- فى مناهج بحث الدراسات الإسلامية ودراسة حركة التاريخ الإسلامى دراسة صحيحة مستقيمة المنهج.

على هذا النحو من الاستعداد أقبلت – خلال السنوات الماضية خلال فترة ابتعاثى إلى بريطانيا ثم عملى بالمملكة العربية السعودية وجمهورية باكستان، أقبلت على دراسة تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين حيث اشتركت فى المساهمة فى العديد من المؤتمرات وحلقات البحث فى الجامعات البريطانية والسعودية والباكستانية ولدى الأوساط العلمية للمجاهدين الأفغان فى باكستان فى محاولة للكتابة فى العلاقات السياسية الإسلامية منذ العصور الوسطى بروح جديدة، وجادة ومخلصة رغم صعوبة الخوض فى هذه التجربة ومشقاتها وعقباتها حيث سبقنى كثير من علماء الأمة الإسلامية ومؤرخيها المخلصين. ولعل فى مواجهة هذه الصعوبات ومحاولة تذليلها والقدرة على اجتيازها لذة دفعتنى إلى العمل وحثتنى على المضى فيه من خلال تشجيع زملاء لى فى أقسام التاريخ والعلوم السياسية بالجامعات العربية والأوروبية وكان تشجيعهم لى حافزا من مفهوم مفاده أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، وإنما حقائقه لها معناها، وقيمها خاصة إذا كان الإنسان لا يبغى إلا الحق بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية واضحة جلية والتى كانت دائما هدفا للباحثين والمؤرخين فى عصور التاريخ المختلفة.

كانت القاعدة التى اعتمدت عليها فى منهجية هذا الكتاب هو أن يلم دارسو العلوم السياسية والعلاقات الدولية بتطور تاريخ العلاقات السياسية الإسلامية وإلى أى مدى انعكست أحوال المسلمين الداخلية على العلاقات الخارجية، وهذا بالطبع إلى جانب ما وجدته من استعداد طلاب أقسام التاريخ فى الجامعات العربية وتفتح نفوسهم لهذا النوع من الدراسة، ومع ذلك فقد تم عرض المادة العلمية بأسلوب يكون فى متناول القارئ العربى من خلال تحليل وتطور العلاقات السياسية الإسلامية ومحاولة إرجاعها إلى عناصرها المكونة لها رغم تداخل وامتزاج هذه العناصر

ببعضها البعض حيث قوة الإسلام المؤثرة فى العناصر المختلفة التى اعتنقت هذا الدين الحنيف وما صاحب وأعقب ذلك من ظهور الفرق الإسلامية وتأثيرها- إن سلبا أو إيجابا- على علاقات المسلمين بكافة عناصرهم المتشعبة والمتشابكة.

ولا يزال هذا النوع من الدراسة فى حاجة إلى العناية والتحليل الدقيق من جانب الباحثين المحدثين، وأن الأمانة العلمية تقتضى القول أن مؤرخى المسلمين الأول قد نهضوا بهذا العبء الضخم وقاموا به على أحسن ما يكون، بالمثل فعل أساتذتنا وزملاؤنا المحدثون والمعاصرون. جزاهم الله جميعا خير الجزاء لجهودهم الرائدة فى إعادة كتابة التاريخ الإسلامى وتخليصه وتنقيته من الشوائب التى علق بها.

وأيا كان الأمر فإننى أقدم إلى أبنائنا الطلاب هذا الكتاب الذى لا يقصد إلا العلم وحيث يصبح حاضرنا غدا تاريخا لأبنائنا وبما يستلزمه ذلك من تلقينهم أن لا يقعوا ضحايا الحاقدين على الإسلام ويفسر هذا الصعوبات والجهود المبذولة لخدمة أهداف الدراسة، لكن سعة هذه الدراسة قد فرضت- على حد القول المأثور- أن أسرع الخطا وفى القلب حسرة، وفى النفس حرقة واشتياق لمزيد من التعمق ومزيد أطول من المعايشة لقضايا العلاقات السياسية الإسلامية المعاصرة.

وقد تم تقسيم هذه الدراسة إلى ثلاثة أبواب. تناول الباب الأول عصر النبوة والخلافة الراشدة وكيف شكلت الفتوحات الإسلامية نصرا مؤزرا للإسلام، وعالج الباب الثانى الفتوحات الإسلامية فى عصر الدولة الأموية وما نتج عنها- بصفة خاصة- من فتح بلاد السند والبنجاب ودور الفاتح العربى محمد بن القاسم الثقفى، وتناول الباب الثالث عصر الدولة العباسية بما شمله من أسس هذه الدولة وكيف انعكست الفتن الداخلية على أوضاعها الخارجية وصولا إلى عصرى الانحلال الأول والثانى ثم سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة والغزو الصليبى.

وفى الختام تجب الإشارة إلى ما يمكن أن تؤول إليه هذه الدراسة من تأصيل مستلزمات تطور العلاقات السياسية الإسلامية وصولا إلى عصرنا الحاضر لمواصلة الجهود الرائدة من علماء المسلمين لتحقيق عناصر الالتزام بالإسلام المتكامل فى العلاقات السياسية الدولية المعاصرة، وتأسيسا على ذلك يدعو الباحث إلى وقفة للتأمل المنشود، لحظة عمل إسلامية للمرحلة القادمة آملاً أن يسد الكتاب نقصا فى المكتبة العربية ويفيد قطاع المثقفين من طلاب ودراسين وباحثين مستشهدا بالحديث النبوى الشريف: "من اجتهد فأصاب فله أجران، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد".

دكتور محمد نصر مهنا

الباب الأول

عصر النبوة والخلافة الراشدة

الفصل الأول: عصر النبوة "من العهد المكى إلى العهد المدنى".

الفصل الثانى: عصر أبى بكر الصديق (10- 13 هـ).

الفصل الثالث: عصر عمر بن الخطاب (13- 23 هـ).

الفصل الرابع: عصر عثمان بن عفان (23- 35 هـ).

الفصل الخامس: عصر على بن أبى ـالب (35- 40 هـ).

الفصل الأول

عصر النبوة

- من العهد المكى إلى العهد النبوى .
- أسس الدولة الإسلامية .
- الردة وحروبها .

من العهد المكى إلى العهد المدنى:

جاءت الرسالة المحمدية تعميما لأهل الكون كله تحت راية واحدة هى راية الدين الإسلامى الحنيف، الذى هو استكمال للنبوات السماوية، وتقويم لما تم تحريفه من ديانات السماء التى أوحاها الله سبحانه وتعالى إلى رسله، قال تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب".

إن المبادئ التى جاء بها الرسول ﷺ هى إيجاد مجتمع فاضل، منظم، ليس فيه بدع يقوم على الدين الإسلامى الذى حددت أركانه الخمسة فى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت الحرام، وهناك قاعدة أساسية يقوم عليها بنيانه فى قوله تعالى: "وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين، قل آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".

إن الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى، وحده، لا شريك له، ولا صاحبة، ولا ولد، يحيى ويميت، قادر، قوىٌ حكيم فى أفعاله، عادل فى قضائه.. هذا الاعتقاد هو أحد المبادئ الإسلامية العامة إلى جانب وجوب تحكيم العقل ودراسة الكون والتفكر فى آثاره سبحانه وتعالى للوصول إلى الإيمان الصحيح وإذا تعارض العقل والنقل (1). أخذ بما يدل عليه العقل، وأن لا سلطان على مسلم إلا سلطان الله والعقل الصحيح والعلم الثابت عن رسول الله ﷺ، والمسلم عبد الله فقط، حر من كل عبودية سوى العبودية لله سبحانه وتعالى، وأن العمل واجب لكل قادر عليه، وأن عبادات الإسلام كلها تتفق مع

ما يليق بجلال الله سبحانه وتعالى وسمو وجوده عن الإسباه والنظائر، ويجب على المسلم تدارس القرآن الكريم وطلب العلم من دينى ودنيوى، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعمل الخير والإحسان، فالمسلم محاسب على أعماله كلها إن خيرا أو شراً، وأنه مبعوث بعد موته لهذا الحساب، وأن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام فيه قواعده، وتعاليمه وهى قواعد تتعلق بالعبادات والمعاملات والتشريع والأخلاق والواجبات، إنهما قواعد كلية وأصول أولية، ويجب على المسلم اتباع ما أمر به النبى ﷺ، وكل ما أقرته الفطرة السليمة والعقل الصحيح والقلب السليم هو من الإسلام الذى يحث على القصد والاعتدال، وما أجمع الناس على استحسانه وتعارفوا عليه هو حسن عند الشرع، وأنه لا إكراه فى الدين فقد قال سبحانه وتعالى: "لست عليهم بمسيطر"، وأن الجهاد واجب على المسلم وكذلك الإعداد لكل ما يحتاج إليه من عدد وعدة..." وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم".

لقد بدأ جهاد النبى ﷺ فى سبيل الله منذ تبليغه بالرسالة ودعا الناس إلى دين الله، دين الإسلام،ولم يزد معارضة المشركين له إلا تمسكا بدينه، وصمودا، وأخذ ينشر هذا الدين الإلهى بين أقرب الناس[2] إليه. وكانت الدعوة فى بداية أمرها سرية، ثم تطورت بعد ثلاثة أعوام من بدء الوحى حيث نزلت الآية الكريمة:" فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين" سورة الحجر آية 94، ثم أتخذت مظهر الجهرية، وبدأ ﷺ بعشيرته، غير أن قريشا أخذت ترسل إليه ﷺ لإقناعه بالرجوع عن هذه الدعوة، بل إن تعنت قريش ازداد للرسول ﷺ، وكان موقفها من أتباعه وأصحابه أشد عنفا، ومر المسلمون بفترة قاسية من المعاناة الشديدة وتعذيب هائل، لكنهم تحملوا العذاب فى سبيل الله، بل وازداد عددهم وزادوا تمسكا بدينهم.

وكان خروج الرسول الكريم إلى الطائف ليجد مخرجا وأنصارا من قبيلة ثقيف- أهم قبائل العرب فى قريش- لكنه ﷺ تعرض لسب السفهاء وقذفه بالحجارة حتى لجأ إلى حديقة، وجلس ﷺ فى ظل شجرة واتجه إلى الله سبحانه وتعالى- بعد أن اشتد به الكرب والبلاء- داعيا:" اللهم إليك أشكو ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، أنت ربى، إلى من تكلنى؟ إلى بغيض يتجهمنى؟ أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبى (الرضا) حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك[3].

عاد الرسول ﷺ إلى مكة وقلبه مفعم بالخوف، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يطمئنه بمشاهدة آياته، فكان الإسراء إلى بيت المقدس ثم العروج إلى السماوات العلا، ولقى من لقى من الأنبياء، وأعطت حادثة الإسراء والمعراج للرسول قوة، واستمر فى الدعوة إلى الإسلام، وأخذ يكرر لقاءاته مع القبائل العربية فى مواسم الحج ويتلو عليهم القرآن الكريم، وفى أحد المواسم، لقى الرسول ﷺ أفرادا من الخزرج فدعاهم إلى الإسلام، فاستجابوا، وعادوا إلى المدينة، وأخذوا يدعون إلى الإسلام حتى انتشر فيها، ولم تبق دار من دور الأنصار ألا وفيها ذكر النبى عليه الصلاة والسلام، وفى العام التالى سنة (هـ م) قدم رجال من الخزرج وبايعوا الرسول ﷺ عند العقبة وتعرف هذه البيعة ببيعة العقبة الأولى، وبعث معهم الرسول عليه الصلاة والسلام مصعب بن عمير ليعلم القرآن الكريم لمسلمى الخزرج، ولما ازداد عددهم اشتد أذى قريش لهم، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، ولم يبق فى مكة من المسلمين مع رسول الله ﷺ إلا أبو بكر وعلى بن أبى طالب، وكان الرسول ينتظر أن يؤذن له بالهجرة إلى يثرب.

وكان اليهود يعيشون بجوار المسلمين فى يثرب وهم يهود بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكان هؤلاء اليهود أعداء للأوس والخزرج (الأنصار) قبل دخولهم الإسلام[4]. وعندما وصل الرسول ﷺ المدينة، وانتشر الإسلام، ازدادت عداوة اليهود للمسلمين، وكان من سياسته ﷺ أن يبدأ هؤلاء اليهود بالمحبة والمودة. ويبسط لهم يد الأخوة، وكتب ﷺ صحيفة أوضح فيها واجبات كل من المسلمين واليهود وحقوقهم، وجاء فى هذه الصحيفة:" وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم، وأثم بينهم فإنه لا يوتغ (لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته، وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الأثم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فسادة، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وآثم وأن الله جار لمن بر واتقى[5].

ويستفاد من هذه هذه الوثيقة أن الرسول ﷺ قد عامل اليهود معاملة حسنة، وحاول إقامة المودة بينهم وبين المسلمين.

أسس الدولة الإسلامية:

وضح الرسول ﷺ أسس الدولة الإسلامية عندما هاجر إلى المدينة، وأخذ يعمل جاهدا على نشر الإسلام، فقد أمر الله الرسول ﷺ المسلمين بقتال المشركين، وقد أذن الله لرسول وللمؤمين بأن يقاتلوا فى سبيل الله، "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز[6]........".

لقد أذن الله تعالى للرسول ﷺ بمقاتلة الكفار للدفاع عن النفس، وحماية الدين الإسلامى، ونشره فى الجزيرة العربية والبلاد المجاورة، ومن أجل ذلك قام الرسول والمسلمون بغزوات عديدة لمواجهة قريش والقبائل العربية فى شبة جزيرة العرب وأشهر هذه الغزوات[7]: غزو بدر الكبرى (سنة 2 هـ/ 624م)، وغزوة أحد (سنة 2 هـ/ 625م)، وغزوة بنى النضير وغزوة الأحزاب (الخندق) (سنة 5 هـ/ 627م) التى أعقبها صلح الحديبية سنة 6 هـ / 628م حيث كان الرسول ﷺ سياسيا، بعيد النظر فى عقد هذا الصلح مع قريش إذ أنه أمن جانبهم عشر سنوات أخذ فى أثنائها ينشر الدعوة الإسلامية فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية، وكان ﷺ مدركا تماما لمغزى هذا الصلح حيث اتجه لنشر الإسلام بين القبائل الأخرى تاركا قريش جانبا بعد ما أشعرها بقوة المسلمين ومقدرتهم العسكرية.

ولم تبدأ علاقات المسلمين السياسية مع الروم والفرس ومن تحتهم من الحبشة والغساسنة وأهل البحرين وعمان واليمن والبحرين ونجران وحضرموت وغيرها إلا بعد صلح الحديبية حيث أرسل الرسول ﷺ وفودا إلى ملوك العرب والعجم لدعوتهم إلى الإسلام، فبعث سليط بن عمرو بن عبيد شمس بن ود إلى هوذة ابن علي صاحب اليمامة، وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر ابن ساوى صاحب البحرين، وعمرو بن العاصى إلى جيفر بن جلندى صاحب عثمان، وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى قيصر ملك الروم هرقل، فوصل إلى بصرى وبعثه صاحب بصرى إلى هرقل، فقرأ الكتاب وفيه:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين"، فطلب هرقل من فى مملكته من قوم النبى عليه الصلاة والسلام، فأحضروا

من غزة، وكان فيهم أبو سفيان فسأله، فأجابه، فعرف صحة أمره، وعرض على الروم اتباعه، ولكنه عندما رأى معارضتهم، لا طفهم بالقول[8].

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن شمر الغسانى صاحب دمشق وكتب معه:" السلام على من اتبع الهدى، وآمن به، أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك"، فلما قرأ صاحب دمشق الكتاب، قال:" من ينزع ملكى، أنا سائر إليه"، فقال النبى ﷺ: "باد ملكة".[9]

وكتب رسول الله ﷺ إلى كسرى وبعث بالكتاب عبد الله بن حذافة السهمى وفيه:" بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، أما بعد فإنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس"، ويذكر الطبرى أن كسرى مزق كتاب النبى ﷺ استكبارا فمزق الله ملكه وأدبر وهلك، وقد ضمن أحد المؤرخين المسلمين وثائق النبى ومعاهدات الدعوة الإسلامية، وتجديد المعاهدات القديمة وذكر عهود تولية العمال وواجباتهم النبوية لمحمد بن جرير الطبرى) (الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، جـ 2 ص 654)، وهكذا أخذ الرسول ﷺ ينشر الإسلام فى بقية أجزاء الجزيرة العربية.

وقد توالت غزوات الرسول ﷺ فى الفترة (6- 9 هـ) (628- 613م) فكانت غزوة خيبر، وغزوة مؤته. وتم فتح مكة سنة (7 هـ - 630م) والذى جاء أكبر انتصار فى انتشار الإسلام حيث جذب استيلاء الرسول على الكعبة كثيرا من القبائل العربية للإسلام، وأخضع الرسول ﷺ ما تبقى من بدو نجران وعمان وغيرهما، ثم جاءت غزوة تبوك (9هـ-613م) حيث أجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بجبشه، ولما وصل إلى تبوك أقام

أياما، فصالحه أهلها، وجاءت الوفود من أيله وغيرها، وصالحوه على دفع الجزية، كما بعث خالد بن الوليد إلى دومة الجندل ففتحها، وعاد الرسول ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، وقد وفدت إلى المدينة وفود كثيرة وعاد الرسول ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، وكانت غزوة تبوك هى آخر الغزوات النبوية، وقد وفدت إلى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة العربية، فسمى هذا العام بعام الوفود، ونزلت الآية الكريمة: "إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره، أنه كان توابا" (سورة النصر).

لقد وحد الإسلام بين القبائل العربية، وجعلها أمة واحدة، متجانسة، قوية، انطلقت تنشر الإسلام فى كل مكان، وحتى امتدت الدولة الإسلامية إلى جميع البلاد المجاورة فى آسيا وأفريقيا، واضعا قواعد للروابط البشرية فلم يحدث إكراه على دخول الإسلام، وإنما ترك للناس حرية العقيدة والمذاهب وخاصة النصارى واليهود والذين عرفوا بأهل الذمة حيث أوضح الإسلام معاملتهم وما عليهم من حقوق وواجبات وهو ما يستدل عليه من الوثيقة المدنية التى أذاعها الرسول ﷺ فى المدينة المنورة فور استقراره فيها والتى تعتبر بمثابة القانون الإساسى للدولة الإسلامية الجديدة، وقد نصت هذه الوثيقة التى تعتبر من أقدم الوثائق السياسية العريقة إن لم تكن أقدمها، نصت على أن لا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، وإن من تبع الإسلام من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمين، لليهود دينهم للمسلمين دينهم، وإن ليهود بنى النجار وبنى الحارث وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبهم... لهم جميعا ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته.. وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما

لأهل هذه الصحيفة مع أبر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الأثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه.

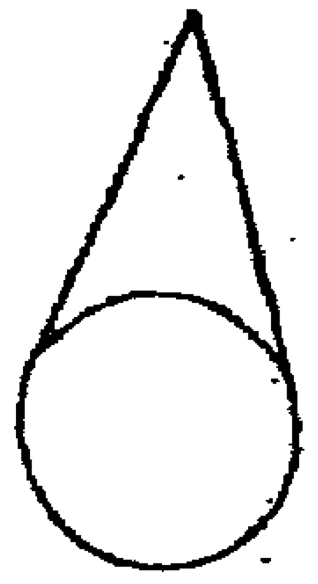
ويستدل من هذه الوثيقة بساطتها وقصر جملها، ولم تنص كسائر الوثائق النبوية أو أكثرها على اسم كاتبها أو شهودها، كما أنها لم تنص على تاريخ كتابتها، وتذكر المصادر[10]. أن الأمام أبا داود يرجح أن هذه الصحيفة قد كتبت بعد وقعة بدر الكبرى حيث قوة النبى ﷺ ومواقفه من اليهود الأقوياء، وأن الرسول أراد أن يحول دونهم ودون نشاطهم ضده أو معاونتهم عدوه عليه، وقد اعتبرهم الرسول ﷺ داخلون فيما دخل فيه أحلافهم من الأوس والخزرج، فاليهود والمحالفون للأوس ومواليهم، واليهود المحالفون لبنى عوف هم داخلون معهم، وكذلك اليهود المحالفون لبنى النجار وبنى الحارث وبنى ساعده وبنى جشم وبنى الأوس وبنى ثعلبه وكذلك بنو الشطيبة، وكذلك اليهود خارج المدينة، فإنهم داخلون معهم، وأن كل هؤلاء اليهود ممن اتبع الإسلام دخل فى حلفهم، لهم النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم[11]. وأنهم ينفقون مع المؤمنين فيما يجب على المؤمن انفاقة، ما داموا محاربين[12]. وأن علي اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل الصحيفة وأن بينهم النصر والبر دون الإثم[13].

الردة وحروبها:

منى الإسلام بفتنه عظمى بعد وفاة النبى ﷺ، وكادت المصيبة تفتك بالإسلام لولا دور أبو بكر الصديق فى زعامة المسلمين وتمكنه من إخماد فتنته الردة، فقد كثر المرتدون عن الإسلام عندما بلغ الأعراب نبأ وفاة الرسول ﷺ وتحركت النزعات الفردية والعصبيات الإقليمية التى كانت سمات بارزة وطابع العرب، كما ان القبائل التى أعلنت إسلامها من قبل فى اليمن، واليمامة، وعمان قد تهاونت فى مسألة دفع الزكاة، واعتبرتها إتاوة كانت

تدفع للرسول عليه الصلاة والسلام، فلما انتقل إلى جوار ربه صاروا فى حل من دفعها إلى خليفته، غير أن هناك من يخالف هذا الرأى[14]. حيث انقسم المرتدون عن الإسلام إلى قسمين، قسم خرج عن الإسلام وهم بنوطى، وغطفان، وأسد جماعة المتنبى طلحة ابن خويلد الأسدى، وحنيفة جماعة مسيلمة الكذاب، وأهل اليمن الذين تزعمهم الأسود العنسى، أما القسم الثانى من المرتدين فقد ظلوا على إسلامهم ولكنهم لم يدفعوا الزكاة، وقد اختلف بعض الصحابة مع أبى بكر فى وجوب قتال القسم الثانى كالقسم الأول، فقال أبو بكر الصديق، "والله لأقاتلن هؤلاء كما أقاتلن أولئك، لأن تعطيل الزكاة كتعطيل الصلاة وسائر شعائر الإسلام"، قال عمر: وكيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ، أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى مالهم وأنفسهم، فقال أبو بكر:" والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعونى عناقا أو عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منلها، وقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن قد شرح الله صدرى لما قال أبو بكر فعلمت أنه الحق، ثم أن أبابكر شمر لقتال هؤلاء المرتدين والقضاء على هذه السلطة.

بل أن أبا بكر الصديق قد واجه مشكلة من ادعى النبوة، حيث بدأت هذه الظاهرة فى أواخر حياة الرسول ﷺ ثم قويت بعد وفاته، وكان من أشد أولئك المتنبئين خطرا مسيلمة بن حبيب بن حنيفة.



خريطة
حروب الردة
في بداية خلافة أبي بكر
وأشهر القادة
مقياس الرسم
كيلومتر
× معركة مشهورة

المصدر : الدكتور أحمد قاعور ، الدكتور شحاته الناوطر ، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولي ، مطبعة الخالدي ، عمان ١٩٨٢ .

الذى أسلم ثم ارتد وادعى النبوة، وكتب إلى النبى ﷺ يقول أنـــه قـــد أوحى إليه، وأن جبريل نزل عليهم بخبره بأن الله قد قاسمه النبوة مع محمد ، وشاطره الملك والسيادة فى جزيرة العرب، وقد أطلق عليه الرسول ﷺ اســـم مسيلمة الكذاب وكتب إليه كتابا نصه:" من محمد رسول الله إلـــى مـــسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" غير أن مسيلمة استمر فى ضلالة.

ومن الذين ادعوا النبوة أيضا خبر الأسود العنـــسى الملقـــب بـــذى الخمار، الذى أسلم ثم ارتد عن الإسلام فى زمن النبى ﷺ، ثم ادعى النبـــوة واستهوى بضلالاته نفرا من عوام العرب فتملك أكثر جنوبى بلاد العـــرب، وبلغت أخباره إلى رسول الله ﷺ، فكتب إلى من بقى على الإسلام من أهـــل اليمن يأمرهم بمحاربته.

كما أدعى النبوة أيضا خبر طليحة بن خويلد الأسدى وتبعه بعـــض العرب واليهود فى حياة النبى ﷺ الذى بعث إليه بضرار ابن الأزور لمقاتلته والقضاء على فتنته.

وقد استجاب المسلمون إلى رأى أبى بكر الصديق بشأن مقاتلة هؤلاء المرتدين، وتكون أحد عشر جيشا قاد كل منها أبرز أبطال المـــسلمين مثـــل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل، وشرحبيل بـــن حسنة وغيرهم(15).

أما المعركة الحاسمة التى أعادت الاستقرار فى شبه الجزيرة فكانت معركة "عقرباء" فى طرف اليمامة ضد مسيلمة الكذاب، حيث كان خالد ابـــن الوليد قائد هذه المعركة وخاض أعنف قتال أنهى به علي أسطورة مـــسيلمة وتراجعت القبائل المرتدة واستسلمت، وقد أظهرت هـــذه المعركـــة المهـــارة العسكرية لخالد بن الوليد والذى كان ثمة مهمة أخرى لا تـــزال بانتظـــاره،

وهى القضاء على حركة البحرين[16]. وإنقاذ أحد القـادة المـسلمين الـذى حوصر فى حاضرتها هجر، فلم يكد خالد يصل إلى البحرين حتى سـقطت بالقليل من الجهد وكانت هذه المعركة آخر مهمات خالد بن الوليد فـى شـبه الجزيرة، فى وقت كادت ثورة القبائل أن تنتهى، فتوجه خالد صوب العـراق ليعلن بدء الأعمال العسكرية الموسعة وراء الحدود استجابة لأوامر أبى بكر الصديق الذى نجح فى قمع حركة القبائل وهو ما كان بمثابة انتصار مـؤزر للعقيدة الإسلامية التى شكلت أحد أهم الحوافز لاندفاع المسلمين بكل ثقة وراء حدود شبه الجزيرة.

هوامش الفصل الأول

(1) عبد العزيز جاويش ، الإسلام دين الفطرة، ص 53.
وراجع الشيخ محمد عبده/ رسالة التوحيد ص 174- 194.

(2) كانت السيد خديجة رضى الله عنها أول من آمن بالله، ومن الرجال أبو بكر الصديق ﷺ، ثم من الصبيان على بن أبى طالب ﷺ، وزيد بن حارثة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن ابن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وابن عبيدة عامر بن الجراح، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لنشر الدعوة الإسلامية، راجع : أحمد بن بيليك المحسنى (ت 753)، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين، معهد المخطوطات، القاهرة ص 8- 11.

(3) ابن اسحق: أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى ت 151 هـ، سيرة النبى- هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الاتحاد العربى للطباعة.

(4) راجع: الدكتور أحمد قاعور، الدكتور شحاته الناطور، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى، مطبعة الخالدى، عمان 1983 ص 34- 47.

(5) ابن اسحق: أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى المتوفى سنة 151 هـ سيرة النبى، هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الاتحاد العربى للطباعة- الجزء الثانى من 250- 251.

(6) سورة الحج (الآيات 39- 41).

(7) لمزيد من التفصيل، راجع: الدكتور أحمد قاعود، الدكتور شحاته الناطور، مرجع سابق، ص 47- 63.

(8) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر جـ 2ص 649.

(9) كما بعث رسول الله ﷺ إلى النجاشى وكتب إليه كتابان كان من نتيجته إسلامه، رابع ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثانى، ص36 – 37.

(10) الدكتور محمد سعد طلس، تاريخ العرب جـ 1، دار الأنـدلس للطباعـة والنـشر والتوزيع، بيروت ص 77- 85 .

(11) المادة (51) وراجع نصوص الوثيقة المدينة فى : المرجع السابق ص 77- 85.

(12) المادة (24) فى المرجع نفسه ص 84.

(13) المادة (38) فى المرجع نفسه ص 84.

(14) قارن: دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور، مرجع سابق ص 72، دكتـور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، الجزء الثالث، ص 30، دكتور إبراهيم بيـضون، تكون الاتجاهات السياسية فى الإسلام الأول، دار اقرأ، بيروت 1985 ص35- 82.

(15) القلقشندى، نهاية الأرب فى معركة أنساب العـرب، تحقيـق إبـراهيم الإبيـارى ص 68- 70، 238- 239.

(16) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الثالث ص 250- 251.

الفصل الثانى

عصر أبو بكر الصديق

10- 13 هـ / 632- 634 م

- فتح العراق وفارس .
- الدروس المستفادة .
- فتوح الشام .

عصر أبو بكر الصديق

(10- 13 هـ) (632- 634م)

فتح العراق وفارس:

عزم أبو بكر الصديق على تكملة ما بدأه النبى الكريم ﷺ بشأن نشر الإسلام وذلك بعد أن تم له القضاء على فتنة الردة. وكانت مملكتا الفرس والروم أعظم الممالك المجاورة للعرب فى آسيا وقد سبقت الإشارة أن كسرى إمبراطور الفرس عندما تلقى كتاب الرسول ﷺ قام بتمزيقه استكبارا، وبعث إلى عامله باليمن كى يرسل إلى رسول الله ﷺ برجلين قويين يأتيان به، فتوجها إليه، ولما دخلا المدينة، وكلمهما رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وأوضح لهما العاقبة الوخيمة لظلم كسرى وطغيانه فى الإرض وقد أسلم الرجلان من صدق[1]. قول الرسول ﷺ ثم أسلم حاكم اليمن، وكانت اليمن أول بلاد خاضعة للفرس دخلت تحت لواء الإسلام، ثم تبعتها بلاد البحرين وبلاد عمان، وكانت هذه البلاد تحت حكم الفرس.

وقد كلف أبو بكر الصديق خالد بن الوليد ليضع نواة الحجر الأساسى للبناء الإسلامى فى بلاد العراق وديار فارس ويرفع راية الإسلام فى هذه الديار العريقة فى الحضارة والعلم والتى أمعنت فى الوثنية والجهالة فى نفس الوقت، وكتب أبو بكر الصديق إلى خالد ابن الوليد فى شهر المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة أن يستعد وجيشه للتوجه من اليمامة إلى بلاد العراق،وقد نفذ خالد بن الوليد أوامر الخليفة أبى بكر الصديق ودخل بلاد العراق من أسفلها، وفى نفس الوقت كتب الصديق إلى عياض بن غنم أن يسير إلى العراق فيدخلها من أعلاها، وأيهما يسبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وكانت الحيرة عاصمة عرب الجزيرة، لكنها كان يسودها النفوذ

الأعجمى، وكان هدف خالد بن الوليد أن يقضى على هذا النفوذ، كما كتب الصديق إلى حرملة والمثنى بن حارثه ومن معهما الانضمام تحت قيادة خالد بن الوليد، وكان عدد الجند ثمانية عشر ألفا، وتمت المواجهة مع الفرس فى عدة معارك.

كانت معركة ذات السلاسل أهم المعارك[2]. التى خاضعها خالد بن الوليد، وسميت كذلك لأن الفرس ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا من المعركة، وكان النصر حليف المسلمين لاستبسالهم وثباتهم حيث استولوا على ميناء "الأبله" الذى يقع على الخليج العربى، وتسلم المسلمون زمام الأمور فى هذه النواحى، ويذكر ابن الأثير فى الكامل فى التاريخ أن الفلاحين المجوس قد عوملوا كالنصارى حيث فرضت عليهم الجزية.

ثم توجه خالد بن الوليد إلى الشام تنفيذا لتعليمات الصديق بعد أن ترك نصف جيشه بقيادة المثنى وأخذ النصف الآخر لمساعدة جيوش المسلمين فى اليرموك على نحو ما سيتم تفصيله فى موضع لاحق من الدراسة.

أما الموقعة الثانية فكانت موقعة الجسر التى وقعت فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذى أرسل أبا عبيد بن عمر الثقفى، وكان مع أبى عبيد (سليط بن قيس الأنصارى) وكتب أمير المؤمين عمر إلى المثنى بن حارثة أن يكون فى طاعة أبى عبيد، وكان قائد جيش الفرس رستم وهو من أعظم قادة الفرس، ووقعت هذه المعركة فى السنة الثالثة عشرة للهجرة، وسميت بموقعة الجسر لأن المسلمين عبروا جسرا عند الحيرة والتفوا حول جيش الفرس. [3]

وفى السنة الخامسة عشرة للهجرة تقابل جيش المسلمين بقيادة جرير ابن عبد الله مع المثنى بن حارثة مع جيش الفرس بقيادة مهران، وانتصر المسلمون فى هذه المعركة، وقتل مهران وكثير ممن معه.

ولعل معركة القادسية التى وقعت فى السنة الخامسة عشرة للهجرة أيضا هى من أهم المعارك التى استأثرت باهتمام المؤرخين وهو ما يستدعى وقفة للتفسير. فقد كتب المسلمون فى العراق إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمونه كثرة من تجمع لهم من أهل فارس، ويسألونه المدد، فوجه سعد ابن أبى وقاص إلى العراق، فأقام في أماكن عديدة (الثعلبية- العذيب وغيرها) وكان المثنى مريضا، فأشار عليه أن يحارب العدو بين القادسية والعذيب، وترددت الرسل بين سعد وقائد الفرس رستم لعله يصل إلى اتفاق يمنع قيام الحرب بينهما، ولكن الجهود فشلت ونشبت المعركة بين الجيشين الإسلامى والفارسى، وكان جيش المسلمين لا يزيد عن ثمانية آلاف بقيادة سعد بن أبى وقاص، فى حين تكون جيش الفرس من مائة وعشرين ألف بقيادة رستم، واستمرت المعركة أياما ثلاثة، وانتصر المسلمون وقتل رستم وفر عشرات الألوف من جنود الفرس وغنم المسلمون أموالا كثيرة.

ثم تبع سعد بن أبى وقاص الفرس إلى جلواء فى السنة السادسة عشرة للهجرة، وأوقع بهم وأسر وقتل عددا كبيرا من الفرس ، وأسلم الكثير من الفرس فأقرهم الخليفة عمر بن الخطاب على ما بأيديهم من البلاد، وكتب سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة عمر يهنئة بالنصر المؤزر للمسلمين، ورد عليه عمر قائلا:" قف مكانك، واقنع بهذا، واتخذ للمسلمين دار هجرة، ومدينة يسكنونها، ولا تجعل بينى وبينهم بحرا[4]. وقد نفذ سعد بن أبى وقاص أوامر الخليفة عمر واتخذ الكوفة مدينة للمسلمين وأسس بها المسجد الجامع.

وصل سعد بن أبى وقاص إلى عاصمة العراق (طيفسون) بعد أن توغل داخل البلاد، وقد أطلق العرب على العاصمة اسم " المدائن" وكانوا قد حاصروها شهرين ثم استولوا عليها وغنموا منها غنائم كثيرة، واتخذ سعد بن أبى وقاص من " المدائن" قاعدة للأعمال الحربية فى العراق[5].

وأخيرا كانت معركة نهاوند بمثابة آخر محاولة للفرس فى حــروبهم مع المسلمين، ويطلق المؤرخون على هذه المعركة "فتح الفتوح" حيث استعد الفرس بجيش قوامه مائة ألف مقاتل وقيدوا جنودهم بالــسلاسل خوفــا مــن الفرار، أما قائد المسلمين النعمان بن مقرن فكان الخليفة عمر بن الخطاب قد ولاه سنة واحد وعشرين هجرية، وقد استمات الفرس فى القتــال غيــر أن النصر كان حليف المسلمين، وبعد الاستيلاء على نهاوند سار جيش المسلمين إلى الأهواز وفتحها سنة اثنين وعشرين للهجرة، ثم فتح قم وقاشان وأصبهان التى أدى أهلها الجزية، وعقدت "حرجان" صلحا مع المسلمين، وحذا حــاكم طبرستان حذو" حرجان" وكان غزو المغيرة ابن شعبة والى الكوفة لأذربيجان وفتحها وفرض الخراج عليها، ثم قام المسلمون بغزو البلاد المحيطة بأرمينية وأرمينة وفتحوا معظمها، ويذكر المؤرخون أن المسلمين غزوا بلاد التــرك لكن أقدامهم لم تتوطد فيها، وزالت الدولة الفارسية(6). سنة واحــد وثلاثــين للهجرة بعد مصرع امبراطورها يزدجرد فى عهد الخليفة عثمان بن عفــان حيث توطدت أقدام المسلمين فى بلاد فارس رغم أحداث التمرد من جانــب الفرس والتى قضى عليها تماما والى البصرة عبد الله بن عامر سنة ثلاثــين للهجرة كما أصدر الخليفة عثمان بن عفان أوامره إلى معاوية بن أبى سفيان واليه على الشام باستعادة إقليم أرمينية، وانتصرت جيوش المــسلمين علــى جيوش الروم، وصولا إلى عهد الخليفة على بن أبى طالب والذى لم تتم فتوح تذكر فى عهده لانشغاله بالفتن الداخلية، وظلت البلاد المفتوحة على أوضاعها السابقة فى عهد الخليفة عثمان بن عفان.

الدروس المستفادة:

الواقع أن هناك العديد من الدروس المستفادة والمستخلصة من معارك فتح العراق والجهود الرائدة للخلفاء الراشدين والقادة العسكريين الذين رفعوا راية الإسلام فى هذا الجزء من قارة آسيا، ويمكن إجمال هذه الدروس فيما يأتى وفقا لرؤى العديد من الباحثين:

أولا: إن أهمية الانتصارات الإسلامية فى العراق تأتى من كونها شقت الطريق أمام العرب المسلمين لتثبيت أقدامهم فى العراق، وكانت بلاد العراق بذلك بداية تجارب المسلمين العسكرية العظيمة خارج نطاق شبه جزيرة العرب.

ثانيا: تعتبر فتوح العراق، فتوحا خاطفة، فاز بها المسلمون بفضل العزيمة القوية والإرادة الصلبة لخالد بن الوليد، فقد كان يقود الجيوش، ويتقدمها بنفسه، ويبارز خصومه، فيفتك بهم، ويشتت جموعهم، وتجدر الإشارة أن كثيرا من العرب كانوا قد زاروا العراق فى الجاهلية بهدف التجارة وكان العرب المقيمون فيه من بنى تغلب، وبكر، وربيعة ذوى صلات قوية بعرب نجد والحجاز، ومع ذلك فلم يقف أهل العراق مع عرب الحجاز ونجد فى مواجهة الفرس لأن الفرس تمكنوا من اجتذاب سكان العراق إلى جانبهم غير أن الحليفين قد انكسرا أمام الفتح الإسلامى الكبير.

ثالثا: كانت الحيرة عاصمة البلاد السابقة تدور فى فلك التبعية الفارسية وقد كانت الهدف المباشر لخالد بن الوليد حيث بدأ المعركة فور وصوله، ولعل ما أورده الطبرى وابن الأثير من صفات خالد ابن الوليد وألمعيته العسكرية الفذة خير دليل على انطلاق الإسلام فى هذه البلاد بدءا[(7)] من موقعة "اليس"- وهى قرية من قرى الأنبار فى أول العراق من ناحية البادية- ومرورا بوقعة الولجة- فى أرض كسكر- التى شهدت قتالا عنيفا- حسب رؤية الطبرى ثم أمغيشيا وأخيرا "فرات بادقلى"- التى مهدت الطريق

إلى الحيرة، حيث سارع زعماؤها إلى خالد فصالحوه على أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس، وكان اتفاق " الحيرة" النموذج العام للعلاقات السياسية الإسلامية مع خصوم المسلمين، بل أن هذا الاتفاق قد تحول إلى وثيقة فى الاتفاقيات العسكرية وأسسها بشأن التعامل مع البلاد المفتوحة وشعوبها، فقد نص كتاب الاتفاق بين خالد بن الوليد وبين زعماء الحيرة، "أن خليفة رسول الله أمرنى أن أسير بعد منصرفى من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم، بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام. وأبشرهم بالجنة، وأنذرهم من النار، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وأنى انتهيت إلى الحيرة، فخرج إلى أياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة، من رؤسائهم وأنى دعوتهم إلى الله ورسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا لا حاجة لنا لحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه من غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية.. فصالحونى على ستين ألف، وشرطت عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل، أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم، لا من العرب ، ولا من العجم فإن هم خالفوا، فلا ذمة لهم، ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه، وأدوه إلى المسلمين، فلهم ما للمعاهدة، وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على دينهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق.... [8].

رابعا: انعكست التطورات السياسية فى الخلافة الراشدة، وخاصة بعد وفاة أبى بكر وبيعة عمر بن الخطاب على القيادات العسكرية فى مختلف محاور القتال وخاصة فى العراق، حيث أمر الخليفة عمر ابن الخطاب بعزل القائدين الكبيرين، المثنى وخالد، تحت تأثير أسباب قيل الكثير[9] فى تعليلها. ومن الأرجح صحة الرأى القائل أن العلاقة كانت غير ودية بين الخليفة عمر ابن الخطاب وخالد بن الوليد قبل تولى الأول زمام الخلافة، حيث يتوقف

المؤرخون المحدثون عند قول خالد ابن الوليد وقد استاء من قرار نقله إلى الشام- "هذا عمل عمر نفس على أن يفتح الله على يدى العراق"- والمتبع لأسلوب الخليفة الجديد ونهجة فى الحكم- كما لاحظ بيضون أن شخصيته القوية طغت على الدولة، وأن إدارته عملت على تقوية " المؤسسة" على حساب الزعامات السياسية والقبلية، فضلا عن القيادات العسكرية، التى كانت عرضة للتغيير في عهده، كونها تمتلك عناصر البروز والتألق من خلال ما صنعته من الانتصارات الباهرة.

خامسا: كان سعد بن أبى وقاص أحد القادة التاريخيين فى الإسلام والصحابة المقربين من النبى ﷺ، والمشاركين فى العمليات العسكرية الأولى بين المدينة ومكة، وكانت كفاءته وراء اختياره قائدا للجبهة العراقية، كما كان لذلك دلالة من الخلافة الراشدة على مدى الاهتمام بهذه الجبهة، مقياسا إلى الأسلحة المعروفة التى استخدمها المسلمون، كان الفرس متفوقين بالأدوات الحربية المتطورة، غير أن قناعة المسلمين بعقيدتهم القتالية الإسلامية قد مكنهم من تحقيق النصر على أعدائهم من الفرس الذين انحدرت قيم مجتمعهم بما فيها عقيدتهم التى أفرغت من محتوياتها الاصلاحية لتخدم فقط مصالح الفئة الحاكمة، المرتبطة عضويا بمصالح كبار رجال الدين (الموابذة).

سادسا: قبل أن تزحف الجيوش الإسلامية إلى العراق، كانت الأزمات الداخلية تأخذ فى التفاقم فى الامبراطورية الفارسية، وبدأ الارتباك يسيطر على المواقف الفارسى فى حين ارتفعت معنويات جيش المسلمين، وفى "القادسية" التى عرفت بأنها "باب فارس"، اتخذ سعد بن أبى وقاص مركز قيادته، وسجل التاريخ نصرا جديدا لقوات المسلمين التى اندفعت بعد ذلك تجاه الشرق مستهدفة "المدائن" ومستفيدة من عنصر الوقت بعد أن حاذت شواطئ الخليج وذلك بإقامة مراكز دائمة للإعاشة وتسهيل التحركات العسكرية وحماية الخطوط الخلفية، وكان عزل سعد بن أبى وقاص واختيار

النعمان بن مقرن المزنى أحد القادة البارزين فى العراق بمثابة تأكيد جديد لموقف الخليفة عمر بن الخطاب من القيادات العسكرية بشأن التوجس من فرص التألق والشهرة التى تجنبها طبيعة دور هذه القيادات، مما كان يدفعه إلى معالجة هذا بالتغيير، والحيلولة دون تحقيق انتصارات متكررة لقائد واحد.

سابعا: بعد انتصار المسلمين فى "نهاوند" استمرت قوات الزحف الإسلامى المظفر فى التوغل فى عمق الإمبراطورية الفارسية المتهاوية، حيث سقطت الأقاليم والمدن الهامة التى أصبحت جزءا من الدولة الإسلامية مثل أصبهان وهمذان والرى وخراسان وغيرها، وقد ظل "يزدجرد" آخر أكاسرة الفرس يعيش سنوات متخفيا على حدود مملكته الضائعة، وسعى سرا إلى ملك الترك المعروف بالخاقان من أجل مده بالمساعدة لمقاومة المسلمين، غير أن هذا الأخير لم يشجعه، فلجأ إلى سمر قند ليواجه مؤامره على يد خلفائه انتهت بقتله.

فتوح الشام:

كانت بلاد الشام تحت سيطرة الدولة البيزنطية، وساءت أحوالها السياسية والاقتصادية، وكان الربع الأول من القرن السابع الميلادى فترة مشئومة على بلاد الشام، لأنها أصبحت ميدانا للحروب بين الفرس والروم وفى سنة 628م عقد(شيروبه) إمبراطور الفرس صلحا مع (هرقل) إمبراطور الروم الذى دخل القدس وطرد جميع من فيها من اليهود وأعاد للبلاد بعض هدوئها، غير أنه انغمس فى اللهو والعسف، وعاد الناس يقاسون من حكمه، وفى هذه الفترة توالت أنباء الزحف الإسلامى فى جنوب بلاد الشام منذ أواخر عهد الرسول ﷺ الذى كان أول من فكر فى فتح الشام، وقد سبقت الإشارة إلى ما كتبه ﷺ إلى أمراء عرب الشام يدعوهم إلى الإسلام[10].

وكانت " مؤته" – أول مدينة سورية متاخمة لجزيرة العرب– وقد بعث الرسول ﷺ زيد بن حارثة إلى "مؤته" لمواجهة جيش "هرقل". ورغم تفوق جيش الروم، إلا أن المسلمين أظهروا جرأة وشجاعة فائقتين، وقتل زيد وهو يحمل الراية التى عقدها رسول الله ﷺ، فتناولها جعفر بن أبى طالب، وقاتل عنها حتى قتلهو الآخر، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة وقاتل عنها حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أرقم العجلانى قائلا[11]: يا معشر الناس، أصطلحوا على رجل منكم، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، فلما أخذ خالد الراية دافع القوم، ثم انحاز، وتحيز عنه، حتى انصرف الناس، وانكفأ راجعا، وكانت براعته هذه سببا فى إنقاذ جيش المسلمين، ولكن الله سلم، ولما رجع الجيش إلى المدينة تلقاه الرسول ﷺ، وأنشد الصبيان، فقال الرسول ﷺ: خذوا الصبيان، وأعطونى ابن جعفرﷺ، فأتوا بعبد الله بن جعفر، فحمله بين يديه، وجعل الناس يحثون التراب على الجيش، ويقولون: يا فرار.... يا فرار، فقال رسول الله ﷺ: ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار فى سبيل الله إن شاء الله.

وتذكر المصادر أن الرسول ﷺ لم يكد يستقر بعد فتح مكة والطائف، حتى أخذ يعد العدة من جديد لغزو الشام، فاستنفر الناس لقتال الروم، فلبوا دعوته[12]. وأنفق كبار أغنياء الصحابة أموالا جساما، فلم ينفق أحد أعظم مما أنفقه عثمان بن عفان، وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وسار الرسول ﷺ فى ثلاثين ألف مقاتل، فلما أراح الجند فى "تبوك"، توافدت عليه أمراء النواحى العربية، وأولهم " يحنه بن رؤية" صاحب" أيلة"، فصالح الرسول ﷺ، وأعطاه الجزية، ثم جاء أهل" جرباء" و"أذرح" فأعطوه الجزية.

بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر ابن عبد الله الكندى أمير "دومة الجندل"، فلما قدم عليه صالحه، وجاء به إلى رسول ﷺ، فحقن دمه وخلى سبيله، ولم يقم الرسول ﷺ فى تبوك إلا بضع عشر ليلة، قفل بعدها إلى المدينة، وبعث بأسامة بن زيد إلى الشام، ولما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واستخلف أبو بكر، وأنفذ جيش أسامة، فدخل الشام، ونفذ ما كان أمره به الرسول ﷺ،ثم رجع منتصرا، وغانما.

أبو بكر فى الشام:

يذكر المؤرخون أن أبا بكر أعد أربعة جيوش لفتح الشام فى أول[13]. السنة الثالثة عشرة للهجرة وذلك بعد أن انتهى من حروب الردة حيث جمع المقاتلين من جميع أجزاء الجزيرة العربية، وعقد الألوية لأربعة من الأمراء هم : أبو عبيدة بن عامر بن الجراح ويتجه إلى حمص وله القيادة العامة، ويزيد بن أبى سفيان ويتجه إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة ويتجه إلى الأردن، ثم عمرو بن العاص ويتجه إلى فلسطين.

سارت جيوش المسلمين نحو سورية، وكان أول فتح تم على أيديهم هو فتح يزيد لتبوك، ثم خلفها وراءه وسار حتى التلال التى تشرف على "وادى عربة"، فعلم بمقدمه قائد فلسطين "البطريق سرجيوس" ، فاستعد للقائه، والتقى الجيشان عند "وادى عربة"، وانتصر يزيد واضطر "سرجيوس" إلى الانسحاب إلى غزة، فلحق به المسلمون وجرت بين الطرفين معركة كبرى[14]. وقتل فيها سرجيوس، وكاد المسلمون يقضون على الجيش البيزنطى الذى بلغت هزائمة إلى "هرقل"، فأمر أخاه أمير حمص، كما أمر بعض القادة بحماية القدس، ومن الأرجح أن عدم وجود خطة معينة للعرب فى فتوح الشام– كما يرى[15]. البعض– قد جعل البيزنطيين يضطربون فى الاستعد لهم.

ودارت أكبر المعارك بين الطرفين "معركة أجنـــادين"، فقـــد حـــشد البيزنطيون جيشهم لمواجهة المسلمين الذين أخذوا يهاجمون جنوبى فلسطين، وتذكر المصادر أن عمرو بن العاص كتب إلى الصديق يستنجده، فأجابه بأن يترك القيادة العراقية للمثنى بن حارثة ويتوجه إلى الشام، وتختلف المصادر حول موعد سفر خالد بن الوليد أو عدد الجيش الذى سار به مـــن العـــراق إلى الشام، أو الطريق التى سلكها خالد، ولما وصل خالد إلى الـشام التقـــى بيزيد وشرحبيل، وأبى عبيدة فعاونهم على فتح "بصرى"، وكانت أول مـــدن الشام التى فتحت فى عهد أبى بكر، ثم اتجه الجميع إلى الجنـــوب لمـــساعدة عمرو بن العاص فى "وادى عربة"، فلما علـــم البيزنطيـــون بقـــدوم جـــيش المسلمين، قصدوا "أجنادين"، وتقع بين "الرملة"، و"جيرين"، وكان البيزنطيون قد جمعوا فيها قـــواتهم بقيـــادة" تيـــودوس" شـــقيق الإمبراطـــور"هرقـــل"، وكانت المواجهة العسكرية فى جمادى الأولى من السنة الثالثة عشرة للهجرة (يوليو 634م)، وانتصر المسلمون على قوات بيزنطة، التى اضطرت إلـــى التراجع إلى القوس، وأخذت تعيد جمع شتاتها استعداد لقتال المسلمين، ويذكر الطبرى[16]. أن خالد بن الوليد خطب فى الناس قائلا:"إن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة.. واعملوا فيما لم تؤمروا به، وبالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته"، فقالوا له: وما الرأى؟ قـــال:" الله... الله، فقـــد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان، لا ينتقص منه، أن دان لأحد من أمـــراء الجنود، ولا يزيد عليه أن دانوا منه،.... هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم، لم نزل نردهم، وإن هزمونا، لـــم نفلح بعدها، فهلموا، فلنتعاون الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدا، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعونى إليكم اليوم...".

رتب خالد الجيش الإسلامى،وكان عدده أربعة وعشرين[17]. ألفا. جيش الروم فبلغ عدده ثمانون ألفا بقيادة ماهان القائد الأرمنى، وجرى اتصال بين خالد وماهان فى مكان يسمى الواقوصة بهدف الصلح، إلا أن هذا الاتصال لم يصل إلى نتيجة. وقد جعل خالد أبا عبيدة فى القلب، وعمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة، وقد لحقت الهزائم بجيش الروم، وكتب النصر للمسلمين، ولما سمع هرقل ما حدث فى اليرموك هرب إلى القسطنطينية قائلا:"عليك السلام يا سورية...ونعم البلد"– (البلاذرى– فتوح البلدان ص 142).

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال نشوب المعارك واحتدامها جاء صاحب البريد من المدينة، فلما سألوه عن الخبر، لم يجد إلا السلامة، والحقيقة أنه جاء بنعى أبابكر الصديق، واستخلاف عمر بن الخطاب، وعزل خالد ابن الوليد، وتأمير أبى عبيدة بن الجراح ولما أبلغ صاحب البريد خالدا ذلك، وأعطاه كتاب عمر، فإن خالدا لم يقرأ الكتاب حتى انتهت معركة اليرموك، وفتحت دمشق، وتختلف المصادر حول ذلك حيث تذكر رواية أخرى أن خالدا أخذ كتاب عمر بن الخطاب، وجعله فى كفانته، وخاف إن هو أظهره، أن تنتشر الفوضى وتحدث الفتنة، ثم أن خالدا قد استبسل فى القتال حتى تضعضع الروم، وتولى خالد بنفسه قلب جيشه حتى اقتحم جند العدو وصفوفهم، وصار بين خيلهم، فهرب الخيالة الروم إلى الصحراء، أما الرجالة "المشاة" فقد سقطوا بين أيدى المسلمين، وغنم المسلمون غنائم كثيرة.

هوامش الفصل الثانى

(1) حيث ذكر الرسول ﷺ أن الله سبحانه وتعالى قد انتقم من كسرى وسلط عليه ابنه شيروية فقتله، فلما تولى شيرويه حكم الفرس بعث إلى عامله باليمن أن لا يتعرض بأذى للرسول ﷺ، وقد أسلم باذان فأبقاه الرسول ﷺ فى إمارته..

(2) راجع تفصيل هذه المعارك فى : الطبرى حيث أجمل هذه المعارك فى معركة ذات السلاسل، ومعركة المذار (الثنى)، ومعركة الولجة، وفتح أليس وأهيشيا، وفتح الحيرة، والقصور وفتح السواد وفتح الانبار ثم وقعة عين التمر ومعارك دومة الجندل والحصيد وخنافس والمصيخ والثنى والفراض وسائر الجزيرة، وهى تخوم الشام والعراق، ولما أتم الله لخالد فوزه جعل على الجيش عاصم بن عمر،ومضى للحج حيث أتمه ورجع مسرعا إلى الحيرة فتلقى كتابا من الصديق يأمره بالتوجه إلى الشام، وقد أوردنا فى المتن تبسيطا لهذه المعارك على نحو يخدم أهداف هذه الدراسة.

(3) وقد قتل فى هذه المعركة كل من أبى عبيد بن عمر الثقفى، وسليط بن قيسى الأنصارى، راجع فى تفصيل ذلك: البلاذرى- أحمد بن يحيى بن جابر- المتوفى سنة 279 هـ ، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله وعمر الطباخ 1957م ص 240- 242، دكتور أحمد قاعود، دكتور شحاده الناطور ص 77 .

(4) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الرابع ص 188- 190.

(5) البلاذرى، فتوح البلدان ص 262- 264.

(6) الطبرى ، تاريخ الرسل واللوك، الجزء الرابع ص 291- 294.

(7) والواقع أنه قد سبق هذه المعركة معارك أخرى منها المذار- أى منعطف النهر- كما يسميه الطبرى- أو معركة " الثنى" كما يسميها ابن الأثير.

(8) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة 182هـ- الخراج، المطبعة السلفية القاهرة 1396 هـ ص 84- 86.

(9) راجع فى تفصيل ذلك: الازدى، محمد بن عبد الله الأزدى البصرى، المتوفى سنة 165هـ، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ولعل من أفضل

الدراسات العربية الحديثة فى اطار المنهج التاريخى والمنهج التحليلى راجع: الدكتور إبراهيم بيضون، مرجع سابق ص 43- 58.

(10) الطبرى، الجزء الثالث، ص 95- 115.

(11) نقلا عن دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الأول، مرجع سابق ص58.

(12) يقول الطبرى أن ذلك حدث فى "زمن عسرة من الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، وأحبت الظلال، فالناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم" ولكن ذلك كله لم يعق الناس عن تلبية دعوة الرسول ﷺ، الطبرى، الجزء الثالث، ص 343.

(13) يرى فريق من المستشرقين أن فتوح الشام بدأت فى أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة، راجع دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق ص 60.

(14) وذلك فى شهر فبراير سنة 634م.

(15) فذلك للمرونة التى اتبعها قادة الجيوش الإسلامية حيث ارتاد كل قائد المنطقة التى وجدها صالحة لغزوه، المرجع السابق ص 61.

(16) الطبرى، الجزء الرابع ص 32- 35.

(17) ابن الأثير، (عز الدين أبو الحسين على بن أبى الكرم الشيبانى، المتوفى سنة 630 هـ) الكامل فى التاريخ، الجزء الثانى، دار الكتاب العربى، بيروت (1381هـ/ 1967م) ص 408- 410.

الفصل الثالث

عصر عمر بن الخطاب

13- 23 هـ / 634- 644م

- رسائل عمر إلى قادة الجيوش الإسلامية.
- من فتوح العراق إلى فتوح إيران.
- فتوح السند والبنجاب.
- تقويم.

رسائل عمر إلى قادة الجيوش الإسلامية:

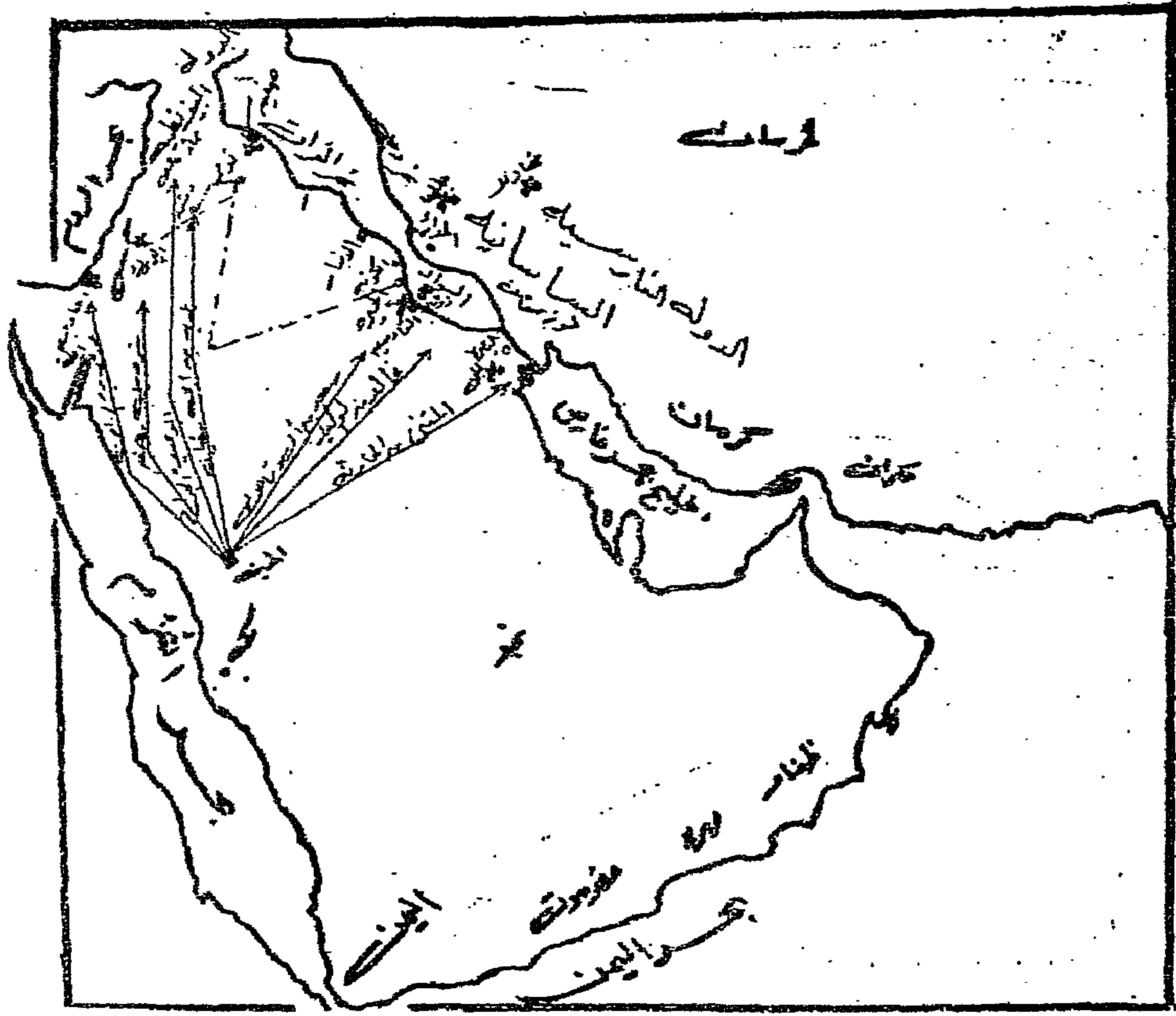
كان أول عمل دولي- على حد قول أحد المؤرخين [1] المحدثين- قام به عمر بن الخطاب أن كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح يوليه جند خالد بن الوليد فى الشام قائلا:" أوصيك بتقوى الله.. وقد استعملتك على جند خالد ابن الوليد، فقم بأمرهم الذى يحق عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده لهم، وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة ... وأغمض بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها...... [2]."

ثم كتب عمر بن الخطاب مرة ثانية إلى أبى عبيدة بعد أن طلب الأخير استشارته عندما تحالف أهل دمشق مع أهل حمص لمواجهة جيش المسلمين، فرد عمر قائلا:" أما بعد، فابدأوا بدمشق ، فإنها حصن الشام، واشغلوا عنكم أهل" فحل"، بخيل تكون بإزائهم، وأهل فلسطين، وأهل حمص، فإن فتحها الله قبل بدمشق، فذاك الذى تحب وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق، فلينزل بدمشق من يمسك بها... ودع شرحبيل وعمرو، وأخلهما بالأردن وفلسطين.....".

وما قرأ أبو عبيدة هذا الكتاب حتى سار إلى دمشق وحاصرها، وضيق الخناق على أهلها، وكتب الله النصر للمسلمين على نحو ما سبقت الإشارة إليه، غير أن المصادر تختلف فى كيفية وقوع فتح دمشق، فهناك من المؤرخين من يروى أن نصف المدينة فتح صلحا على يد أبى عبيدة بن الجراح، والنصف الآخر فتح حربا، وأن خالد بن الوليد هو الذى دخل حربا، فى حين يروى البلاذرى ان بعض الرهبان خابر قومه، واتفقوا مع خالد على أن يفتحوا له باب المدينة الشرقى، ففتحوه، ودخل المسلمون، فى حين دخل أبو عبيدة قسرا من باب الجابية، ويؤيد أسعد [3] طلس أن مدينة دمشق قد فتحت صلحا من جانب، وأن جزءا منها قد أخذ حربا ويستدل على ذلك بأمر قسمة الكنيسة الكبرى (الكاتدرائية) بين المسلمين وأهل المدينة من ثنايا نص الكتاب الذى كتبه أبو عبيدة على لسان أهل دمشق نقلا عن أبى القاسم

بن عساكر: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح من إمام دمشق، وأرضها، وأرض الشام عن الأعاجم، أنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا، وأهل ملتنا، وأنا اشترطنا لك على أنفسنا أن لا تحدث في مدينة دمشق، ولا فيما حولها كنيسة، ولا ديرا، ولا قلاية، ولا صومعة راهب، ولا تجدد ما تهدم من كنائسنا ولا شيئا مما كان فى خطط المسلمين، ولا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل والنهار... ولا تضرب بنواقيسنا إلا ضربا خفيا فى جوف كنائسنا، ولا نظهر الصليب عليها، ولا نرفع أصواتنا فى صلاتنا وقراءاتنا فى كنائسنا، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا... ولا نبيع الخمور ... ولا نرغب مسلما فى ديننا، ولا ندعوا أحدا إليه... ولا نمنع أحد من قرابتنا أن أراد الدخول فى الإسلام... ولا نتخذ شيئا من السلاح، ولا نجعله فى بيوتنا... وأن نوقر المسلمين فى مجالسهم... وعلينا لا نشتم مسلما، ومن ضرب مسلما فقد خلع عهده.. على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا، وأهل ملتنا، فأقرونا فى بلادكم التى ورثكم الله أياها، شهد الله على ما شرطنا على أنفسنا، وكفى بالله شهيدا(4).

ولما أتم خالد فتح قنسرين وحلب فقد عزم على فتح سائر مدن الشمال ومنها أنطاكية التى كانت حصن المسيحية، وتوجهت الجيوش نحو مدن الجزيرة، ففتحت الرها ونصيبين وبلاد أرمينية وتم الاتصال بين فتوح الشام وفتوح العراق، أما عمرو بن العاص قائد الجيش الجنوبى إلى فلسطين ومعه شرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبى سفيان فقد سارا كلاهما معا عبر البلقاء والأردن، على أن يتخذ شرحبيل معسكره إلى الشرق من النهر، بينما يتابع يزيد بن ابى سفيان مسيرته نحو دمشق. وقد استولى الجيش الجنوبى على بيسنان والأردن ثم اتجه إلى فلسطين وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد كتب إلى معاوية بن أبى سفيان قائلا: "أما بعد، فإنى قد وليتك قيسارية، فسر إليها واستنصر الله عليهم، وأكثر من قول لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير".





خريطة

الجيوش الإسلامية

في عهد الخليفة أبو بكر وعمر بن الخطاب

مقياس الرسم

كيلومترًا

X معركة

إعداد

شحادة الناطور

المصدر : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، تاريخ الدول العربية حتى نهاية الغزو المغولي ، مطبعة الخالدي ، عمان ١٩٨٢ .

وتذكر المصادر أن معاوية بن أبى سفيان كان قد سار إلى قيسارية – وكانت من أعظم الثغور – فحاصرها، واشتد القتال حولها، وأبلى المسلمون بلاءا حسنا، وتم لهم فتحها، ثم سار معاوية نحو عمرو بن العاص بعد أن فتح نابلس وعسقلان وغزة، وتجمعت الجيوش الإسلامية حول القدس، وحاصرتها لمدة أربعة أشهر لقى فيها الروم الجوع والعطش وتكاتب عمرو بن العاص وبطريق القدس فى شروط الصلح، وكان الروم يخافون على الكنيسة العظمى، وطلب البطريق أن يباشر بنفسه عقد الصلح مع الخليفة عمر بن الخطاب، فكتب عمرو ابن العاص إلى الخليفة عمر الذى قدم بالفعل إلى القدس ودخلها، وصالح أهلها، ويورد الطبرى نص الكتاب الذى كتبه عمر إليهم قائلا:" هذا ما أعطى عبد الله عمر أمين المؤمنين أهل إيلياء الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تكن كنائهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من خيرها، ولا من صليبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه، وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم، وعلى بيعهم، وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل فضل خلان، فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله،

وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبى سفيان[5].

ويتضح من هذه الوثيقة أن فتح القدس كان فى أواخر السنة الخامسة عشر للهجرة وهو ما كتب بالفعل فى نهايتها، وبفتح القدس (إيلياء)، وقيسارية (قيصرية)، ودمشق، أفل نجم السلطان الرومى فى سورية، وهرب من هرب من الروم إلى آسيا الصغرى، وقضى على الدولة البيزنطية فى الشام، وقد توج هذه الفتوحات حضور الخليفة عمر ابن الخطاب وعقده صلح القدس المشرف للإسلام وفى نفس الوقت فإنه حافظ على كيان المسيحية وتقاليدها، وهو ما يعد نموذجا يحتذى به فى تاريخ العلاقات السياسية الدولية بين الإسلام وخصومة حيث خليفة المسلمين يغادر بنفسه الحجاز إلى القدس ويعقد اتفاقا مع بطريق الروم ينص على حماية أرواح وكنائس وممتلكات سكانها النصارى.

غير أن مجيء الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام، لم يكن من أجل هذه المهمة فقط، لأن مهمات أشد خطورة كانت فى انتظاره للبت فيها. ذلك أن المسلمين بعد انتصاراتهم الباهرة فى الشام والعراق، وجدوا أنفسهم فى مأزق الاختيار– على حد قول بيضون[6]– بين التوقف عند هذا الحد من المنجزات، والاهتمام بشئون البلاد التى خضعت لهم، وبين المضى فى الاتجاه "التوسعى" إلى مناطق جديدة، ولعل النتيجة الأولى فى هذا السبيل هى السيطرة على "الجزيزة"، التى تقع ما بين النهرين (دجلة والفرات). وتشتمل على ديار مضر، وبكر، وربيعة. أما أشهر مدنها فهى الرقة، وحران، والرها، وسنجار، ونصيبين، وماردين، والموصل التى افتتحت جميعها دون صعوبة كما وردت الإشارة إلى ذلك.

وتجدر الإشارة أنه أثناء وجوده فى المدينة المقدسة، وضع الخليفة عمر بن الخطاب حجر أساس مسجده فى أواخر السنة الخامسة عشرة للهجرة، ورجع إلى المدينة المنورة بعد وبذلك تم فتح العراق والشام وفلسطين، أما مصر فكانت بظروفها السياسية والدينية امتداداً للظروف السائدة في الشام، وكانت مهيأة هى الأخرى للفتح الإسلامى الذى تم بالفعل على نحو ما جاء فى وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين (المقوقس) حاكم مصر– وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة (7).

من فتوح العراق إلى فتوح إيران:

ترتبط فتوح العراق بفتوح إيران فى عصر الخليفة عمر ابن الخطاب، وقد سبقت الإشارة أن الفتوح الإسلامية فى العراق فى عهد الصديق قد انتهت فى الجزيرة الفراتية على يد سيف الله خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة، وقد كتب الصديق إلى خالد بترك العراق ومساعدة الجيش الإسلامى فى الشام، وأن خالدا خلف المثنى بن حارثة فى الجزيرة وسار نحو الشام وأن العراق قد استأثر باهتمام عمر ابن الخطاب الذى أخذ يحث الناس على الانضمام للمثنى بن حارثة، وأن الله سبحانه وتعالى حين نصر المسلمين على الفرس فى السنة الثالثة عشرة للهجرة، فقد استبشر الخليفة عمر بذلك وعزز الجيش الإسلامى بسعد ابن أبى وقاص وأوصاه قائلا: "يا سعدبنى وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله، وصاحب رسول الله فإن الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيئ، ولكنه يمحو السيىء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ﷺ عليه منذ بعث إلى أن فارقنا، فالزمه، فإنه الأمر....".

وتوالت الرسائل بين سعد بن أبى وقاص والخليفة عمر بشأن أحوال بلاد فارس وأوضاعها الجغرافية والسكانية والحربية، وتضمنت ردود الخليفة عمر إليه تشجيعه قائلا:".. أقم مكانك حتى ينفض الله لك عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها أن شاء الله". وقد استمر سعد ابن أبى وقاص على مثابرته فى القادسية وهو يناوش الفرس حتى جاءه كتاب عمر قائلا: "لا يكربنك ما يأتيك عنهم، واستعن بالله وتوكل عليه". وقد نصر الله سبحانه وتعالى جيش المسلمين فى القادسية، كما سبقت الإشارة، وكانت هذه المعركة هى المعركة الفاصلة للفتح الإسلامى فى بلاد فارس، وسار سعد، ففتح (كوثى) و (ساباط) متجها إلى المدائن، ولما رأى إيوان كسرى تذكر وعد رسول الله ﷺ إليهم بفتح إيوان كسرى، فقويت قلوبهم، وحاصر المدينة، وكتب إلى الخليفة عمر يبشره، ويخبره، ويستشيره بشأن أعدائه المهزومين، فجمع عمر أهل الشورى من المسلمين فى المسجد وخطبهم قائلا: "... وأن من ادعى، فصدق، أو وفى فبمنزلتهم، وإن كذب نبذ إليهم وأعادوا صلحهم، وأن يجعل أمر من جلا إليهم، فإن شاءوا دعوهم، وكانوا لهم ذمة، وأن شاءوا أتموا على منعهم من أرضهم، ولم يعطوا إلا القتال وأن يخيروا من أقام واستسلم بهذا الجزاء والجلاء".

وكتب الخليفة عمر إلى سعد بن أبى وقاص بذلك ، فخلى سعد عن الفلاحين الفرس، وأرسل إلى الدهاقين، ودعاهم إلى الإسلام، أو الجزية، ولهم الذمة، فتراجعوا إلى ديارهم، ولم يبق غربى دجلة سوادى(8). إلا دخل فى ذمة المسلمين، وفرح الأعاجم بذلك، فدخل جيش المسلمين المدائن بقيادة سعد بن أبى وقاص، وصلى فيها وقرأ قوله تعالى:" كم تركوا من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم".

وقد استكمل جيش المسلمين فتح إيران، وغنم مغانم كثيرة من "السوس"، و"جند يسابور" وصولا إلى نهاوند كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكتب الخليفة عمر إلى أبى موسى الأشعرى أمير البصرة أن يوجه الأمراء لفتح ما بقى من البلاد وهم: الأحنف بن قيس إلى " بلاد خراسان"، والمجاشع ابن مسعود السلمي إلى "أردشير خرة" و "سابو"، وعثمان بن العاص إلى " اصطخر" وسارية بن زنيم الكنانى إلى " فا" وسهيل بن عدى إلى "كرمان" وعاصم بن عمر إلى "سجستان"، والحكم بن عمير التغلبى إلى "مكران"، وقد أتم الأمراء هذه الفتوحات الإسلامية لما بقى من بلاد فارس حتى نهر السند حيث انتشر الدين الإسلامى فى ربوع هذه البلاد الشاسعة وهو ما يقتضى تفسير الفتوحات الإسلامية لشبه القارة الهندية- وخاصة السند والبنجاب- فى عصر الخليفة عمر بن الخطاب.

فتوح السند والبنجاب:

السند والبنجاب: بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية:

تشكل بلاد السند ومعظم البنجاب والمعروفة فى الوقت الحاضر بـ "الباكستان"- جزءاً هاما من شبه القارة الهندية، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون حول اسم بلاد السند، فالبعض[9] يذكر بأن الاسم القديم لبلاد السند هو "سندهو" نسبة إلى نهر السند، فى حين أن كلمة "بنجاب" هى اسم فارسى لمياه الأنهار الخمسة فى بلاد السند، فى حين يذكر آخرون[10]. أن كلمة "سندهو" كانت اسما قديما لنهر السند ومنطقة السند أيضا، وأن الأغريق قد أطلقوا هذه التسمية على نهر السند حيث عرفته أوروبا بهذا[11]. الاسم، وهناك رواية شرقية بأن اسم السند منسوب إلى "سند بن حام[12] بن نوح" فى حين يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب بعد الإسلام اسم السند بصفة عامة على المناطق المحيطة بنهر السند الكبير، وكانت بلاد السند فى عهد العرب تتكون من الإقليم الشمالى الغربى ومنطقة البنجاب مع

المنطقة المجاورة الممتدة إلى أرض أفغانستان حتى نهر هلمند، ومنطقة بلوجستان، بالإضافة إلى منطقة السند الحالية ومنطقة كجه، فكانت هذه المناطق تسمى بلاد السند فى عهد العرب.

تأثرت بلاد السند والبنجاب بالظروف السياسية التى مرت عليها، فقد كانت بعض المناطق تخرج من أيدى العرب ثم تعود إلى حكمهم، وبالتالى انعكس ذلك على تطور مشكلات الحدود من حيث تعيينها، وفى هذا الصدد يقول عالم الجغرافيا العربي البشارى المقدسى (13):" وضع هذا الإقاليم – يقصد السند– هو أنه يقع فى شرقه بحر فارس، وفى غربه كرمان وسبحستان وأعمالهما، وفى شماله تقع بقية بلاد الهند، وفى جنوبه تقع مفازة مكران وجبال القفص ومن ورائها بحر فارس (14). وتأثرت الحدود أيضا بوجود نهر السند الذين كان العرب يطلقون على هذه البلاد لقب "بلاد السند"، نسبة إلى نهر السند العظيم نظرا لمظاهر النعم والخيرات من المزروعات والخضروات والعقاقير والتوابل والأزهار والعطور، وينبع نهر السند من جبل كيلاس ببلاد التبت، ويبلغ طوله نحو 1800 ميل ويجرى ثلثه داخل بلاد السند، ويمر النهر ببلاد كشمير ثم فى إقليم البنجاب حيث يلتقى أنهار خمسة بنهر السند، ثم يجرى نهر كبير من البنجاب إلى داخل بلاد السند، ثم يتفرع إلى فروع كثيرة فى أراضى واسعة ويتكون منها أحد عشر مصبا، بعضها قابل للملاحة حيث تدخلها السفن التجارية، ثم يصب النهر فى النهاية فى بحر العرب.

كانت بلاد السند تنقسم قديما إلى أربعة أقاليم جغرافية هى: السند العليا والسند الوسطى والسند السفلى وإقليم كش (كجه)، فى حين أنها كانت تمثل خمسة أقاليم سياسية هى: إقليم برهمن آباد، وإقليم سيوستان، وإقليم اسكلنده، وإقليم الملتان– البنجاب حاليا– وإقليم الور.

أقامت أقوام عديدة فى بلاد السند قبل الإسلام، بل أن بعضها يرجـــع إلى ما قبل خمسة آلاف سنة مثل قوم الدراوردبين وهم أصـــحاب حـــضارة عظيمة فى المنطقة، وتدل الآثار القديمة على أن سكان وادى نهر السند قـــد تعرضوا لظلم واضطهاد البربر الذين أتوا إلى بلاد السند قبل الفـــرس عنـــد زحفهم نحو الشرق عن طريق بلوخستان،وكان من نتيجة هذا الاضطهاد أن نزح قوم الدراوردين إلى أماكن أخرى فى بلاد السند، ويعتبر قوم الآريين– نسبة إلى الآرى– هم القوم الثانى الكبير الذى أتى إلى بلاد السند من وســـط آسيا فى الفترة من سنة 3500– 600 ق. م وقضوا على نفوذ الدراوردبين.

وعندما انتشر الإسلام فى هذه البقاع فقد أتت أقوام أخرى انـــدمجت بالسكان القدامى وأثرت فيها، ومنهم العـــرب الـــذين فتحـــوا بـــلاد الـــسند، فى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) وحكموها أكثر من أربعة قرون، ومن الثابت أن العرب من الجنس السامى، وقد تركوا تأثيرهم العظيم على بلاد السند من النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية، وكانت القافلـــة الأولى التى وصلت إلى حدود بلاد السند بعد ظهور الإسلام هى حملة بريـــة سكنت إقليم مكران، واقتربت من نهر السند، ثم تراجعت إلى مكران سنة [15] 23 هـــ، وبعد أن أتم العرب فتح بلاد السند فى سنة 92هـــ، فقد سكنت قبائل عربية مختلفة فى المدن، واندمجوا مع أهلها مما كان له انعكاساته الإيجابيـــة فى نشر الثقافة الإسلامية فى هذه البلاد الواسعة.

وفى عهد العرب كان هناك قبائل سندية أهمها الزط والميد واتسمت هذه القبائل بتعصبها الوطنى والقومى، وتنافسوا على حكم البلاد، وكان الزط أكثر عدد وأقوى نفوذا، وأخطر على الأمن والدولة من الميد، وربما يفـــسر هذا سبب اهتمام محمد بن القاسم الثقفى فاتح بـــلاد الـــسند (9– 95 هـــــ) بدراسة أحوال قبيلة الزط الكبيـــرة، ولمـــا أيقـــن أنهـــم يقومـــون بـــالفتن والاضطرابات، والإغارة على القوافل التجاريـــة، ونهـــب الأمـــوال وقتـــل

الأنفس– فقد عاملهم محمد بن القاسم الثقفى معامل شـــديدة ووضــع قيــودا صارمة عليهم لضمان الأمن والاستقرار.

وعموما فقد اتفقت المصادر التاريخية بأن العرب المسلمين قد عاملوا الأقوام الكبيرة فى بلاد السند معاملة طيبة شملت أيضا أولئك الذين لم يعتنقوا الإسلام ولكن شريطة أن يدينوا بالطاعـــة للحكومـــة ورغـــم قلـــة العـــرب – إذا ما قيسوا بسكان البلاد الأصليين– فقد استطاعوا فرض سيطرتهم بفضل سياستهم الحكيمة وأخلاقهم الحميدة وكان تأثير العرب قويا فى هذه القبائـــل غير المتحضرة والتى اتسمت بعادات سيئة وصفات وحشية وتقاليد غريبة.

تفرعت عن العرب قبائـــل أخـــرى، ومـــنهم قبائـــل[16]. التهـــاكرة **Thokurs**، حيث انضم عدد كبير من قادتهم إلى محمد بن القاسم الثقفي أيام الفتوحات، وساهموا بخدماتهم فى الجيش العربى أثناء حملاته الحربية ممـــا كان له دور فعال فى انتصارات العرب. ومن القبائل التى أعلنـــت ولاءهـــا للعرب رغم عدم اعتناقها الإسلام: قبيلة سومرا **Somra** وكانـــت متمـــسكة بمذهبها البرهمى الهندى، وقبائل لوهانه– وهى برهمية هى الأخرى– فـــى حين دخلت قبائل كثيرة إلى الإسلام ومنها كوكهر **Khokhars** التى اشتهرت فيما بعد باسم قبيلة **Sirai** فى بلاد السند، وقبيلة سهتا **Shatas** التى عاملهـــا محمد ابن القاسم الثقفى معاملة طيبة، وقبيلة سمه **Sammah** وقبيلة ســـودى الراجبواتية **Sadhi Raiputs**.

أما العلاقات التجارية بين بلاد الهند والسند وبين العرب فقد قويـــت بعد ظهور الإسلام وانتشاره فى هذه البلاد الشاسعة، حيث كان خليج العرب مركزا تجاريا هاما تتحرك منه السفن نحو بلاد السند والهند والصين حاملـــة البضائع، وراجت تجارة العرب المسلمين، وزادت العلاقات التجارية تحـــسنا وتقدما فى الأجزاء الشرقية وكان لذلك انعكاساته على العلاقـــات الـــسياسية الإسلامية حيث كان من أهداف الغارات البحرية التى شنها عـــرب عمـــان

والمناطق الساحلية هو توطيد دعائم الحكم العربى على المدن الواقعة علـى سواحل السند، وسواحل إقليم كجرات بالهند منذ سنة 15 هـ كما سيرد ذكر ذلك تفصيلا.

لم يأذن الخليفة عمر بن الخطاب للعرب الفاتحين وقادة جيوشهم من خوض البحار حرصا على سلامة المسلمين ومصالحهم، وإن كان قد سـمح للمتحمسين من قادة الجيوش الإسلامية بالمناورات والغـارات والغـزوات، وتكررت مثل هذه المحاولات فى عهد الخليفة عثمان ابن عفان، وفى عهـد الخليفة على بن أبى طالب حتى استولى العرب على أجـزاء مـن الـسند، وفى نهاية القرن الأول الهجرى ساءت العلاقات التجارية ونتج عـن ذلـك تدخل العرب عسكريا وسياسيا فى بلاد السند[17].

تقويـــم:

سبقت الإشارة إلى توسع رقعة الدولة الإسلامية وامتدادها من غربى آسيا إلى شرقها مارة بحدود بلاد السند موضوع هذه الدراسة . فقـد توجـه عثمان بن أبى العاص الثقفى بجيشة بحرا لتأديب قراصنة الهند والسند الذين كثيرا ما أغاروا على السفن التجارية العربية ونهبوها، فتوجه نحو مدينة تانة (تهانة) على ساحل الهند، وغزاها، وانتصر عليها، فى حين توجه الحكم بن أبى العاصى الثقفى إلى مدينة بروص (بهروج) على نفس الساحل الهنـدى وفتحها، أما الشقيق الأصغر المغيرة بن أبى العاص فقد قاد الفرقة البحريـة الثالثة سنة 15 هـ باتجاه مدينة الديبل وهى ميناء هام على سـاحل الـسند – كراتشى حاليا– فانتصر على أهلها وفتحها.

كانت الغارات الإسلامية البحرية السابقة هى أولى الغارات العربيـة والحملات الإسلامية إلى سواحل الهند والسند، وفضلا عـن أن هـدفها[18]. كأن تأديب قراصنة السند، فقد عملت – وهذا هو الأهم– على توسيع رقعـة الدولة الإسلامية ونشر الدعوة الإسلامية، وقد سبقت الإشارة إلى رد فعل أن هذه الحملات لدى الخليفة عمر بن الخطاب هى عدم تأييدها وذلك لأسـباب منها أن الذين قاموا بهذه الحملات بدون إذن الخليفة ليسوا فى موقع المسئولية مثله حيث مصالح المسلمين وأرواحهم أمانة فى عنقه، ومن هـذه الأسـباب أيضا أن العرب لم يكونا حتى سنة 15 هـ قد كونوا وحدات بحرية عسكرية منظمة، وأن القوات العربية كانت مشتتة فـى منـاطق كثيـرة ومـشغولة بالفتوحات، وانعكست حكمة الخليفة عمر بن الخطاب من قناعتـه أن بـلادا واسعة بعيدة كبلاد الهند والسند لابد وأن تتخذ حاليا استعدادات كاملة تضمن نجاحا مستمرا. وينقل البلاذرى[19] قول عمر بن الخطاب لعثمان بـن أبـى وقاص:" يا أخا ثقيف!! حملت دودا على عود، وأنى أحلف بالله لو أصـيبوا لأخذت من قومك مثلهم[20]".

غير أن الخليفة عمر بن الخطاب اقتنع بعد مضى عدة سنوات بقـوة العرب، ووافق على آراء القواد العرب بفتح بلاد السند والملتـان المجـاورة لبلاد فارس شريطة أن تكون الحملة برية، حتـى يـضمن سـلامة جـيش المسلمين، وفى سنة 17هـ أعطى لواء إقليم كرمان ببلاد فارس إلى سـهيل ابن عدى، ولواء إقليم مكران ببلاد السند إلى الحكم ابـن عمـرو التغلبـى، وشهاب بن المخارق المازنى وسهيل بن عدى وعبد الله بن عبد الله بن عنتان – ساروا بجيش المسلمين متوجهين إلى بلاد السند حتى اقتربوا من نهر السند ودارت معركة مع حكام ولايات السند حتى انتهت بانتصار المسلمين وتقهقر باقى جيش السند، وقد أصدر الخليفة عمر بن الخطاب أوامره ببقاء الجـيش الإسلامى فى مكران. ومن الأرجح أن الخليفة عمر لم يكن مقتنعا بأن الوقت مناسب للدخول فى عمق بلاد السند، وهو ما جعله يكتب للقـواد المـسلمين هناك:" لا يجوز مكران أحد من جنودكم، واقتصروا ما دون النهر[21].....", ومعنى ذلك الاكتفاء بما تم الاستيلاء عليه من مناطق الجزء الغربـى لنهـر السند وعدم عبوره إلى الجهة الشرقية[22].

مراجع الفصل الثالث

(1) دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق ص 111.

(2) نقلا عن الطبرى، الجزء الرابع ص 2151.

(3) قارن: دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق ص 114 نقلا عن الطبرى، الجزء الرابع، ص 59، البلاذرى، فتوح البلدان ص 135- 143، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ص 410- 434.

(4) ابن عساكر، (أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله عبد الله الشافعى المتوفى سنة 571هـ) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق شكرى فيصل وآخرون، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، الجزء الأول ص 145- 150.

(5) ونظرا لأهمية هذا الكتاب فى تاريخ العلاقات السياسية الإسلامية فقد أوردناه برمته نقلا عن : الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الرابع ص 151- 161.

(6) الدكتور إبراهيم بيضون، مرجع سابق ص 66- 67 حيث يصف الفتوحات الإسلامية فى هذه الفترة بالذات أن لها لون خاص يختلف عن الأعمال التالية فى العصر الأموى الذى فقدت فيه محتواها الجهادى وخضعت لقرارات سياسية تباينت دوافعها من خليفة لآخر- الذى فقدت فيه محتواها الجهادى وخضعت لقرارات سياسية تباينت دوافعها من خليفة لآخر- المرجع نفسه ص 43. وإن كنا لا نشاركه الرأى فى ما أسماه "الباحث" بالاتجاه "التوسعى" حيث طابع الفتوحات الإسلامية طابع مختلف. .

(7) لمزيد من التفصيل حول الفتح الإسلامى لمصر، راجع: شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت 1952- تبلر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، فتح العرب لمصر، القاهرة 1966..

(8) السواد جنوب الكوفة بين نهر الفرات والخليج العربى ومنها انطلق المسلمون إلى المدائن كما سبقت الإشارة فى المتن.

(9) Lambrick, H. T.: " Sind: A general introduction", Hyder abad, Sind, Sindhi Adabi Board, 1964, pp 1-5 .

(10) Abbott: J: "Sind: A Reinterpretation of the Unhappy Valley" Oxford University Press, 1924 p.p 21- 24.

(11) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية)، الجزء الأول، عالم المعرفة، جدة 1403 هـ/ 1983 م ص 45- 47 نقلا عن:
Raverty:" The Mahran of Sind ", in: Journal of the Royal Asiatic Society, Bengal, 1892, p. 156. Note 3 .

(12) دكتور عبد الله مبشر ا لطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى، ص 47 نقلا عن كتاب هيئت العالم الشيخ محمد أعظم تنوى، (بواسطة كتاب تحفة الطاهرين للشيخ محمد أعظم تنوى، حيدر آباد 1956.

(13) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسى البشارى (المتوفى سنة 388هـ) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، الجزء الثانى، طبعتى ليدن 1877، 1906 ص 481..

(14) بحر فارس هو بحر العرب وقد أطلق عليه بعض المؤرخين والجغرافين العرب اسم بحر المحيط، فى حين أطلق عليه البعض الآخر اسم بحر عمان، راجع شهاب الدين أو عبد الله ياقوت الحموى الرومى، معجم البلدان، القاهرة 1325 هـ/1908 م، الجزء الخامس ص 751

وراجع أيضا: إسماعيل بن على بن عماد الدين أبو الفداء (المتوفى سنة 732هـ) المختصر فى أخبار البشر القاهرة 1351 هـ / 1934م.

- أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى، كتاب الأقاليم، طبعة ألمانيا 1839 ص 275- 278.

(15) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول ص2567-2569، ص2705/2707.

- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (المتوفى سنة 808 هـ)، تاريخ ابن خلدون.
- ابن الثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الثالث ص 34- 35.

(16) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الأول، مرجع سابق ص 78 نقلا عن : البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 531.

(17) وكان ذلك بسبب إساءة ملك السند إلى العلاقات الطيبة مع العرب فى حادثة خطف السفن التجارية العربية المارة بميناء الديبل السندى قادمة من بلاد الهند وسيلان فى طريقها إلى البلاد العربية بالإضافة إلى حماية ملك بلاد السند لبعض العرب

المتمردين ضد الدولة الأموية، راجع دكتور عبد الله مبشر الطرازى، نفس المرجع السابق ص 111 نقلا عن البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث، ص 530.

18) يرى مؤرخو السند أن هذه الحملات كانت مؤقتة، والغرض منها معرفة أحوال السند، كما كانت ردا على القراصنة وتهديداتهم للعرب، فى حين يرى البلاذرى بأن المسلمين خلال هذه الحملات قد حققوا انتصارات وهو بذلك لا يتفق مع مؤرخى السند الذين يرون أن المسلمين لم ينتصروا ولم ينهزموا، ولا يوجد سرد أو تحليل لأحداث هذه الحملات لدى بقية مؤرخى المسلمين الذائعى الصيت أمثال: اليعقوبى والمسعودى والطبرى وابن خلدون راجع: البلاذرى- أحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى (المتوفى سنة 279هـ) فتوح البلدان، مصدر سابق، اليعقوبى- أحمد بن أبى يعقوب ابن جعفر الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى تاريخ اليعقوبى، جزآن، بيروت 1379هـ / 1960م، المسعودى، أبو الحسن على المسعودى (المتوفى سنة 346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة 1346هـ.

19) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 534- 536.

20) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثانى ص 112- 114.

21) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الأول ص 2706

22) وقد ظل جيش المسلمين باقيا فى بكران حتى استشهاد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ فى نهاية سنة 23هـ.

الفصل الرابع

عصر عثمان بن عفان

23- 35 هـ / 644- 656م

- توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك .
- أسماء لامعة فى الفتوحات الإسلامية .
- السند والبنجاب .

توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك :

تسلم عثمان بن عفان الخلافة وهو فى السبعين من عمره، وقد عكس عدم الاستقرار السياسى تأثيراته على البلاد التى كان قد تم فتحها فى عصر النبوة وأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ومن ناحية أخرى فإن عثمان كان يختلف فى شخصيته عن سلفيه أبى بكر وعمر، فقد اشتهر عثمان بسهولة تعامله مع الناس، فلم يمنع أحدا من الصحابة من الخروج والانتقال إلى بلد آخر. وجمع عثمان بين الصفة الإسلامية التى منحته مكانة ومنزلة عالية لمشاركته النبى ﷺ لنشر الدعوة الإسلامية فضلا عن انتمائه للبيت الأموى صاحب النفوذ التجارى الأقوى فى العصر القرشى، وكان لهذا تأثيره على نجاح العصبيات التى ضاقت فى عصر سلفه عمر بن الخطاب عن اختراق الجبهة الإسلامية وتماسكها.

ولأول مرة فى تاريخ الدولة الإسلامية، يسجل الصراع على[1] السلطة انتصارا لتيار وهزيمة لآخر مع أن التيارين كانا ينضويان تحت المظلة الإسلامية، وكان من الطبيعى أن يتقاسم النفوذ العديد من الشخصيات من الأقارب المقربين لعثمان بن عفان حيث أسند إليهم أهم الولايات فى الدولة الإسلامية، فأقر نافع بن الحارث الخزاعى على مكة، وسفيان بن عبد الله الثقفى على الطائف، ويعلى بن منبه على صنعاء، وأبا موسى الأشعرى على البصرة، وعمرو بن العاص على مصر، وعمر بن سعد على حمص، ومعاوية بن أبى سفيان على دمشق وعثمان ابن العاص على البحرين، وسعد بن أبى وقاص على الكوفة.

وترجع المصادر أن عثمان قد ولى سعدا على الكوفة عملا بوصية عمر ابن الخطاب، غير أن عثمان قد عزلة[2]. بعد عام خشية انقسام المسلمين، كما عزل عقبة بن فرقد عن أذربيجان التى كانت تابعة للكوفة، وفى عهد عثمان أيضا، ثار أهل أرمينية، وكانت تابعة للكوفة

هى الأخرى، فبعث إليهم سليمان بن ربيعة الباهلى فأخضعهم وكتب عثمان إلى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط- وأمه أم عثمان- أن يمد اهل الشام بجيش، فبعث الوليد ثمانية آلاف بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلى الذى حارب الروم مع جيش معاوية وأبلى الجيش بلاءا حسنا[3]. وبقى الوليد بن عقبة أميرا على الكوفة حتى عزلة عثمان بسبب شربه الخمر، وولى مكانه سعيد بن العاص الذى اهتم بأمور الكوفة وبعث جموعا من المسلمين فيهم الحسن والحسين أبناء على بن أبى طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحذيفة بن اليمان، ففتحوا طبرستان، وكان ذلك فى سنة ثلاثين للهجرة.

وفى عهد عثمان توغلت جيوش المسلمين فى بلاد الترك، والخزر، وجيلان، وجرجان، وتولى أبو موسى الأشعرى إمارة الكوفة خلفا لسعيد بن العاص، حيث عزف سكان الكوفة عن سعيد واختاروا أبا موسى الأشعرى، وكتب عثمان بن عفان إلى أهل الكوفة قائلا: "أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم، وأعفيتكم من سعيد، والله لأقرضنكم عرضى، ولأبذلن لكم صبرى..." ثم جاء أبو موسى الكوفة، وخطب أهلها، وأمرهم بلزوم الجماعة، واستمر أميرا عليها حتى مقتل عثمان.

أما البصرة، فقد تولى أمرها أبو موسى الأشعرى كون عمر بن الخطاب قد ولاه إياها، وظل فيها إلى السنة التاسعة والعشرين للهجرة، ثم عزله عثمان بعبد الله بن عامر، بعد أن ضم إليه عمان والبحرين، وحينما تمرد أهل فارس على أميرهم عبيد الله بن معمر، فقد سار عبد الله بن عامر إليهم ، وقاتلهم، وهزمهم، وفتح اصطخر، وتذكر المصادر[4] أن يزدجرد – آخر ملوك الفرس- قتل فى السنة الواحدة والثلاثين للهجرة حيث سار عبد الله بن عامر بجيش المسلمين لفتح خراسان التى تحرر أهلها حينما علموا بمقتل الخليفة عمر بن الخطاب، فلما فتحها، سار إلى قهستان ثم نيسابور ومن هناك وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان،

ومرو الروذ، والطالقان، وبلخ ففتحها جميعا،ولكنه لم يستمكن من فتح خوارزم ورجع إلى البصرة قائلا "لأجعلن شكرى لله على ذلك أن أخرج معتمراً من موقعى هذا".

وتجدر الإشارة أن عبد الله بن سبأ اليهودى ذى الأقوال الغريبة عن الإسلام، قد ظهر فى عهد بن عامر، ونزل فى بنى حكيم، وكانت آراؤه غير المقبولة سببا فى استدعائه من جانب ابن عامر الذى سأله قائلا:" من أنت؟" فقال: أنا رجل من أهل الكتاب، رغبت فى الإسلام، وفى جوارك، فقال ابن عامر: ما بلغنى عنك، أخرج عنى، فخرج عبد الله بن سبأ حتى أتى الكوفة، فأخرج منها، ثم أتى الشام، فأخرج منها، ثم أتى الحجاز، فأخرج منه(5).

أما الشام، فقد سبقت الإشارة أنه كان بيد معاوية فى عهد عمر، وأن عثمان بن عفان قد أقر معاوية في عمله، وفى السنة الثانية من ولاية عثمان، غزا معاوية الروم، وبلغ عمورية، وحصون أنطاكية، وطرسوس ثم رجع، فأمره الخليفة أن يغزى حبيب بن مسلمة القهرى أرمينية وما إليها فوجهه إليها، وفتح (قاليقلا)، وصالح أهلها، ثم كتب إلى عثمان ينبئه أنه بطريق أرمينية قد جمع جموعا كثيرة من المسلمين، وأن الله سبحانه وتعالى قد مكن المسلمين من الأرض، وفتح الله على أيديهم تلك البلاد حتى " تفليس" و" آران" و "برذعة".

أسماء لامعة فى الفتوحات الإسلامية :

الواقع أنه منذ السنوات الأولى من تاريخ الدولة الإسلامية الفتية وقضية الفتوحات الإسلامية التى هى فى حقيقتها كانت جهادا بدأه رسول الله ﷺ مع المسلمين الأوائل فوصلوا بالإسلام شرقا. وفى فترة الخلافة الراشدة بلغوا حدود الصين شرقا، وهؤلاء الرجال ضربوا أمثلة رائعة فى الجهاد الإسلامى قائلين لرسول الله ﷺ: والله لو استعرضت بنا البحر

لخضناه معك. وهم الذين ما تخلوا عن ذلك أبدا، فمع خلافة الصديق ﷺ - كما سبقت الإشارة- فقد قمعوا المرتدين محافظين على وحدة الإسلام فى الجزيرة العربية.

ولمع رجال أمثال سعد بن أبى وقاص، وخالد بن الوليد، والمثنى ابن حارثة الشيبانى وغيرهم، والأخير- كما ترى بعض [6] الدراسات- لم تحظ سيرته وأخبار جهاده ما تستحقه من التأمل، فالمثنى قاد جيوش المسلمين فى بداية عهدها بالفتوحات، وكان عليه أن يبدأ بالمواجهة العسكرية مع القوات الفارسية متحملا بذلك مسئولية ضخمة حيث الصمود أمام هذه الجيوش ذات التقاليد العسكرية القديمة، وقبل استشهاده فى العراق ترك وصايا عديدة كانت بمثابة دروس مستفادة من الفتوحات الإسلامية السابقة، وأمثال المثنى كثير ممن أعلوا النداء الخالد "الله أكبر" شرقا فى آسيا بصفة خاصة.

وعموما فقد تم فتح العراق ومصر والشام على فترات متتابعة فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان، غير أن تمرد بعض أهل البلاد المفتوحة قد جعل عثمان يركز فى قمع هذه التمردات وإعادتهم إلى مظلة الإسلام حيث أعاد عثمان فتح[7] خراسان وبلخ، وفتح بلاد طبرستان، وسرحسن، وبلاد الجزر، حتى وصلت جيوش المسلمين إلى (بلنجر)، وهى أكبر مدنهم- وتقع خلف درربند. وفى آسيا الصغرى تم فتح بلادها وجزائر بحر الروم.

وبالرغم من أن هذه الفتوحات تعتبر متواضعة إذا ما قيست بإنجازات سلفيه أبى بكر وُعمر، فقد شهدت الفتوحات الإسلامية، لأول مرة ، ظهور نواة البحرية الإسلامية فى عصر عثمان حين أدرك معاوية بن ابى سفيان خطورة هذا السلاح، فدأب على إنشاء دار لصناعة السفن وعمل على تثبيت أقدامه على أرض الشام، وقد وفرت قرابته

لعثمان بن عفان ما جعل من ولايته للشام داعيا لاتخاذ مبادرات جريئة، فإذا أضيف إلى ذلك أوضاعه القبلية القوية، فقد انعكس ذلك على إنشاء قوة إسلامية عسكرية ضاربة تولت حماية الدولة الإسلامية والدفاع عن شواطئ ولايته المهددة بالغارات البيزنطية من وقت لآخر.

وترتبط الفتوحات الإسلامية فى آسيا فى عصر عثمان بن عفان بالعديد من الأسماء اللامعة في تاريخ الدولة الإسلامية الفتية بدءا بالوليد ابن عقبة الذى غزا أذربيجان وأرمينيا حيث منع سكانها ما اتفقوا وصالحوا عليه حذيفة بن اليمان أيام عمر بن الخطاب، وهناك أيضا أمير خراسان عمير بن عثمان بن سعد الذى غزا "فرغانة" فى العام التاسع والعشرين للهجرة، كما سار فى العام نفسه أمير سجستان عبد الله بن عمير الليثى الذى وصل إلى كابل، كما انطلق عبد الله بن معمر التميمى فوصل إلى نهر السند، وقد سبقت الإشارة إلى أن أمير الكوفة سعيد بن العاص قد أراد الاستيلاء على خراسان، ومما تجدر الإشارة إليه أن الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب قد رافقا سعيد بن العاص ومعهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، غير أن أمير البصرة عبد الله بن عامر كان قد سبقهم نحو خراسان، ثم اتجه إلى بقية بلاد فارس بعد أن تمردت كما سبقت الإشارة، حيث انتصر جيش المسلمين، وكان الأحنف بن قيس – وهو من الأسماء اللامعة فى الفتوحات الإسلامية فى آسيا– على مقدمة جيش المسلمين إلى خراسان،؟ ففتح طوس، وأبيورد، ونسا، وبلغ سرخس وصالح أهل مرد، وأعاد بالتالى فتح خراسان.

أما سلمان بن ربيعة الباهلى فقد سار إلى منطقة الباب ليساعده أخاه عبد الرحمن الذى استشهد فى معركة ضد خصومه، وطلب الخليفة عثمان ابن عفان من أهل الشام بإمرة حبيب بن مسلمة أن ينجدوا سلمان ففعلوا.

وسار عبد الله بن عامر الأحنف بن قيس إلى مرد الروز فصالح أهلها، وتذكر المصادر أن سكان (الطالقان) و (فارياب) و (الجوزجان) و(طخارستان) قد اجتمعوا ضده، فانتصر عليهم، كما سار الأقرع بن حابس إلى (جوزجان) بعد ان تمرد أهلها، ففتحها، وعاد الأحنف إلى خراسان مرة ثالثة فى العام الثالث والثلاثين للهجرة: وهو ما يستدعى وقفة لتفسير إنجازات الفتوحات الإسلامية إلى بلاد السند والبنجاب فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ.

السند والبنجاب:

سبقت الإشارة أن الخليفة عثمان بن عفان ﷺ أمر واليه على العراق بأن يتوجه إلى ثغور الهند- حيث يذكر بعض المؤرخين المسلمين اسم الهند بدلا من السند مع أنهم يقصدون السند كما تدل على ذلك سياق الأحداث التاريخية- ووجه الوالى إلى بلاد السند حكيم بن جبلة العبدى، فلما جمع المعلومات عن تلك البلاد وعاد، أوفده الوالى إلى الخليفة عثمان الذى سأله عن أحوال البلاد، فقال العبدى:" يا أمير المؤمنين قد عرفتها وتحريتها، قال الخليفة: صفها لى، فقال:" ماؤها وشل، وثمرها دقل، ولصها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثر جاعوا، فقال الخليفة: "أخابر أنت أم ساجع!" قال : بل خابر. فلم يأمر الخليفة بغزو البلاد فى عمقها مع أن الجيش الإسلامى كان لا يزال فى إقليم مكران ببلاد السند منذ عهد الخليفة عمر.

اكتفى العرب بحكم إقليم مكران وهو ثغر السند (كراتشى حاليا)، والتى تم تعيين عبيد الله بن معمر التميمى حاكما عليها من قبل عبد الله ابن عامر بن كريز القشيرى الذى عين واليا على العراق بدلا من أبى موسى الأشعرى سنة 29 هـ وقد توسع عبد الله التميمى فى الفتوحات الإسلامية فى تلك المنطقة حتى بلغ نهر السند، وباستشهاد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ فى سنة 35 هـ طويت صفحة جديدة مشرقة فى الفتوحات الإسلامية التى وصلت إلى أعماق بلاد السند.

مراجع الفصل الرابع

(1) سوف نتعرض فى المتن لتأثير هذا الصراع على البلاد المفتوحة، وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة، راجع: دكتور محمد جمال الدين سرور، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة، دار الفكر العربى، القاهرة 1966 ص 43- 59..

(2) راجع أسباب عزل سعد بن أبى وقاص فى: الطبرى، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص 40- 45 .

(3) المصدر نفسه ص 46- 48.

(4) حول كيفية مقتل يزد جرد وظروف قتله، راجع: الطبرى، الجزء الخامس، مصدر سابق، ص 1- 40.

(5) ويذكر الطبرى أن عبد الله بن سبأ أتى إلى مصر" فعشش فيها، وباض، وفرخ، وكان من أقواله غير المقبولة: أن عليا وصى محمد وقد غصبه، من ولى قبله، والواجب على المسلمين أن يعيدوا الأمر لأصحابه" ويضيف الطبرى أنه قد تبعه جمع كثير من مصر وغيرها ولعب دورا كبيرا فى إثارة الفتن، راجع : المصدر السابق ص 5- 98، دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق، ص 185- 197.

(6) راجع: دكتورة فتحية عبد الفتاح النبراوى، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين الإدارة العامة لكليات البنات، الرياض، 1397هـ / 1977م ص 317- 330.

(7) بالإضافة إلى مصر وبلاد النوبة وشمالى أفريقيا كله، وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة.

الفصل الخامس

عصر على بن أبى طالب

35- 40 هـ / 656 - 661م

❁ خضوع الأقاليم المفتوحة فى آسيا .

خضوع الأقاليم المفتوحة فى آسيا:

ليس مجال هذه الدراسة استعراض لحياة وسيرة ومزايا على بن أبى طالب ﷺ ورغم أن الرسول ﷺ كان يعتبره بمثابة هارون من موسى، ولكن مجال هذه الدراسة هو ما يتعلق بحركة الفتح الإسلامى تجاه آسيا، خاصة وأن هيبة الدولة الإسلامية الفتية كادت تهتز إذا لم يستتب الأمن فيها، وكان لعلى ﷺ بعض الملاحظات على بعض الولاة، فقرر أن يستبدل هؤلاء الولاة، غير أن بعض الصحابة رأوا التريث حتى تستقر الأوضاع السياسية بعد قتل الخليفة الراشدى الثالث – عثمان بن عفان فى الثامن عشرة من ذى الحجة عام خمسة وثلاثين للهجرة– ورفض على بن أبى طالب آراء المنادين بالتريث، ووجد أن هيبة الدولة الإسلامية لا تتحقق إذا لم يتمكن الخليفة من عزل وال[1].

وتأسيسا على ذلك، صدرت أوامر الخليفة على بن أبى طالب بعزل الولاة وعمال الخراج، وبقية المسئولين فى العهد السابق، واستبدالهم بفئة جديدة غير متورطة فى السياسة، وليست لأسمائها شهرة كبيرة خارج "المدينة"، ولم تقم عقبات تذكر فى وجه الولاة الجدد باستثناء ما كان متوقعا فى الشام وهى المنطقة التى استشهد فيها ميلاد دولة إسلامية قوية المستقبل فى آسيا، هناك كان الخصم الأموى الذكى يعمل على توطيد اللامركزية فى الحكم والإدارة وفق مفهوم مفادة الاستمرارية فى البيت الأموى، وحين بعث الخليفة بسهل بن حنيف إلى الشام، رده معاوية من حدودها.

وبعث على بعثمان بن حنيف– وهو من أعلام الأنصار– فدخلها وارتحل عنها وإليها السابق عبد الله بن عامر متجها إلى مكة، وأبقى الخليفة على، أبا موسى الأشعرى على الكوفة، ومن هناك بعث أبو موسى الأشعرى ببيعته وبيعة أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين، وبعث إلى

اليمن ابن عمه عبيد الله بن عباس فلما وصل إليها رحل عنهـا عاملهـا السابق يعلى بن أمية.

وباستثناء الشام، فقد خضعت الأقاليم فى آسيا فى معظمها لأميـر المؤمنين على بن أبى طالب، ولم يرسل معاوية بن أبى سـفيان بالبيعـة إلى على.

لقد ظل الإسلام على إشراقه فى الأقاليم المفتوحة فى آسـيا فـى الفترة القصيرة التى تولى فيها على بن أبى طالب الخلافة، ففـى الكوفـة - كما سبقت الإشارة - جاء واليها الجديد أبو موسى الأشعرى غير راغب فى الفتنة والقتال بين المسلمين ضد بعضهم البعض، فضلا عن أن أهـل الكوفة - وهذا هو المهم- كانوا متعددى الآراء والاتجاهـات والميـول، فبعضهم يميل إلى الزبير، وبعضهم يرغب فى على، ولكـنهم لا يحبـون القتال، وبعضهم متشدد يرى أن القتال أمر لابد منه.

وعندما كتب أمير المؤمنين على بن أبى طالب يستحثه على قمـع بذور الفتنة حرصا على استقرار النظـام السـياسى للدولـة الإسـلامية، فإن أبا موسى ظل على إصراره، ولم يتوصل بالتالى إلى حل حاسم، فقام أمير المؤمنين على بن أبى طالب بإرسال العديد من الحلفاء لأبى موسى، فلما لم تجد المناقشات التى دارت بين الطرفين، أرسل ابنه الحسن الـذى دعا أهل الكوفة لنجدة خليفتهم، وأخرج الأشتر النخصى أبا موسـى مـن قصر الإمارة، فانطلق أبو موسى إلى مكة وأقام بها.

سبقت الإشارة أن الخليفة أرسل واليا جديدا إلى البصرة هو عثمان ابن حنيف، الذى سار إليها ودخلها، وأخرج منها عبد الله بن عامر وكانت بوادر الفتنة قد ظهرت فى البصرة حينما رجع إليها ابن عامر عائدا مـن مكة وتكلم طلحة والزبير ورد عليهم عثمان بن حنيف، وكاد الناس يقتتلون ثم تكلمت عائشة رضى الله عنها، فانقسم المجتمعون حيث أيدها الكثيرون

غير أن بعض الغوغائيين المثيرين للفتنة والتطرف بشأن التحقيق فى مقتل عثمان من ناحية،وبيعة على بن أبى طالب من ناحية أخرى، هؤلاء الغوغاء أثاروا العديد من المشكلات، ومع ذلك اتفق المجتمعون على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة لينظروا هل تمت مبايعة طلحة والزبير مكرهين أم بالرضاء؟ فإن كان ذلك، أخلى عثمان بن حنيف لهما البصرة، وأن كانا قد بايعا عن رضا خرجا من البصرة، وأن يبقى كل فريق على ما تحت يده حتى يعود الرسول، وينزل طلحة والزبير ومن معهما حيث شاءوا، وأن يصلى عثمان ابن حنيف بالناس، ويبقى بيت المال تحت يده، وله أمر البصرة، وذهب كعب بن ثور إلى المدينة، فسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير، فلم يجبه أحد، ثم أجابه أسامه بن زيد بأنهما بايعا مكرهين.

رجع كعب إلى البصرة بهذه الأخبار فاختلف الفرقاء، وعاتب على بن أبى طالب عامله فى البصرة، وقال: إنما طلحة والزبير لم يجبرا على البيعة إلا خوفا من الفرقة، وتضاءل أنصار عثمان بن حنيف وانقض عليه الغوغاء فسجنوه، ثم بعثوا به إلى على بن أبى طالب، ولم يكن ابن حنيف عدوا، فلم يتعرض لأى عتاب من أمير المؤمنين،وبخروجه من البصرة فقد أصبحت تحت إمرة الفريق المكى (طلحة والزبير وعائشة رضى الله عنها) وهو ما يستدعى وقفة للتفسير.

فقد كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى طريقها من مكة إلى المدينة، عندما علمت بمقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه، ومبايعة على ابن أبى طالب بالخلافة، فأعلنت سخطها وغضبها، وعادت إلى مكة وهى تردد:" قتل والله عثمان مظلوما، والله لأطلبن بدمه[(2)].", واستأذن طلحة والزبير من الخليفة على فى الخروج إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما، ولما وصلاها انضما إلى أم المؤمنين عائشة وأعلنا أنهما بايعا على بن أبى طالب مكرهين، وانضم إليهم مروان بن عبد الحكم، فتزعم هؤلاء

الأربعة المطالبة بدم عثمان بن عفان وكانت أم المؤمنين عائشة قد اقترحت أن يخرجوا إلى المدينة حيث كان من فيها أنصار الخليفة على[3].
خرج الفريق المكي إلى البقيع واتفقوا على اسم الخليفة المقبل إذا نجحوا في خطتهم،و كانت أنباء خروجهم قد وصلت إلى أمير المؤمنين على، فرأى أن يسارع بوقف زحفهم حتى يتفرغ لمعاوية بن أبى سفيان الذى أحجم عن مبايعته- كما سبقت الإشارة- ولم يتمكن أمير المؤمنين من اللحاق بهم قبل وصولهم البصرة فتمكنوا من السيطرة عليها وطردوا واليها عثمان بن حنيف – كما سبقت الإشارة- وانضم إليهم كثير من أهل البصرة فى المطالبة بدم عثمان بن عفان- وازداد الأمر خطورة حيث استطاع طلحة والزبير إقناع جموع المسلمين المؤيدة لهم بأن الخليفة ضم إليه "المحرضين" على قتل عثمان وأدى هذا الاضطراب إلى حدوث مواجهة عرفت بيوم أو حرب الجمل.

خرج الزبير على فرسه، وخرج طلحة، وخرج إليهما أمير المؤمنين ودنا منهما، وذكرهما بالله وبرسوله وبالبيعة، وتبرأ أمامهما من دم عثمان ولعن قاتليه، فرضى الزبير، وأقسم أن لا يقاتله أبدا،؟ وسكت طلحة واستبشرت الجموع الغفيرة، وبدأ المفاوضة بين رؤساء الفريقين لإتمام الصلح، غير أن قتلة عثمان رأوا أن هذا الصلح ليس من صالحهم، فهاجموا فى الظلام جنود البصرة. وأشتد وطيس القتال بين الجانبين فنزل أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى الساحة وهو يتلو قوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم الباساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب". اللهم أفرغ علينا الصبر. ثم رفع مصحفا بيده وقال ﷺ:" من يأخذ هذا المصحف، فيدعوهم إلى ما فيه، ولهم الجنة؟ فقال غلام اسمه مسلم بن عبد الله: "أنا يا خليفة رسول الله"، ثم تناول المصحف، وزحف على القوم فقتلوه، فقال على:الآن حل قتالهم، واقتتل الناس.

وأسفرت هذه الموقعة عن مصرع طلحة والزبير، وأسر عائشة رضى الله عنها والتى اعتزلت الحياة السياسية فور عودتها إلى المدينة، وتكمن أهمية هذه المعركة فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة أنها أول حرب تدور بين طرفين كلاهما يدين بالإسلام فى آسيا، وهو ما دفع على- كما تذكر المصادر[4]. إلى خوضها بروح عالية دون أن تتحكم فيه أية خلفية أخرى شخصية أم سياسية، ومن ناحية أخرى، فإن هذه الموقعة كانت مقدمة للصراع الحتمى بين على ومعاوية، وفى الوقت نفسه، بداية المواجهة السافرة بين المد الإسلامى المتصاعد فى آسيا وحلفائه وبين الاتجاه القرشى من أصحاب النفوذ فضلا عن قبائل الشام الأكثر بداوة، وأسفرت موقعة الجمل – كما يضيف بيضون- عن تحجيم " المدينة" وإنهاء الدور السياسى للحجاز، بعد انتقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى أعقاب انتصاره إلى الكوفة فى العراق، واتخاذها مقرا لخلافته القصيرة، مؤثرا الابتعاد عن تطاحن الاتجاهات السياسية فى الحجاز الذى أفرغته الفتوحات الإسلامية- على حد وصف بيضون- من طاقاته، "ولم يعد صالحا لاتخاذه مقرا للخلافة" وترتيبا على هذه الاعتبارات فإن السؤال الذى يفرض نفسه: هل أدت الأحداث فى تصاعدها إلى انقسام الدولة الإسلامية فى آسيا أم أن العكس هو الصحيح حيث امتدت فتوح هذه الدولة المستقبلية- الأموية فيما بعد- إلى الصين فى شرق آسيا؟

الواقع أن تطورات الأحداث التالية الخاصة بالتحكم ومعركة صفين[5]. لا تتعلق بمجال هذه الدراسة. رغم ما انتهت إليه أحداث هذه الفتنة من الخسارة التى لحقت بعلى حيث أصبح معاوية مساويا له ومطالبا بالخلافة ، فضلا عن خروج بعض جنوده- وهم ما عرفوا فيما بعد بالخوارج- بالإضافة إلى بدء ظهور الفرق الإسلامية مثل المعتزلة، والمرجئة، والشيعة- كما سيأتى تفصيل ذلك- فإن العالم الإسلامى- وهذا

هو الأهم- قد انقسم بين مؤيد لمعاوية ومؤيد لعلى وهو ما أفقد الدولة العربية الإسلامية وحدتها المنشودة حيث استشهد على بن أبى طالب فى فجر السابع عشر من رمضان فى السنة الأربعين للهجرة، واتجه الناس إلى ولده الحسن فبايعوه، وبقى الحسن فى الخلافة ستة أشهر تبادل خلالها الرسل مع معاوية بشأن تنازله عن الخلافة لمعاوية، ودخل معاوية الكوفة، فبايعة الناس، وغادر الحسنان الكوفة إلى المدينة، وأخذ معاوية يرتب أمور العراق، فولى البصرة عبد الله بن عامر، وطلب إليه أن يستمر فى حرب ساجستان، وخراسان. وقفل هو إلى الشام فغزا بلاد الروم، وهزمهم[6] واستقرت له الأمور.

وفيما يتعلق ببلاد السند، فقد كان تاغرين دعر قد عين قائدا على الجيش العربى الذى تقرر إرساله لغزو بلاد السند من قبل الخليفة على بن أبى طالب ﷺ، غير أن تاغرين عين الحارث بن مرة العبدى نيابة عنه وكان قائدا شجاعا، وبعد أن وصل الجيش إلى مكران، سار إلى القيقان واشتبك جيش المسلمين مع جيش أهلها الذى كان عدده عشرون ألف جندى فى حين كان جيش المسلمين لا يتعدى الآلف، غير أن المسلمين قد انتصروا بفضل عقيدتهم الإسلامية وشجاعتهم الفائقة وأسروا آلافا من أهل القيقان.

ولما وصلت أخبار استشهاد[7] ﷺ، وأن معاوية صار خليفة للمسلمين سنة 41 هـ، عاد الجيش العربى إلى مكران، وتبع ذلك اشتباك الحارث بن مرة العبدى سنة 42 هـ فى حرب دامية مع أهل القيقان، غير أنه استشهد ومعه معظم قواده وجنوده لقلة عددهم- كما سبقت الإشارة- حيث تعيش مكران (ثغر السند) تحت حكم العرب حتى تم فتح بلاد السند كلها على يد محمد بن القاسم الثقفى فى سنة 92هـ.

مراجع الفصل الخامس

(1) تذكر المصادر أن رؤية على بن أبى طالب هذه نابعة من أن الوالى بمثابة الخليفة وأنه يرفض الأوامر ويرفض البيعة أو يأخذها لنفسه، ويتعدد هنا الخلفاء وهذا أمر غير جائز فى الإسلام، كما رأى على بن أبى طالب أن العصاة يتسببون فى عدم الاستقرار السياسى فى المدينة، وبالتالى لن يتمكن كخليفة للمسلمين أن يقيم حدود الله،/ راجع : محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، الجزء الثالث (الخلفاء الراشدون) المكتب الإسلامى، بيروت 1985 ص 260- 261.

(2) الطبرى، تاريخ الرسل والأنبياء، الجزء الرابع، ص 384.

(3) الدكتور أحمد قاعود، الدكتور شحادة الناطور، مرجع سابق ص 89 نقلا عن كارل بروكلمان، ترجمة نبية فارس، ومنير التعلبكى، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت 1965ص 138.

(4) الدكتور إبراهيم بيضون، مرجع سابق ص 123، وراجع: اليعقوبى، أحمد ابن أبى يعقوب بن واضح (المتوفى سنة 192هـ)، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى، مطبوعات المكتبة الحيدرية، النجف 1394هـ / 1974م ص 182- 184.

(5) راجع تفصيلا: المسعودى، أبو الحسين على بن الحسين بن على (المتوفى سنة 346هـ) مروج الذهبى ومعادن الجوهر، الجزء الأول، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد بدون مكان نشر، 1387هـ/ 1967م ص 149.

(6) الطبرى، الجزء السادس ص 92- 98.

(7) والواقع أن عليا ﷺ كان حريصا قبل استشهاده على عدم سفك الدماء، وعلى عدم مواجهة أكثر من عدد فى وقت واحد، ويورد الطبرى أحدى الوثائق الهامة المتمثلة فى كتاب على ﷺ، إلى الخوارج قائلا:" بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن هذين الرجلين- يقصد عبد الله بن وهب وزيد بن حصين- اللذين أرتضيا حكمهما قد خالفا كتاب الله،و اتبعا أهواءهما بغير هدى من الله، فلم يعملا بالسنة، ولم ينفذا القرآن. فإذا بلغكم كتابى هذا فاقبلوا فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه السلام (الطبرى، تاريخ الرسل والمولك جـ5 ص77). أما رد الخوارج على أمير المؤمنين فنترك الطبرى يسرده قائلا:(أما بعد فانك لم

تغضب لربك، أنما غضبت لنفسك، فإن شهدت ، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك، وإلا نابذناك على سواء، إن الله لا يحب الخائنين).

فلما تسلم على ﷺ كتابهم رأى أن يتركهم ويمضى إلى الشام، ونزل بالنخيلة، وأتت عليه جيوش الكوفة والبصرة واجتمع عليه رجال بلغوا ثمانية وستين ألفا ومائتى رجل، وانقسم الناس، فريق رأى أن يسير على بهم لقتال الحرورية،وفريق رأى أن يقاتلوا بقوة أهل الشام أولا، وفريق ثالث رد قائلا: "سر بنا يا أمير المؤمنين حيث شئت" (الطبرى جـ5 ص 77- 78).

ولم يلبث على ﷺ أن رأى الخروج إليهم، واستعد لحربهم واستعدت الخوارج فبأت قواتها، إلا أن عليا حاول أن يستميل بعضهم عله يؤجل القتال، أو ينهى الخلاف فدعا إلى الأمان، فأجاب البعض، وأصر البعض على القتال، وقاتلهم على بن أبى طالب، فأتى رجاله عليهم وقتلوهم شر قتله بالنهروان، واستولوا على سلاحهم ودوابهم ومتاعهم وعبيدهم وإمائهم، فأما السلاح والدواب مقسمة على فيمن شهد الحرب، وأما المتاع والعبيد والإماء فرده إلى أهله (الطبرى جـ 5 ص 88).

وليس مجال هذه الدراسة استعراض تفصيل نتائج التحكيم وقد توسع الطبرى فى ذكر ذلك (الطبرى جـ 5 ص 137- 140)، وإنما ما يعنينا هو إلى أى مدى تأثرت أوضاع المسلمين في آسيا باستشهاد على ﷺ، و يروى الطبرى أن أهل العراق قد استخلفوا نجله الحسن وكان لا يرى القتال- على نحو ما ورد فى المتن- وقال موجها حديثه لأهل العراق: "أنه سخى بنفسى عنكم ثلاث. قتلكم أبى ، وطنكم أياى، وانتهابكم متاعى، وقيل أنه خرج إلى مسجد الكوفة فخطب أهلها قائلا:" يا أهل الكوفة. اتقوا الله فى جيرانكم وضيفانكم، وفى أهل بيت نبيكم ﷺ الذى أذهب عنكم الرجس وطهركم تطهيرا". (الطبرى، جـ 5 ص 159- 165) ثم توجه الحسن إلى المدينة المنورة ومعه أخوه الحسين حيث بدأت مرحلة جديدة فى الفتوحات الإسلامية بآسيا فى عهد المغاربة.

الباب الثانى

الفتوحات الإسلامية

فى عصر الدولة الأموية

الفصل الأول: من عهد معاوية بن أبى سفيان 40-60 هـ إلى يزيد بن معاوية 60-64هـ

الفصل الثانى: من عبد الملك بن مروان 65- 66 هـ إلى الوليد 86- 96 هـ وسليمان بن عبد الملك 96- 99 هـ

الفصل الثالث: من عمر بن عبد العزيز 99- 101 هـ إلى سقوط الدولة الأموية سنة 132 هـ

الفصل الرابع: محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند.

الفصل الخامس: بلاد السند بعد محمد بن القاسم الثقفى.

الفصل الأول

من معاوية بن أبى سفيان

(40- 60 هـ / 660 – 680م)

إلى يزيد بن معاوية

(من 60- 64 هـ / 680- 684م)

- توطيد أركان الدولة الإسلامية .
- السند والبنجاب .
- عهد يزيد والفترة اللاحقة .
- حركة انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية فى آسيا .

عصر معاوية بن أبى سفيان (40- 60 هـ/ 660- 680م)

توطيد أركان الدولة الإسلامية:

يحفل التاريخ الإسلامى فى العصر الأموى بالفتوحات التى أعلت شأن الإسلام. وبالرغم من بروز الأحزاب والفرق الإسلامية منذ ولادة الدولة الأموية- كما سيأتى تفصيل ذلك- مما استنفذ جهودا كبيرة من جانب الدولة الأموية- وخاصة تجاه معارضيها- الا أنها رغم ذلك استطاعت أن تمد نفوذها إلى بلاد الصين وسهول آسيا وكذا إلى المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والصحراء الأفريقية.

واجهت الدولة الأموية كثيرا من الصعوبات والعقبات الداخلية من الأحزاب الإسلامية المعارضة، ويتساءل أحد[1] من المؤرخين المسلمين المعاصرين عما يكون عليه الحال لو أن الجو كان مهيئا لبنى أمية ونعمت بالهدوء والسلام فى الداخل.. ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات؟ ويجيب قائلا:" إن أغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض، وأن موجة الفتح الإسلامى كانت ستكتسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الإسلام خفاقا فى أغلب الأنحاء من أرض الله الواسعة".

إن انجازات الفتوحات الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين قد استلزمت بذل مزيد من الجهود المضنية من جانب معاوية بن أبى سفيان لتوطيد أركان الدولة الإسلامية وتوفير الأمن والسلام فى ربوعها، ومع ذلك فقد تطلع معاوية إلى المزيد من الفتوحات الإسلامية فتابع الجهاد والغزو، وإذا كان عصر الخلفاء الراشدين قد شهد فتوحات فى بلاد الفرس وصولا إلى السند والشام ومصر وجزءا من بلاد المغرب، فإن معاوية قد وصلت جيوشة الإسلامية لفتح القسطنطينية سنة 48 هـ، وأعاد فتح أفريقيا ونشر الإسلام فى ربوعها- وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة- وتضاعف نفوذ المسلمين فى دولة الروم.

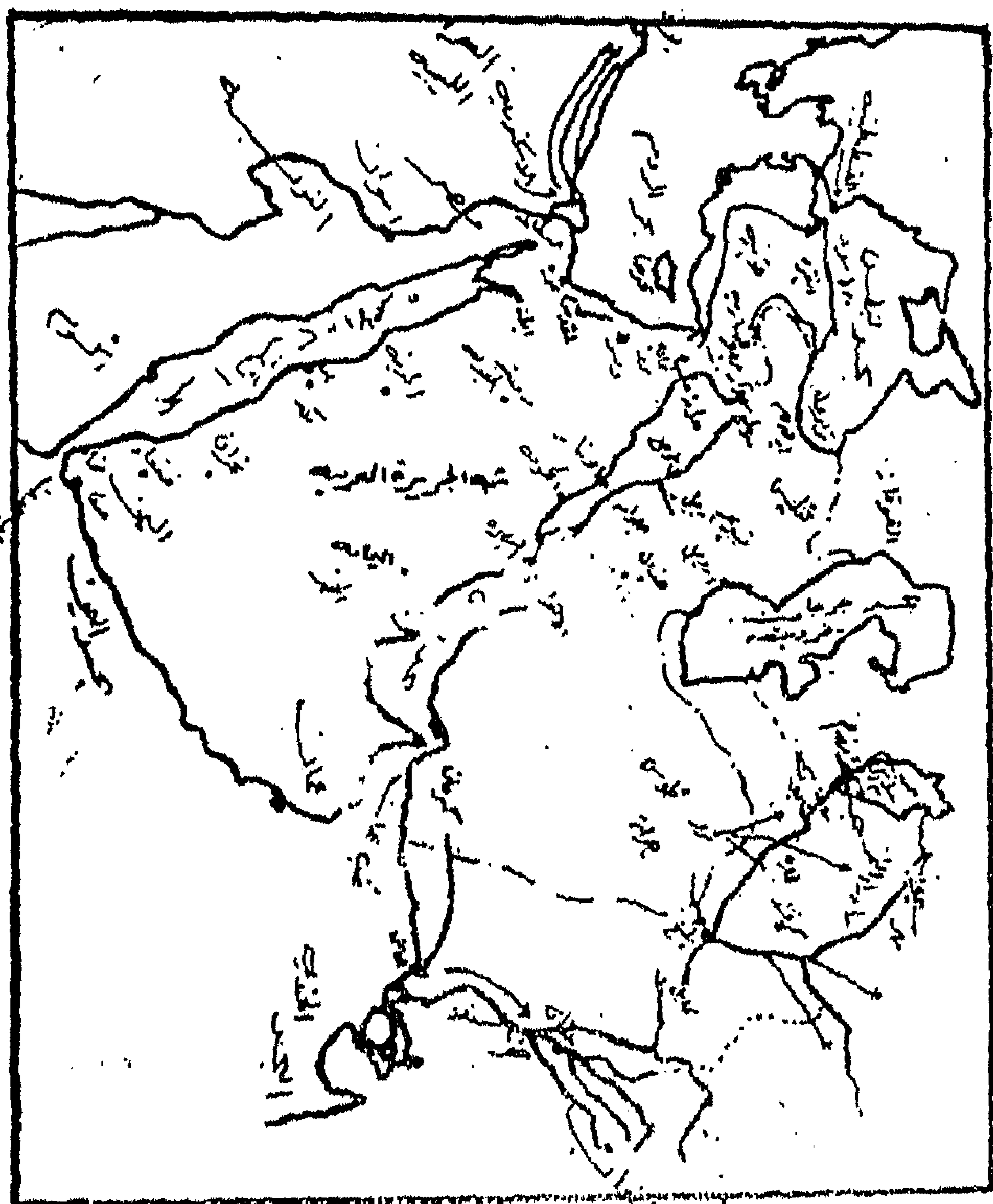
ولعل من أفضل إنجازات الدولة الأموية على صعيد الفتوحات الإسلامية فى آسيا هو سد ثغرات السواحل الشامية الآسيوية التى لم تسلم من الهجمات المفاجئة للبيزنطين فى عصر الخلافة الراشدة، ويذكر البلاذرى[2]. أنه قد أقيمت فى الفترة الأولى فى حكم معاوية بن أبى سفيان أول نظام دفاعى، بالإضافة إلى نظام "الشواتى والصوائف"[3] المتمثل فى دوريات منتظمة تتوجه إلى الأراضى البيزنطية، وقد تفوق جيش المسلمين فى وضع أسس هذا النظام خاصة بعد استقرار الأوضاع السياسية للدولة الإسلامية على الصعيد الداخلى، وانتقال " الخلافة" رسميا إلى البيت الأموى، ويعتبر قادة الجيوش الإسلامية هم الذين تفوقوا فى هذا الحقل حيث تمرسوا فى فنون القتال، وطبيعة الأرض الجبلية، وكان فى طليعتهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، ومالك بن عبد الله الخثمى المعروف بـ"مالك الصوائف[4]"، فضلا عن مالك بن هديرة السكونى وحبيب بن مسلمة الفهرى ويسر بن أرطاة القرشى وآخرين من قادة الشام المسلمين الذين كانت لمهارتهم القتالية الفائقة سقوط بعض المواقع البيزنطية الهامة فى أيدى المسلمين، ومنها "ملطية" أحد أشهر الثغور فى آسيا الصغرى.

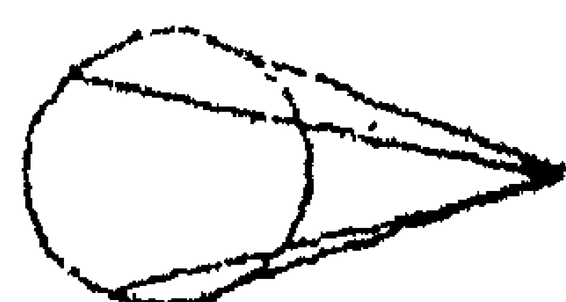
ويذكر بيضون[5] أن نظام "الصوائف" قد عمل بجناحين متوازيين أحدهما استهدف السيطرى على الحصون والمعاقل الجبلية، أما الثانى فهو بحرى استهدف الجزر الواقعة فى فلك السيادة البيزنطية فضلا عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى، وقد برز فى هذا المجال عدد آخر من القادة الشاميين من أمثال: معاوية بن خريج الكندى[6]، وعقبة بن عامر الهجنى[7]. ويزيد بن شجرة الرهاوى، وعقبة بن نافع الفهرى وغيرهم[8]. أما أشهر القادة على الإطلاق فهو عبد الرحمن بن خالد الذى كانت انتصاراته الباهرة- وباعتباره قائد النظام الحربى الجديد- سببا فى صعود نجمه بالشام.

لقد عنى معاوية عناية شديدة بحرب الروم فقام بتجهيز أسطول بحرى ضخم بلغت عدد سفنه- فيما يقال- 1700 سفينة، كذلك فقد اهتم بالغزو البرى لبلاد الروم حيث كانت أطماع الامبرطور كونستانس الثانى الذى استمر حكمه ستة وعشرين عاما (642- 668م) مستهدفا الشام، وبالفعل زحفت جيوشة على الشام، غير أن معاوية كما أشار البلاذرى[9] قد صالح الروم على مال[10]، فلما استقام له الأمر واستقرت الأوضاع السياسية الداخلية فقد وجه اهتمامه إلى غزوهم، وطلب صاحب الروم الصلح، فلم يجبه معاوية وكانت أعظم غزواته[11]. ما قام به سنة 47 هـ حيث سير الجيش الإسلامى بهدف ضرب الإمبراطورية البيزنطية ضربة قوية، وقاد ابنه يزيد ومعه الصحابى أبو أيوب الأنصارى، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن عمر، وابن العباس.

وصل الجيش إلى حدود القسطنطينية سنة 48 هـ، وحاصر المدينة بمساعدة الأسطول الإسلامى من البحر حيث قامت معارك عنيفة، غير أن أسوار المدينة كانت أقوى من المهاجمين، وامتد حصار المسلمين عليها سبع سنوات مات خلالها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى ودفن تحت أسوار القسطنطينية، وبالرغم من أن الأمويين بذلوا طاقات جبارة لإنجاح الحصار وإسقاط المدينة، إلا أنهم لم يتمكنوا من فتحها، مما دفع معاوية إلى الاعتراف بالفشل، وإصدار أوامره بانسحاب الحملة بعد تيقنه من صعوبة الوضع الحربى والمعنوى لجنوده، الذين أنهكهم البرد فضلا عن الطبيعة الجيوبوليتيكية للمدينة المتمثلة فى استقرارها الأوروبى والذى يلاقى موقعها فى ذات الوقت الشاطئ الآسيوى، ويحميها بحر مرمرة من الهجمات البحرية، فضلا عن تزويد أسوارها الداخلية والخارجية بعدد كبير من أبراج المراقبة التى تكشف أية تحركات معادية، كما كان يتم إقفال السلسلة الحديدية الضخمة الحاجزة ما بين القرن الذهبى (الميناء) وبين الشاطئ الآسيوى وذلك فى حالة الحصار أو الحرب الفعلية مما تطلب أسلحة متطورة وأساليب مبتكرة من القتال لم يكن فى متناول الأمويين

رغم ما بذلوه من جهود،ووجد معاوية نفسه بحاجة إلى هدنة طويلة مع البيزنطيين فعقد معاهدة مع الإمبراطور قسطنطين الرابع الذى كان مسرفا فى معاداته للمسلمين(12).





المصدر : الدكتور أحمد قاعود ، الدكتور شحادة الناطور . تاريخ الدولة العربية حتى نهاية القرن الأول ، مطبعة الخالدى ، عمان ١٩٨٢ .

من السند والبنجاب إلى قمم لبنان:

وفى آسيا امتدت الفتوحات الإسلامية فى عهد معاوية إلى السند والبنجاب، فقد طلب معاوية إلى أميره على بلاد السند أن يتوسع فى الفتوحات لهذه الديار لتدخل الإسلام فسار حتى بلغ بلاد القيقان غير أنه قتل، فطلب معاوية من المهلب بن أبى صفرة أن يتم فتح هذه البلاد فسار حتى وصل لاهور، وولى سعد بن عثمان بن عفان خراسان سيده للفتح بسمر قند، ففتح وغزا، وأصيبت عينه، وملك كثيرا من هذه الديار[13] التى اصطلح على تسميتها مستقبلا بشبه القارة الهندية.

وفى عهد معاوية ظهر الجراجمة (أو المردة) كما يسميهم المؤرخون المسلون، وهم سكان جبال لبنان الذين تحصنوا فى أماكنهم، وحينما فتح المسلمون ديار الشام، وتغلبوا عليها، لم يتكمونا من الوصول إلى الجراجمة لقلة أهميتها، وعدم المنفعة منها فضلا عن تعسر مسالكها، غير أن هؤلاء الجراجمة حينما شكلوا خطورة بسيطرتهم على قمم لبنان وإثارتهم الفتنة بين العبيد والأسرى والوطنيين، ثم استقطبوهم ضد الدولة الإسلامية، مما جعلهم يستأثرون باهتمام معاوية. وقد أرسلوا وفدا إلى قسطنطين يطلبون الصلح ويدفعون جزية سنوية، ثم أوفد قسطنطين معهم البطريق يوحنا إلى الشام، وقابلة معاوية بالترحاب، وبعد مشاورات بين الفريقين بشأن شروط الصلح، استقر رأيهم على صياغة معاهدة موثقة باليمن، يدفع المسلمون بمقتضاها إلى الرومانيين كل سنة مالا وجيادا[14] لفترة ثلاثين سنة.

ومن تقويم الفتوحات الإسلامية فى عهد معاوية، نلاحظ أنه أسس إسلاميا، منظما، قويا، استعان على تأسيسة بالشاميين من عرب وروم وغيرهم، فأحبوه، وأطاعوه، وقد زخرت المصادر العربية بأخبار طاعة الشاميين وتأييدهم لمعاوية الذى اعتمد فى فتوحاته الإسلامية على الكثير

من سكان الأقاليم التى فتحها رغم اختلاف أجناسهم، ومن الثابت أن لينه وشدته قد مكناه من إشادة هذا الصرح الإسلامى الشامخ. وروى عنه قوله:" لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما قطعتها، إذا مدوها خليتها وإذا خلوها مددتها[15].

عصر يزيد 60- 64هـ (680 – 684م) والفترة اللاحقة:

أحدث غياب معاوية الكثير من الفتن الداخلية فى أنحاء الدولة الإسلامية وهو ما عكس تأثيراته على الفتوحات الإسلامية فى عهد خلفه يزيد، وتفسير ذلك يكمن فى اشتعال نار الفتنة بعد وفاة معاوية، وكان أول عمل أنجزه يزيد هو إقراره عمال أبيه على الولايات الإسلامية، فأقر عبيد الله بن زياد على البصرة، والنعمان بن بشير على الكوفة، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان على المدينة،وعمرو بن سعيد بن العاص على مكة، وجاءت بوادر هذه الفتنة مؤشرا للانفجار المرتقب من جانب المعارضيين له، فلم يكن يزيد فى حنكة والده حيث كاد أسلوبه العقيم وقراراته الارتجالية أمام الأزمات أن تعصف بعهده فى أيامه الأولى، فضلا عن أن مشكلة الحكم نفسه لم تكن قد حسمت بشكل نهائى أو حاز الشرعية والرضاء المطلوبين، مثال ذلك ما كتبه إلى الوليد بن عقبة قائلا:" أما بعد فخذ حسنا وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا[16].

وتذكر المصادر أن الحسين قال لابن الزبير: يا ابن الزبير قد ظننت أن طاغيتهم قد هلك، فبعث إلينا ليأخذنا بالبيعة قبل أن يفشو فى الناس الخبير، فقال ابن الزبير: وأنا ما أظن غيره، فماذا تريد أن تصنع؟ قال الحسين: اجمع فيانى الساعة ثم أمشى إليه، فإذا بلغت الباب احتبستهم عليه ثم دخلت: قال ابن الزبير: فإنى أخافه عليك. فقال الحسين: لا آتيه

أولا، وأنا على الامتناع قادر، ثم قام فجمع إليه مواليه وأهل بيته، ثم أتاه، فسلم عليه بالامرة، ومروان جالس عنده، فقال الحسين: الصلة خير من القطيعة، أصلح الله ذات بينكما، فلم يجيباه فى هذا بشىء، ثم أقرأه كتاب يزيد ودعياه إلى البيعة. فقال الحسين: إنا لله وأنا إليه راجعون، ورحم الله معاوية،و عظم لك الأجر يا وليد، أما ما سألتنى من البيعة؟ وقال مروان: والله لئن فارقك الساعة ولم يبايع، لا قدرت عليه أو تضرب عنقه، فوثب الحسين قائلا: يا ابن الزرقاء أنت تقتلنى أم هو؟ كذبت والله وأثمت، ثم خرج، فقال مروان للوليد: عصيتنى:" والله لا يمكنك من نفسه أبدا" ودخل الحسين بيته ثم خرج ليلا إلى مكة هاربا.

وعندما سمع أهل الكوفة بعدم مبايعة الحسين أخذوا يراسلونه ويحثونه للقدوم إليهم ليبايعوه ويكونوا إلى جانبة، فضلا عن أن الزبير والحسين حين اجتمعا فى مكة أخذا يشجعان الناس على يزيد، ومن الأرجح أن الزبير رأى فى الحسين منافسا قويا فآثر العمل على إخراجه من مكة حتى يصفو له الأمر سار الحسين من مكة متجها إلى الكوفة، فاعترضة خيل عبد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص مما اضطر الحسين إلى النزول فى سهل لا ماء فيه بالقرب من الفرات سماه كربلاء، وبدأت المفاوضات بين الحسين وعمر بن سعد بن أبى وقاص غير أنها باءت بالفشل، وطلب الحسين من قائد يزيد أن يسمح له بالعودة من حيث أتى، أو يسير إلى دمشق، أو إلى الثغور، إلا أن عمر بن سعد ابن أبى وقاص رفض جميع مطالب الحسين الذى اضطر للقتال فى معركة غير متكافئة(17). بين نفر قليل هم آل بيت الحسين ومرافقوهم وجيش كبير يقوده عمر بن سعد بن أبى وقاص، وكان القتال الذى قتل فيه الحسين ومعظم أهل بيته فى 10 من المحرم سنة 61 هـ- 681م.

وسواء تعلق الأمر بأهل المدينة الذين تـأثروا بمقتـل الحـسين، وثاروا وطردوا عامل يزيد من المدينة أو تعلق الأمـر بـسكان الكوفـة ذاتها- فقد تحول مقتل أبرز شخصيات البيت الهاشمى إلى مأساة دمويـة اضطربت لها ضمائر المسلمين وأركان النظام الأموى والخليفـة ذاتـه، الأمر الذى كان حدثا غير عادى فى تاريخ العلاقات السياسية الإسـلامية، ففى الحجاز حدث عصيان مدنى، وفى مكة أعلن ابـن الزبيـر دولتـه، وتطورت الأمور على نحو غير متوقع فى العراق حيث شعرت الحركـة الشيعية بتقصير وشعور بالإثم بعد إجهاض ثورتها وقتـل الحـسين فـى مجزرة دموية، وكانت الحملة القمعية العنيفة التى قادها عبد الله بن زيـادة مستهدفة زعماء الشيعة مما أفرز حركة التـوابين الانتحاريـة، وحركـة المختار الثقفى ومعها أول سلطة شيعية بعد تنازل الحسين، وفـى الـشام تراكمت عوامل الانهيار السياسى بعد وفاة يزيد الفجائية فى شـهر ربيـع الأول سنة أربع[18] وستين للهجرة، ومع ذلك شهدت الفترة السابقة علـى وفاته مزيدا من الفتوح الإسلامية فى آسيا.

ففى سنة 61 هـ كان يزيد قد استعمل سـلم بـن زيـاد لغـزو خراسان، وكان فى جيشه نفر من وجوه الناس وأبطال المـسلمين مثـل عمران بن الفضيل البرجمى، والمهلب بن أبى صفرة، وعبد الله بن حـاز السلمى، وطلحة بن عبيد الله الخزاعى وغيرهم، وغزا جيش المسلمين بقاع خراسان حيث طلب ملوكها الصلح.

وفى السنة ذاتها ولى يزيد أخا سلم على سجستان.

وفى الفترة اللاحقة على موت يزيد بن معاوية تعاقب على حكـم الدولة العديد من الخلفاء بدءا بمعاوية الثـانى 64هــ- 683م ومـرورا بمراون بن الحكم 64- 65هـ- 683- 685م، وعبد الملك بن مـروان 65- 86هـ- 685- 705م، والوليد بن عبد الملـك 86- - 96هــ-

705- 715م، وسليمان ابن عبد الملك 96- 99هـ- 915- 918م، وعمر بن عبد العزيز 101- 105هـ- 720- 724م، وهشام بن عبد الملك 105- 125هـ- 724- 743م، والوليد بن يزيد بن عبد الملك " الوليد الثانى" 125- 126هـ- 743- 744م ويزيد بن الوليد بن عبد الملك 126هـ- 744م وانتهاءا بمراون بن محمد 127- 132هـ- 744- 749م حيث باغته العباسيون الذين كان قد بدأ ظهورهم فى خراسان وسيطروا على الحكم وقضوا على الدولة الأموية ودور الأسرة الأموية فى المشرق بعد أن حكمت نحو تسعين سنة سطرت خلالها فتوحات إسلامية فى آسيا على نحو ما سبقت الإشارة إليه، فى عهدى معاوية ويزيد، أما الفترة اللاحقة لهما فقد سارت حركة انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية فى آسيا على النحو الآتى:

من معاوية الثانى إلى مروان بن الحكم إلى عبد الله بن الزبير والحجاج ابن يوسف الثقفى:

خلال العام الذى حكم فيه الخليفتان معاوية الثانى ومروان بن الحكم جرت أحداث جليلة تمثلت فى فتنة أهل خراسان وأهل الكوفة وأهل البصرة. فعقب موت يزيد بن معاوية واختلاف العرب بعده، خطب أمير خراسان سلم بن زياد مطالبا بيعة الناس له، فبايعوه ثم نكثوا عهده بعد شهرين، فخرج من خراسان، وخلف عليها المهلب بن ابى صفرة، فلما وصل نيسابور لقية عبد الله بن حازم، فقال له: من وليت خراسان؟ فأخبرة فقال: أما وجدت من توليه خراسان غير هذا اليمنى، ووقعت فتنة كبيرة بين ابن خازم والمهلب، انقسم فيها العرب قسمين : يمانية ونزارية، وانشطر النزارية إلى ربيعية ومضرية[19]. وقد استمرت هذه الفتنة فترة غير قصيرة.

وفى الكوفة حدثت فتنة فور فور وصول خبر موت يزيد، فقد بايع أهل البصرة- الذين حدثت فتنه بينهم أيضا- عبيد الله بن زياد، وعزلـوا أميرهم عمرو بن حريث، وأمروا عامر بن مسعود بن خلف القرشى الذى مكث أميرا لثلاثة شهور خضعت بعدها الكوفة لابن الزبير.

وفى البصرة انتهت أحداث الفتنة بهرب عبيد الله بن زيـاد إلـى الشام وخضوع البصرة هى الأخرى لعبد الله بـن الزبيـر[20]، وتجـدر الإشارة إلى دور عبد الله بن الزبير، فأمه أسماء بنت أبى بكـر الـصديق الذى ولد عام الهجرة وكان بالتالى أول مولود فى الاسلام يولـد فـى دار الهجرة، وكان مدافعا عن الإسلام حاملا راية الجهاد، وقد شهد معركـة الجمل مع خالته عائشة. وقد سبقت الإشارة أنه حينما وقعت الفتنـة بـين على ومعاوية والفترة التالية، فقد بعث به معاوية لغزو القسطنطسنسة فـى السنة الخمسين للهجرة مع ابنه يزيد، كذلك فقد امتنع ابن الزبير عن مبايعة يزيد، فلما هاجم أهل الشام أهل المدينة فى وقعة تسمى الحرة متجهين إلى مكة، قاتلهم عبد الله بن الزبير، ثم بايعة أهل الحجاز بالخلافة وانضم إليهم أكثر أهل الشام والعراق ومصر فى عهد مروان بن الحكم الذى خلفه ابنه عبد الملك حيث جرت أحداث انعكست بالتالى على حركة انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية فى آسيا، وهذه الأحداث يمكن أجمالها فيما يأتى:

يذكر ابن عبد ربه أن عثمان بن عفان قد استخلف عبـد الله بـن الزبير على الدار يوم الدار[21]، ثم أن النبى ﷺ حينما جعل أبا بكر الصديق يؤم المسلمين، فإن ذلك قوى فى نفسه النزوع إلى السلطة، ويستدل علـى ذلك من الدور الذى أداه فى الفتنة بين على ومعاوية وقد سبقت الإشـارة إلى تخلف ابن الزبير والحسين عن مبايعة يزيد، فكان الحـسين منافـسه

الأقوى، فلما ذهب إلى العراق حيث قضى عليه لم يبق لابن الزبير منافس يذكر، فأخذ يدعو لنفسه ويعمل على تقوية مؤيديه فى الحجاز وخارجه ضد الأمويين مستغلا ما قاموا به من أعمال منافية للإسلام فى مرحلة من أهم مراحل الدولة الإسلامية التى تتطلع لنشر هذه العقيدة، حيث حول الأمويون الخلافة إلى ملك عضوض، وعاملوا ولاتهم على الأقاليم المفتوحة بالقسوة والعنف، وأنهم قتلوا الحسين وغزوا الحرمين[22].

استطاع الزبير بذكائه أن يكسب الرأى العام الإسلامى وأقلق بذلك صفوة الدولة الأموية، وبايعه أهل المدينة وأهل مكة وأهل اليمن والكوفة والبصرة، فلما مات معاوية بن يزيد بايعه أهل الشام باستثناء أهل الأردن وكذلك الحال مع أهل خراسان والمشرق، وكاد يتم الأمر لابن الزبير بعد أن بايعته أكثر الأقطار الإسلامية والمفتوحة، لولا أن مروان قد انتزع منه مصر ثم خلفه ابنه عبد الملك الذى واجه ما اصطلح المؤرخون على تسميته بفتنه الزبير حيث بعث هذا الأخير أخاه مصعب أميرا على العراق ثم دخول عبد الملك الكوفة حيث بايعه أهلها سنة 71هـ وتمكن من السيطرة على العراق، ولم يبق فى يد عبد الله بين الزبير سوى الحجاز[23]. فلما توطد الحكم لعبد الملك فى العراق فقد بعث بجيش قوى يقودة الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال ابن الزبير فى الحجاز، فنزل بالطائف سنة 72هـ، ثم وافق عبد الملك على دخوله الحرم، فقدم مكة محرما وحج بالناس، إلا أنه لم يطف، ولم يسع بين الصفا والمروة لأن ابن الزبير منعه، ثم نصب الحجاج المنجنيق، ورمى به، فأصاب الكعبة، واشتد الحصار على أهل مكة فخرجوا مستأمنين.

طلب ابن الزبير النصيحة من أمه أسماء بنت أبى بكـر بعـد أن خذله الناس حتى ولداه حمزة وحبيب، فشجعته أسماء على الثبـات علـى موقفه فقاتل الحجاج قتالا عنيفا، وأظهر من الشجاعة والجلد مـا أدهـش الحجاج وصحبة ثم قتل وصلبه الحجاج فتناولته أمة فغسلته وطيبته وصلت عليه قائلة: "اللهم لا تمتنى حتى تقر عينى بجثته"، فما أن أتت عليها جمعه حتى ماتت، وقضى على حركة الزبير التى كانت تهـدف إلـى إرجـاع عاصمة الإسلام إلى الحجاز كما كانت فى عهد الرسول ﷺ، وكـان ابـن الزبير معتزا بذلك، ساعيا له، ولما طلب إليه أن يترك الحجاز إلى الـشام امتنع، ويرى المؤرخون المحدثون[24] أن ابن الزبير لو كان قـد وافـق فذهب إلى الشام لاستقامت له الأمور.

مراجع الفصل الأول من الباب الثاني

(1) دكتور محمد الطيب النجار، الدولة الأموية فى الشرق، القاهرة 1963 ص114- 116. وراجع أيضا: محاضرات فى تاريخ العالم الإسلامي، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.

(2) البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى، المتوفى سنة 279 هـ، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان ، بدون مكان وتاريخ إصدار ، ص 159- 161.

(3) المصدر نفسة ص 169، وراجع : اليعقوبي، مصدر سابق 216- 217..

(4) يذكر بيضون أن اسم هذا القائد قد ورد فى عهد معاوية فى أحداث أعوام46،55، 58 هـ، كما ورد فى عصر المنصور العباسى فى أحداث عام 146، راجع ، الدكتور إبراهيم بيضون، ص 165 نقلا عن البلاذرى، مصدر سابق ص 195، ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ مصدر سابق ص 501، 515.

(5) دكتور إبراهيم بيضون، ص 165.

(6) البلاذرى فتوح البلدان، ص 236- 237.

(7) عقبة بن عامر الهجنى أمير من الصحابة شهد صفين مع معاوية وولى مصر سنة 44 هـ وعزل عنها سنة 47 هـ، وولى غزو البحر وكان شجاعا ففيها.

(8) الطبرى، الجزء السادس ص 128- 131.

(9) البلاذرى، مصدر سابق ص 159.

(10) ويذكر المؤرخون أن معاوية وجه إليهم من صالحهم على مائة ألف دينار وكان بذلك أول خليفة إسلامى يصالح الروم على مال.

(11) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الثالث، ص 458- 459، وقد تم اكتشاف ضريح الأنصارى أثر سقوط القسطنطينية على يد الأتراك العثمانيين سنة 1453م.

(12) راجع تفصيلا، دكتور إبراهيم العدوى، الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ إصدار ص 155، 175.

(13) البلاذرى، فتوح البلدان، مصدر سابق ص 438.

(14) وقد نصت المعاهدة على أن يدفع المسلمون إلى الرومانيين ثلاثة آلاف دينار ذهب وثمانية آلاف أسير، وخمسين جوادا من الخيل والجياد.

(15) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى، المتوفى سنة 328 هـ العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1953، الجزء الأول ص 10، 207.

(16) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيورى، المتوفى سنة 276، الإمامة والسياسة، الجزء الأول، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ إصدار ص 185.

(17) الدنيورى، أبو حنيفة أحمد بن داود الدنيورى، المتوفى سنة 282 هـ، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة 1960 ص 259.

(18) البلاذرى ، الجزء الخامس، ص 205- 207.

(19) ابن الأثير، الجزء الرابع، ص 90- 91.

(20) الطبرى، الجزء السابع، ص 18، 31، 37.

(21) ابن عبد ربه، العقد الفريد، الجزء الثالث ص 160.

(22) المصدر نفسه، الجزء الثالث ص 144- 145.

(23) نفس المصدر، الجزء الرابع ص 125.

(24) الدكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق ص 95.

الفصل الثانى

من عبد الملك بن مروان

إلى الوليد وسليمان بن عبد الملك

* الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية

بويع عبد الملك سنة 65 هـ، ولم يكد يتم له الأمر حتى اجتمع نفر من الشيعة العلوية الذين ثاروا انتقاما لمقتل الحسين نادمين على ما فرطوا فى حقه من عدم نصرته، فأعلنوا توبتهم وسموا بالتوابين، فبعث إليهم عبد الملك أمير العراق عبيد الله بن زياد فالتقى بهم فى عين الوردة، وجرت بين الطرفين معارك، أبلى التوابون فيها بلاء حسنا وقتل رئيسهم فتشتتوا، ثم واجه عبد الملك تمرد المختار بن عبيد الثقفى عامل الكوفة من قبيل الزبير، فطرده وكان ذا مطامع واسعة، فاستتر وراء حركة التوابين، وانضوت الشيعة تحت لوائه من توابين وكيسانية وسبأية.(1)

الفتن الداخلية وانعكاساتها الأسيوية:

حدثت العديد من الفتن الداخلية التى واجهها عبد الملك بن مروان بدءا بفتنة الخوارج والتى انتهت بإرساله الحجاج المعروف بسياسته الشديدة التى مكنتة من طردهم من العراق إلى فارس ثم الفتك بطوائفهم وخاصة الصفرية المقيمة فى الموصل ومرورا بفتنة لبنان التى قام بها الجراجمة والمردة من جرجومة وجبل لبنان- كما سبقت الإشارة- فقد صالحهم عبد الملك إلى أن صفا له الأمر، ففتك بهم. ورغم هذه الفتن فإن حركة الفتوح فى آسيا قد امتدت فى الفترة من سنة 74هـ إلى سنة 86 هـ.

ففى سنة 74 هـ ولى عبد الملك بلاد خراسان لأمية بن عبد الله بن خالد ابن أسيد، فلما أتاها ولى ابنه عبد الملك بن أمية على سجستان ، فلما قدمها غزا رتبيل وهو الملك الذى طلب صلح المسلمين ثم تمرد عليهم، فولى عبد الملك الحجاج على هذا الإقليم إضافة إلى العراق، فبعث الحجاج المهلب ابن أبى صفرة، وعبد الله بن أبى بكرة، فسار عبيد الله وغزا بلاد رتبيل وأصاب غنائم كثيرة، وهدم الحصون، كما سار المهلب إلى ما وراء النهر، وفتح حصونها، وأقام حتى بلغ منيته فاستخلف ابنه يزيد، وأوصاه أن يستمر فى فتوحه، فسار

يزيد حتى بلغ قلعة نيزك بباذغيس، غير أن الحجاج قد عزله فى سنة 85هـ وولى أخا المفضل الذى غزا أفرون وشومان وفتحهما وأصاب مغنما كثيرا.

أما الوليد بن عبد الملك 86- 96هـ (705- 715م)، فقد أمر الحجاج باستمرار عملية الفتوح الإسلامية تجاه الشرق، فبعث الحجاج من قبله قتيبة ان مسلم الباهلى أميرا على خراسان، فأتاها ورتب أمورها، ثم سار حتى قطع نهر بانج بجيش كثيف، ووصلت أخباره إلى ملوك ما وراء النهر، فخافوا واستقبله ملك الصغانيان بالهدايا ثم انصرف إلى مرو وبعث أخاه صالح بن مسلم لفتح كاشاه وأورشت في فرغانة، وأخسكيث، وفى سنة 88هـ غزا قتيبة نومشكت فصالحه أهلها، وفى سنة 89 هـ غزا بخارى ولكنه لم يتمكن من القضاء على ملكها، فرجع. وتذكر المصادر[2]. أن الحجاج طلب صورها وما يحيط بها من جبال وسهول، فبعث إليه فقال الحجاج له :" ائتها من مكان كذا وكذا..."، فعمل قتيبة بما أشار عليه الحجاج، فاستطاع فتحها سنة 90هـ، وفى السنة ذاتها فتح الطالقان، وفى سنة 93هـ غزا ملك خوارزم فصالحه ثم توجه إلى سمرقند ففتحها، وفى سنة 94هـ غزا قتيبة الشاس وفرغانة، ولما رجع جاءه نعى الحجاج فخزن لذلك، وفى سنة 96هـ غزا بلاد الصين ووصل كاشغر، ولما بلغه موت الوليد رجع بعد أن نشر الإسلام فى المشرق وأباح للناس قراءه القرآن الكريم بالفارسية والتركية.

أما سيلمان بن عبد الملك 96- 99 هـ (715- 717م) كان أول عمل قام به أنه أبعد جماعة الحجاج عن السلطة، فعزل عثمان ابن حيان عن المدينة، وولاها أبابكر بن محمد بن حزم، ثم عزل يزيد بن أبى مسلم عن العراق، وولاه يزيد بن المهلب، وأراد أن يعزل قتيبة بن مسلم فبعث إليه يهدده بالثورة، فأقلع، غير أن قتيبة لم يأمن غدر سليمان ووقعت فتن كثيرة انتهت بقتلة، فلما رأى بعض سكان خراسان ذلك قالوا للغرب: يا معشر العرب، قتلتم قتيبة،

والله لو كان منا فمات، لجعلناه في تابوت، فكنا نستقى به، ونستفتح به، إذا غزونا، وما صنع أحد بخراسان مثل ما صنع قتيبة[3].

وقام سليمان بن عبد الملك سنة 90 هـ بتولية يزيد بن المهلب بلاد المشرق، ففتح بلاد خرخان، وطبرستان، ونفذ سليمان مشروع أخيه الوليد بغزو القسطنطينية وبعث بمسلمة بن عبد الملك على رأس جيش وأسطول كبير تمكن من بلوغ أسوار القسطنطينية، وكادت الدائرة تدور على الروم.

مراجع الفصل الثانى من الباب الثانى

(1) لمزيد من التفصيل حول التوابين والكيسانية والسبأية، راجع الطبرى، الجزء الأول، البغدادى: عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى المتوفى سنة 429هـ، الفرق بين الفرق، تحقيق محى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ إصدار، المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثانى، ص114 – 116.

- الشهرستانى: محمد بن الكريم بن أبى بكر، المتوفى سنة 584هـ، الملل والنحل، تحقيق محمد رشيد الكيلانى، دار المعرفة، بيروت 1975.

(2) دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق، ص 115– 118 نقلا عن ابن الأثير، الجزء الرابع، ص 206– 222.

(3) نقلا عن ابن الأثير، الجزء الخامس ص 7.

الفصل الثالث

من عمر بن عبد العزيز

(99- 101هـ / 707- 730م) إلى ما قبل

سقوط الدولة الأموية سنة 132هـ

- دور البصرة فى فتح خراسان.
- دخول أعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الإسلامى.
- حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز.

دور البصرة فى فتح خراسان:

سبقت الإشارة إلى ما أحدثته الفتن والاضطرابات الطائفية من عدم استقرار سياسى انعكس على عملية الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا- موضوع هذه الدراسة- وكانت أهم المناطق التى تأثرت بهذه الاتجاهات منطقة خراسان برمتها وهى المنطقة التى ستحدث فى المستقبل تغييرات جذرية سلبية تجاه الدولة الأموية وتؤدى إلى إسقاطها.

كما سبقت الإشارة[1] أن خراسان كانت قد خضعت لسيطرة العرب المسلمين فى ثلاثينيات القرن الأول الهجرى، ومن الناحية الجيوبولتيكية فهى بلاد واسعة، أول حدودها مما يلى العراق، وآخر حدودها مما يلى الهند وطخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، فضلا عن أنها تشتمل على أمهات البلاد منها نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ، وطالقان، ونسا، وابيورد، وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التى دون جيحون[2].

وكان للبصرة دور أساسى فى فتح خراسان وخاصة فيما يتعلق بالقبائل المشاركة فى حركة استيطان خراسان من عرب الشمال وهم قيس وتميم وربيعة، وفى منتصف القرن الأول الهجرى قام زياد بن أبيه عامل العراق على المشرق بإبعاد القيسيين من البصرة والكوفة فيما شبهه أحد المؤرخين المحدثين[3] بالنفى إلى خراسان فى محاولة لتشتيت القوى السياسية المعارضة للحكم الأموى. وقد أورد البلاذرى أن زيادا ولى السريع بن زياد الحارثى سنة 51 هـ خراسان وحول معه من أهل الكوفة والبصرة زهاء خمسين ألفا بعائلاتهم، ومع ذلك فقد ظل التواجد الإسلامى العربى فى خراسان ذا تأثير هامشى فى التركيبة السكانية الخراسانية التى حازت التفوق العددى المطلق[4].

وقد سبقت الإشارة إلى أن المهلب بن أبى صفرة والى خراسان فى الفترة 79- 82هـ قد انتهج سياسة تدعيم الوجود العربى الإسلامى فى المشرق العربى وخاصة من أهل اليمن الذين كان ينتمى إليهم المهلب، ومن ثم توافدت هجرات واسعة ومتكررة من العرب اليمنيين إلى خراسان خاصة من قبائل الأزد وهمدان وكنده. ويؤيد يوليوس فلهوزن- فى مؤلفه القيم " الدولة العربية وسقوطها"- هذه الآراء حتى أنه يجد خراسان وكأنها نسخة أخرى من شبه الجزيرة العربية من توجهاتها القبلية المعقدة والمتشابكة، حتى الانقسامات والتحالفات القائمة على المصالح قد بدت هى الأخرى ظاهرة فى التكوينة السكانية الإسلامية الجديدة فى خراسان، كالتحالف الذى قام بين الأزد اليمنية، وربيعة القيسية فى مواجهة تحالف قيس وتميم من العرب الشماليين، وتزامنت تطورات هذه التحالفات والتحالفات المضادة مع أفول نجم نفوذ ابن الزبير فى خراسان حيث أدى الصراع مع الأمويين على السلطة إلى تشجيع التمرد القبلى، وانعكس ذلك بالطبع على عرب خراسان من خلال التغيير المستمر للولاة فى خراسان، فهم يمنيون إذا كانت ميول الخليفة يمنية، وقيسيون إذا كانت ميول الخليفة قيسية، ومرة أخرى يترك المهلب بن أبى صفرة من الأزد اليمنية، وقتيبة ابن مسلم من القيسيين بصمات فترة ولايتهما على خراسان من خلال التورط فى المسألة العصبية، غير أن ولاية الأول على خراسان، كانت أكثر تأثيرا فى التركيب القبلى حيث أصبح للأزد اليمنية الشأن القوى.

لقد شجع الموقع الجغرافى وخصوبة الأرض وثرائها فى استمرار التدفق القبلى العربى على خراسان، وكان طبيعيا- ولو أن هذا حدث فى بطء شديد- أن يمتزج السكان العرب والفرس والذى ظهرت بوادره فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز والذى وصفه أنس بن مالك قائلا:" ما صليت خلف إمام أشبه برسول الله من هذا الفتى عمر بن عبد العزيز.

ولى عمر الخلافة سنة 99هـ، وسار بالناس سيرة الخلفاء الراشدين عدلا، وإنصافا، ورأفة، وكان أول عمل سياسى قام به هو استدعاؤه الجيش من بلاد الروم لما أصاب جنوده هناك وحث الناس على معونتهم، ثم عزل يزيد بن المهلب عن العراق، وولى البصرة عدى بن أرطأة الفزارى، والكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد الخطاب، وولى الجراح بن عبد الله الحكمى على خراسان، وخفف الضرائب عن المسلمين وبخاصة الفرس الذين أرهقهم بنو أمية بها، وكان يقول لعماله :"إن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا، ولم يبعثه جابيا[5]".

ورغم هذه السياسة العادلة، فإن بعض العناصر كالخوارج والعباسيين قد ثاروا عليه بعد عام من خلافته، فبعث عمر بن عبد العزيز إليهم مسلمة ابن عبد الملك فى جيش من أهل الشام، فأظهره الله عليهم[6]. غير أن وفاة عمر قد مكنت الخوارج من تقوية أنفسهم فسيطروا فى مدة وجيزة على قسم كبير من بلاد العراق والجزيرة. أما العباسيون فقد استغلوا ميل عمر إلى السلم وخرجوا عن مبايعته فى العراق وخراسان.

دخول أعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الإسلامى:

الواقع أن دخول أعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الإسلامى جاء نتيجة الفتوحات الإسلامية فى العراق وفارس وبلاد الشام، وظهرت بالتالى فئات جديد هم المسلمون من غير العرب، وقد أطلق عليهم فيما بعد "المولى" الذين تمتعوا بالمعاملة الحسنة طوال فترة الخلافة الراشدة، غير أن الدولة الأموية- باستثناء فترة خلافة عمر بن عبد العزيز- قد تعصبت إلى العرب وأساءت معاملة "الموالى" مما جعلهم يشتركون فى كل ثورة ضد الحكم الأموى، فانضموا إلى الفرق الإسلامية المختلفة وأهمها الخوارج، بل إنهم اشتركوا فعليا فى ثورة من أشد وأخطر الثورات على الحكم الأموى وهى ثورة عبد الرحمن عبد الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان، كما سبقت الإشارة.

أما فى عهد عمر بن عبد العزيز، فرغم فترة خلافته القصيرة - سنتين وخمسة أشهر- إلا أنه كان مضرب الأمثال فى الإنصاف بين العرب والعجم والروم، وروى ابن الأثير أنه كتب إلى سليمان بن أبى السرى، آمره على المشرق يوصيه خيرا بالعجم، فلما أتاه كتاب عمر قال أهل سمر قند: إن قتيبة ظلمنا وغدر بنا، فأخذ بلادنا، وقد أظهر العدل والإنصاف، فأذن لنا، فليقدم وفد على أمير المؤمنين، فأذن لهم، فوجهوا وفدا إلى عمر، فكتب لهم إلى سليمان أن أهل سمرقند شكوا ظلما وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من ديارهم،فإذا أتاك كتابى، فأجلس لهم القاضى فينظر فى أمرهم ، فإن قضى لهم، فأخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة، فأجلس لهم القاضى، فقضى أن يخرج عرب سمر قند إلى معسكرهم[7].

وكتب إلى عبد الحميد أميره على الكوفة: أن أهل الكوفة أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله، وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء، وأن قوام الدين العدل والإحسان...." . قال الطبرى[8]. :" ألحق عمر بن عبد العزيز ذرارى الرجال الذين فى العطايا، أقرع بينهم، فمن أصابته القرعة جعله فى المائة، ومن لم تصبه القرعة جعله فى الأربعين".

أعاد عمر بن عبد العزيز- بهذه الصورة- إلى الأذهان التجربة الرائدة للخلافة الراشدة، وهى فى مراحل نموها وبدايات استقرارها من ناحية انعكاس العلاقة بين العرب الحاكمين وبين الشعوب التى خضعت لهم ولا سيما فى آسيا، وأبرز ملامح هذه الصورة أنه لم يكن هناك ثمة تمايز بين العقيدة وأصحابها الأوائل، الذين حملوها إلى مناطق النفوذ الفارسى، والبيزنطى، فقد كانت العقيدة الإسلامية الإطار الجامع الذى استوعب مختلف هذه الشعوب، وجاءت حركة الفتوح الإسلامية فى مراحلها المتعاقبة وصولا إلى عهد عمر بن عبد العزيز لتكبح جماح الإثراء غير المشروع، ويستدل

من الخطابات التى كتبها الخلفاء لولاتهم على الأقاليم المفتوحة بالتصدى لهذه المشكلة، وهناك مشكلة أخرى هى التصور الخاطئ لفريق من المستشرقين[9] فى علاقة الأمويين بالموالى الذين وضعوهم فى مرتبة الرقيق حسب تعبيرهم، وقد رد أحد المؤرخين المعاصرين[10] أن هذا التصور مرفوض من جانب هؤلاء المستشرقين، فكلمة" مولى" التى أطلقت على المسلم غير العربى، خاصة من سكان آسيا، لم يكن باعثها الاحتقار أو الاسترقاق، بل كان لها مدلول الالتحاق بالقبيلة، والموالاة لها، والالتزام بمواقفها سلما وحربا، والأهم من ذلك أن الرقيق بأشكاله الأوروبية فى العصور الوسطى والتى تمثلت فى نظام الإقطاع حيث عبودية الإنسان لأخيه الإنسان حتى بعد انتشار المسيحية واستمرار الرق كظاهرة اقتصادية واجتماعية تمسك بها إقطاعيو العصور الوسطى ودافعوا عنها[11]. هذا الشكل من الرقيق لم تعرفه الحجاز ومكة قبل الإسلام، فضلا عن أن الرق قد تحجم كثيرا فى ظل المجتمع الإسلامى الذى اتخذ خطوات جريئة فى تحرير الإنسان، خلافا للمجتمع الكسروى فى آسيا والذى عانت منه الطبقات " المطحونة".

أثبتت الفتوح الأموية إنجازات لا بأس بها، غير أنهما- على حد رأى بيضون [12] – قد صحبها " ضمور الدور الإسلامى إلى حد كبير"، وكان الخليفة الذى تصدى لهذه المسألة الهامة هو عمر بن عبد العزيز الذى وعى جسامه الأخطار المهددة للنظام الأموى، فكأنت محاولاته الإصلاحية الجرئية تجاه منع الضرائب غير المشروعة، وعموما فقد سارت حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز على النحو الآتى:

أولا: شهدت فترة خلافة يزيد بن عبد الملك (101- 105هـ، 720- 724م) استمرارية غزو مناطق من آسيا، ففى سنة 102 هـ سار سعد بن عبد العزيز ابن الحارث بن الحكم بن أبى العاص أمير خراسان غزو الترك، فغزاهم عند سمرقند، وبلغ " بلخ" وغزا الصغد بسبب معاونتهم

الترك، وفى السنة ذاتها غزا عمر بن هبيرة بلاد الروم، وفى سنة 103 هـ عزل مسلمة بن عبد الملك عن خراسان والعراق وتولاهما عمر بن هبيرة الذى عزل هو الآخر فى العام التالى ليتولاها سعيد بن عمرو الحرشى الذى عبر النهر وغزا الصغد.

ثانيا: شهدت فترة خلافة هشام بن عبد الملك (105- 125هـ ، 724- 743م) للعديد من الأحداث، ففى سنة 105 هـ غزا مسلم بن سعد الكلابى أمير خراسان بلاد الترك، وفى العام التالى توغل فى بلاد فرغانة، وفى سنة 108 هـ قطع اسد بن عبد الله القسرى أمير خراسان النهر وغزا بلاد الختل والغور، وفى سنة 110 هـ أرسل أشرس بن عبد الله السلمى إلى أهل سمر قند والصغد وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فقبلوا، وفى سنة 111هـ تولى الجنيد ابن عبد الرحمن ولاية خراسان فسار إلى ما وراء النهر وقاتل الترك ووصل قرب (رزمان) من بلاد سمر قند، وفى سنة 112 هـ هاجم الجراح بن عبد الله الحكمى بلاد الخزر وتغلب على الترك غير أنه استشهد، وفى سنة 119 هـ غزا أسد بن عبد الله " الختل" وفتح قلقه وخداش التى هرب جيشها إلى الصين.

وفى زمن هشام تصاعدت دعوة العباسيين بخراسان، وكان زعيم الحركة بكير بن ماهان الذى وجه عمار بن يسار إلى خراسان واليا على شيعة بنى العباس، فنزل مرو وتسمى باسم خواشى ودعا إلى محمد بن على، فدخل الناس فى الدعوة، وأخذت الشيعة العباسية تقوى فى خراسان سرا، إلى أن جاء أبو مسلم الخراسانى عبد الرحمن بن مسلم فاتصل بإبراهيم الإمام، فأرسله إلى خراسان رئيسا للشيعة العباسية، وكتب إبراهيم إلى سلمة الخلال داعيته فى الكوفة يعلمه أنه أرسل أبا مسلم،و كان وصول أبى مسلم إلى خراسان سنة 124هـ، ومنذ ذلك الحين أخذ يعمل فى الخفاء إلى أن أعلن الدعوة سنة 132هـ[13].

ثالثا: لم تشهد فترة خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك- عاما واحد- (125- 126هـ) عملا يذكر، فلما خلفه يزيد بن الوليد بن عبد الملك عشية مقتل سلفه الوليد ثار أهل حمص،وأغلقت أبواب المدينة، وحلفوا أن لا يطيعوا يزيد ، وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن الحصين بن نمير، فسير إليهم يزيد أخاه فشتت شملهم، كما ثار أهل فلسطين وطردوا عامل يزيد، وولوا عليهم محمد بن عبد الملك، فبعث إليه يزيد سليمان بن هشام ابن عبد الملك ففتك بهم وأخذ بيعتهم للخليفة[14].

وبعد قتل الوليد استعمل يزيد على العراق منصور بن جمهور، وكان من الفيلانية القدرية[15]. فدخل العراق، وأرسل أميرا من قبله على خراسان، وقد وقعت كثير من الفتن فى خراسان.

ولقى الإسلام انتكاسة كبيرة تعرض لابن الأثير تفصيلا حيث قتل المسلمون بعضهم البعض فى وحشية فى خراسان نتيجة للفتن بين اليمن والقيس بالإضافة إلى سائر أقاليم اليمامة. وقد اشتد أمر العباسيين فى عهده، ولم تدم خلافته سوى ستى أشهر خلفه بعدها إبراهيم بن الوليد ولكنه كان ضعيفا، وكانت الأمور تزداد سوءا، والأسرة الأموية منقسمة على نفسها، ولم يطل عهده أكثر من سبعين ليلة[16]. وخلفه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذى استمرت خلافته خمسة سنوات (127- 132هـ، 744- 749م) تمكن خلالها من جمع أمر بنى أمية، واستقامت له الشام، أما العراق فقد بعث إليه بابن عمر بن هبيرة لقتال الخوارج حيث تمت هزيمتهم واستولى على العراق والماهين والجبل غير أن الشيعة العلوية والعباسية والخوارج أخذت تحمل بقوة فى الخفاء. وتمكن مروان بن عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب الذى سار بهم إلى المدائن، فدخل بلاد العجم، واستولى على همدان، وأصفهان، والرى وظل يقوى من نفوذه، غير أن أبا مسلم الخراسانى تمكن من قتله سنة 128 هـ، وسوف يصعد نجم أبى مسلم

فى الفترة اللاحقة بتأجيجة نيران العصبية فى خراسان بين النزارية واليمنية وجعلهم يقتتلون، ثم سار يقضى على نفوذ بنى أمية فى المشرق، فقهر أمير خراسان، واحتل مدن العراق، و استولى علـى الكوفـة سـنة 132 هـ - كما سبقت الإشارة- حيث قتل مروان بن محمد، وانقرض بالتالى الملـك الأموى فى المشرق بعد حكم استمر من سنة 40 إلى سنة 132هـ، وكـان ملكهم عزة فى تاريخ الإسلام لما فتحه العرب من أقاليم، ونشروه من قواعد للدين الإسلامى الحنيف، وقد تمكن بنو أمية مـن توطيـد دعـائم الدولـة الإسلامية، ولولا بعض السلبيات من بعض الخلفاء لكان تـاريخهم صـفحة ناصعة وخاصة فى مجال العلاقات السياسية مع الأقاليم التى فتحوها رغـم قيام بعض الحركات الدينية والسياسية المناوئة كالخوارج والـشيعة العلويـة والشيعة العباسية والمعتزلة على نحو لا يتعلق بمجال هذه الدراسة[17].

لقد نجح الخلفاء الأمويون فى جعل دور العراق دورا هامـشيا فـى الصمود أمامهم، لكنهم فشلوا- رغم جهودهم- فى إنهاء دوره السياسى الذى امتد حتى خراسان فى المشرق، وقد سبقت الإشارة تفصيلا إلـى الأوضـاع الجيوبوليتكية لخراسان ودورها التاريخى المستقبلى بعد ذلك وخاصة حينمـا أصهرت العرب والفرس والترك فى بوتقة واحدة نجحت الحركة العباسـية التى ورثت السلطة فى إضفاء حيوية جديـدة علـى الإسـلام الـذى ظـل على إشراقه.

ومع ذلك لا يمكن إنكار الدور الهام للدولة الأموية خـلال تعاقـب خلفائها بعد معاوية، وبالرغم من انقسامها وتفرق وحـدتها عقـب معاويـة وخاصة ما حدث من الدولة الرومانية من طمعها فى إرجاع البلاد التى فتحها المسلمون من قبل وتجدد الحروب بين المـسلمين والبيـزنطيين واشـتراك الإمبراطور البيزنطى بنفسه فى القتال- إلا أن ذلك كان حافزا أيضا لنـشر الإسلام فى آسيا وظهور قادة مسلمين عظماء فى تاريخ الفتوحات فى آسـيا فى هذه الفترة (وخاصة فى بلاد السند).

مراجع الفصل الثالث من الباب الثانى

(1) لعل من أفضل الدراسات العربية الحديثة التى تعرضت للدور الذى قامت به خراسان فى اسقاط الخلافة الأموية: دكتور إبراهيم بيضون، مرجـــع ســـابق ص 313- 326 حيث اعتمدنا على تحليلاته فى هذا الجزء..

(2) راجع : ياقوت الحموى، شهاب الدين بن عبد الله الرومى، المتوفى ســـنة 626هـــــ، معجم البلدان، الجزء الثانى ص 350.

(3) الدكتور إبراهيم بيضون ص 313.

(4) المرجع نفسه نقلا عن البلاذرى ص 398- 402.

(5) ابن الأثير، الجزء الخامس ص 19- 20.

(6) المصدر نفسه ص 17- 18.

(7) ابن الأثير، الجزء الخامس ص 23.

(8) الطبرى، الجزء الثانى ص 139.

(9) راجع على سبيل المثال.

Boldziher, I: Le Dogme et la loi de I'Islam Traduction de Febix Arin Paris 1920.

- Von Vloten G: Recherches sur la domimation arabe lechitisme et les croyances messianiques sous la Khalifat des Omayyades Amesterdam, 1894

(10) دكتور إبراهيم بيضون، مرجع سابق ص 319.

(11) راجع تفصيلا إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، الجزء الثالث.

- دكتور سعيد عاشور، أوروبا فى العصور الوسطى، النظم والحضارة

(12) دكتور إبراهيم بيضون، مرجع سابق ص 330.

(13) الطبرى، الجزء الثامن ص 228.

(14) ابن الأثير ، الجزء الخامس ص 108- 109.

(15) البغدادى، الفرق بين الفرق ص 16- 71 وذلك لمزيد من التفصيل حول القدرية.

(16) الطبرى، الجزء التاسع ص 46.

(17) لمزيد من التفصيل، راجع دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الأول.

الفصل الرابع
محمد بن القاسم الثقفي
وفتح السند

- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفي.
- عودة الفتوحات الإسلامية النشيطة.
- الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفي (92-96هـ).

ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفي:

كان عصر خلافة الوليد بن عبد الملك والفترة اللاحقة - كما سبقت الإشارة- هي قمة الفتوحات الإسلامية في آسيا من خلال ذيوع صيت العديد من القادة العظام وخاصة في فتوحاتهم في السند وهم: قتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، ومسلمة بن عبد الملك، ثم أشهر الفاتحين قاطبة لبلاد السند وهو محمد بن القاسم الثقفي.

قام الحجاج بن يوسف الثقفي بتولية القائد قتيبة بن مسلم سنة 86 هـ على خراسان، فخرج إلى بلخ وعبر النهر وأتم فتح مدينة " بيكنج" سنة 87 هـ وغنم منها مغانم كثيرة،وفي سنة 88 هـ استخلف أخاه بشار بن مسلم على مدينة مرو- عاصمة خراسان الذي فتح بلاد كرمينة - الأقاليم الواقعة بين بخاري وسمرقند- ثم سار إلى بخاري وفتحها. في حين فتح قتيبة بن مسلم مدينة سمر قند نفسها سنة 93 هـ ثم اتجه إلى مدينة خجند- من بلاد فرغانة وهي مجاورة للتركستان الغربية- وتمكن من فتحها، ثم فتح مدينة كاشان عاصمة فرغانة.

علم قتيبة بن مسلم الباهلي بوفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك خلال فتوحاته في آسيا فلم يمنعه هذا من مواصلة جهاده حتى اقترب من الصين، فبعث له ملك الصين بالجزية وعاد قتيبة إلى خراسان. أما موسى بن نصير فقد فتح بلاد الأندلس- وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة- أما القائد مسلمة بن عبد الملك بن مروان فقد كانت له جهوده المتواصلة مع الروم في آسيا الصغرى حيث فتح الكثير من معاقلها- كما سبقت الإشارة- ومهد لفتح القسطنطينية.

غير أن أكثر هؤلاء القادة بروزا وأهمهم على الاطلاق في فتح بلاد السند فهو القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفي الذي سوف يحقق شهرة واسعة في بلاد السند والبنجاب- باكستان حاليا- وكانت هذه البلاد الممتدة

من حدود إيران غربا إلى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى- كانت ملجأ للمتمردين العرب ضد الدولة الأموية،وكان يخرج منها بعض القراصنة للإغارة على السفن التجارية العربية- ولم يستجب ملكهم داهر لطلب المسلمين ردهم الأمر الذى دعا والى العراق الحجاج بن يوسف أن يلح على الخليفة الوليد بن عبد الملك ليأذن له بفتح بلاد السند من الداخل ليؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية، ولما استجاب الخليفة أعد الحجاج حملة كبيرة وجعل قيادتها لصهره وابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى الذى - بفتح بلدان السند ومدنها الواحدة تلو الأخرى- دانت له جميع بلاد السند والبنجاب وأقام دولة عربية إسلامية استمرت تدين للعرب حتى سنة 416 هـ، وقبل أن نستعرض فتوحات محمد بن القاسم الثقفى لبلاد السند والبنجاب فى الفترة (92- 96هـ) يجدر بنا أن نذكر فى عجالة الولاة العرب لإقليم مكران ببلاد السند فى الفترة (41- 92هـ) لارتباط ذلك ارتباطا وثيقا مباشرا بمجال هذه الدراسة.

فقد شهدت فترة خلافة معاوية بن أبى سفيان (41- 60هـ) ولاية العديد من حكام العرب لهذه المناطق واهتمامه بإقليم مكران والسند، ففى عهده عين والى العراق عبد الله بن عامر على ثغر السند،- أى إقليم مكران- واليا جديدا هو المهلب بن أبى صفرة فى سنة 44هـ والذى قاتل أهل القيقان، وينقل البلاذرى[1] صاحب فتوح البلدان عن المهلب قوله: "ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتبشير منا؟" فخذف الخيل، وكان أول من خذفها من المسلمين، واتجه عن طريق ممر خيبر قرب بشاور - عاصمة الإقليم الشمالى الغربى لباكستان حاليا، والمجاورة لأفغانستان- وكان بذلك أول قائد عربى يقوم بفتوحاته من هذه الناحية حيث كان ممر خيبر بابا هاما من أبواب شبه القارة الهندية منذ القدم.

ثم تولى عبد الله بن سوار بـن همـام العبـدى (46- 49هـ) حكم مكران – ثغر السند وهى كراتشى حاليا- و رغم انتصاراته الفائقة هناك إلا أنه قتل فى إحدى المعارك ليخلفه راشد بن عمرو الحديد الأزدى (51- 53هـ) قتل فى إحدى المعارك ليخلفه راشد بـن عمـرو الحديـد الأزدى (51- 53هـ) بعد فترة اضطرابات استمرت سنتين فى مكـران، وحارب مشاغبى منطقة القيقان فى حملة ناجحة حتى استشهد، فأمر زيـاد بن أبى سفيان والى العراق بتولية سنان بن سـلمة الهـذلى علـى حكـم مكران لأنه كان مناضلا وابن صحابى جليل، وقد حكم سنان فى الفتـرة 53-57هـ، وكان الرسول ﷺ، الذى ولد سنان فى الفترة 53- 57 هـ، وكان الرسول ﷺ، الذى ولد سنان فى عهده ، قد قال لأبيه:" أبشر بابنـك" وسماه سنانا، وفتح سنان مناطق جديدة بين مكـران والقيقـان واستـشهد هناك، حيث تولى عباد بن زياد (57- 59 هـ) وتوجه بجيشه نحو مكران ونجح فى حملاته هناك ثم عاد إلى خراسان.

فى سنة 59 هـ اختار زياد بن أبى سفيان والى العـراق لحكـم مكران – أبا الأشعث المنذر بن الجارود المبدى- (59- 63هـ)، والذى زحف بجيشه إلى القيقان ثم البوقان فأخضعهما، وأقام فيهما معسكرا عربيا منظما كبيرا، وفتح قصدار وتولى سنة 63 هـ ليخلفه ابنـه الحكـم بـن المنذر ابن الجارودى المبدى (63- 64هـ) ولا يذكر التاريخ شيئا عـن إنجازاته فى مكران، وتولى حرى بن حرى الباهلى (64- 68هـ) وفـتح بعض المناطق المجاورة لمكران وأخضع أهل مدينة قصدار مـن جديـد، وقضى على فتنة مدينة البوقان رغم أن أهلها كانوا مسلمين كمـا يـذكر البلاذرى.

وعند تولى الخليفة عبد الملك بن مروان حكم الدولة الأموية فى الفترة (65- 75هـ) فقد انشغل عشر سنوات بالفتن الداخلية وربما يفسر ذلك إهماله أمر مكران ببلاد السند، حتى تولى الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة 75 هـ حكم العراق والولايات الشرعية وكانت أمور بلاد السند مسندة إليه فقام بتعيين سعيد بن أسلم ابن زرعة الكلابى ولاية مكران، وقام الوالى الجديد(2). بتنظيم امورها الإدارية والمالية غير أن مثيرى الفتنة المعروفين بالعلافين قتلوه فغضب الحجاج لسماع نبأ مقتل سعيد بن أسلم الكلابى وتولى مثيرى الفتنة المعروفين بالعلافين لحكم مكران بتأييد من داهر ملك السند، وأعد الحجاج جيشاً للقضاء على المتمردين بقيادة مجاعة بن سعر التميمى، ولما سمع العلافون بقرب قدوم هذا الجيش القوى تركوا مكران هاربين واستطاع مجاعة التميمى إعادة الحكم العربى لمكران.

عودة الفتوحات الإسلامية النشيطة:

عادت أيام الفتوحات الإسلامية النشيطة فى فترة خلافة الوليد بن عبد الملك (86- 96هـ)، وظهر قواد عظام فتحوا بلادا عظيمة كبلاد التركستان ووصلوا إلى عمق بلاد السند واتسعت رقعة الدولة الإسلامية اتساعا كبيرا، وقام الحجاج بن يوسف الثقفى بتعيين محمد بن هارون النمرى (76- 92هـ) على ولاية مكران، ثغر السند، الذى فتح المناطق المحيطة بمكران. غير أن تصرفات القراصنة وهجماتهم على السفن التجارية العربية بين الحين والحين واستفزازاتهم المستمرة جعلت الحجاج يشتد غضبه – لا سيما بعد أن رفض داهر ملك السند الإفراج عن سيدات مسلمات كن فى طريقهن للحج فى سفن قادمة من سيلان– وجهز جيشا عربيا بقيادة عبيد الله بن نبهان السلمى، غير أن الحملة فشلت، فجهز جيشاً آخر بقيادة القائد بديل بن طهفة البجلى سنة 91هـ وأصر على انقاذ

النسوة المسلمات، وسار الجيش برا إلى عمان ثم إيران ومنها إلى إقليم مكران ودارت معركة عنيفة بين العرب وجيش داهر ملك السند، وانهزم الجيش العربى على إثرها، وهو ما جعل الحجاج يشعر أكثر بالغضب وأقسم على استمرار الغزو الإسلامى لبلاد السند وفتحها ونشر الإسلام فى ربوعها، ووافقه الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد تردد، ويذكر البلاذرى أن أسباب موافقة الخليفة كانت أسبابا سياسية وأخرى غير سياسية[3]. وكان قائد الجيش هذه المرة محمد بن القاسم الثقفى الذى سيلمع نجمه مستقبلا.

الحملة العربية بقيادة محمد بن القاسم الثقفى (92- 96هـ) :

اختلفت المصادر حول سنة حملة محمد بن القاسم الثقفى على بلاد السند والبنجاب، وتذكر بعض المصادر أنه وصل إلى مكران فى أواخر سنة 92هـ، فى حين تذكر مصادر أخرى أنه قام بحملته فى الفترة 94- 95هـ، وعموما فقد سار محمد بن القاسم بجيشه إلى الشيراز، وكان سنه لا يتجاوز السابعة عشر ولكن الحجاج كان معجبا بشجاعته النادرة وخلقه الكريم، وواصل سيره إلى إقليم مكران مستعدا للزحف إلى داخل بلاد السند، وبدأ بالمدن الواقعة فى غرب نهر السند[4]. ثم قنزبور - عاصمة إقليم مكران قبل الفتح العربى- وفتحها وقرر الزحف نحو الديل- حيث النسوة المسلمات محتجزات- واستولى على معبد بوذى كبير نظرا لأهميته القصوى فى العقيدة البوذية كما استولى على حصن توى وأنقذ النسوة المسلمات وعفا عن الكثيرين ممن اعتنقوا الإسلام لأنهم كانوا مؤمنين بأن العرب سيفتحون الديبل، كما أحسن محمد بن القاسم الثقفى إلى الأهالى، وأسكن أربعة آلاف من العرب هناك وبنى لهم مسجدا، وعين حميد ابن وداع النجدى حاكما على الديبل، وانتهى تماما من فتحها وتنظيم أمورها ليتفرغ لفتح مدينة النيرون.

سار محمد بن القاسم الثقفى إلى النيرون- الآن مدينة حيدر آباد- وكان أهلها متحصنين داخل مدينتهم، وحاصر المدينة حيث استسلم واليها البوذى الذى أخبره أنه وأهل المدينة صاروا من أتباع العرب وبنى ابن القاسم مسجدا للمدينة وعين عليها واليا عربيا، ثم تحرك بعد ذلك إلى إقليم سيوستان، وكان سكانها بوذيين وحاكمها برهمى المذهب، وشعر السكان بالخوف من قوة المسلمين فاستسلموا بعد هروب حاكمهم، ودخل محمد بن القاسم المدينة فاتحا، ومما يجدر ذكره أنه قد دخلت جماعة كبيرة من البوذيين من أهل السند إلى الدين الإسلامى الحنيف.

سار محمد بن القاسم متجها نحو منطقة البودهية، ولما سمع أميرها بقدومه تقدم إليه مع قواده وبايعه، وخلع عليه خلع التشريف حسب تقاليد ملوك السند، ثم قمع محمد بن القاسم حركة المتمردين بمساعدة أمير هذه المنطقة وأقام ابن القاسم فى قلعة سيسم عند الطرف الغربى لبحيرة مانهر حيث دخل المسلمون المدينة، وقاتل العرب المتمردين هناك وهزمهم، وقام ابن القاسم بتنظيم الأمور فى منطقة البودهية وفرض الخراج على أهلها، وأسكن جماعات من العرب فى مناطق عديدة، وبنى لهم بعض المساجد.

حث الحجاج بن يوسف الثقفى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى على سرعة الحركة داخل السند وأوضح له درسا هاما فى علوم السياسة للحصول على السلطة من خلال وسائل أربع هى: المداراة أو المساهمة أو المصاهرة ثم بذل المال والعطية ثم الرأى الصائب فى محاربة الأعداء ومعرفة أمزجتهم ونقط ضعفهم ثم الرعب والهيبة والقوة والشهامة وأكد عليه عبور النهر قبل العدو حتى يدخل الرعب فى القلوب ويثبت تفوقه وبين الحجاج أيضا الهدف من الفتح، وأساليب معاملة الرعية،

سواء من يدخل منهم الإسلام أو لم يدخل وكيفية الحصول على الجزية والخراج، وكان لهذه الرسائل أهميتها القصوى سياسيا وعسكريا فى نجاح محمد بن القاسم.

عاد ابن القاسم إلى النيرون وتوجه نحو مدينة أشبهار حيث حدثت مواجهة مع أهلها الذين انضم إليهم قوم الزط من سكان النيرون، غير أن ابن القاسم أعطاهم الأمان وفتح القلعة، ثم تقدم نحو نهر السند حتى وصل إلى الضفة الغربية للنهر فى مقابل جيبور ومدينة راور- جنوب شرقى مدينة حيدر آباد حاليا-، وقد وصلته رسالة من حاكم منطقة بت - جزيرة صخرية تسمى بهاكر أو بكهر وهى من معالم بلاد السند- يخبره فيها أن بلاد السند ملك لآبائه وأجداده، كما أن صلة القرابة تربط بينه وبين الملك داهر، وأضاف حاكم منطقة بت- وهو بوذى- قائلا: إن الدلائل الحربية تشير إلى أن بلاد السند ستنتقل للعرب ولذلك فهو مستعد للتعاون، ورحب محمد بن القاسم بالتعاون معه وترك له حكم منطقة بث.

أرسل محمد بن القاسم مبعوثه العربى المعروف بالشامى إلى الملك داهر قائلا له[5]: "إن أميرنا محمد بن القاسم قد ترك لك الحرية فى أن تختار عبور النهر إليه أو تسمح للعرب بالعبور حتى يتقابل الفريقان فى ساحة القتال ما دمت لا تريد التسليم أو الصلح"، وكان أمام الملك داهر رأيان إما أن يعبر هو أو أن يعبر محمد بن القاسم، واستقر الرأى على ترك الاختيار للعرب، فقرر ابن القاسم عبور النهر، ووقف بجيشه على الشاطئ الغربى، ووصلته رسالة من الحجاج بن يوسف الثقفى ينصحه بالتجلد والشجاعة وسرعة العبور وطلب منه إرسال خريطة للنهر لدراستها.

من ناحية أخرى استعد الملك داهر للقتال، وبينما كان محمد بن القاسم يستعد لعبور النهر علم أن الحاكم الأسبق لإقليم سيوستان قد استولى على القلعة التى كانت فى أيدى المسلمين وطردهم منها، فأجل محمد بن القاسم عبور النهر واستولى على القلعة وعين عليها واليا ونوابا أقوياء، ثم تحرك بجيشة إلى منطقة جهم- تقع أمام مدينة روهرى- الواقعة بجوار نهر السند، ومرة أخرى تعطله الاضطرابات والفتن ضد العرب فى سيوستان، وواجه جيش ابن القاسم صعوبات كبيرة منها نفاذ المؤن الغذائية وإصابة الخيول بالمرض فضلا عن صعوبة المناخ وحرارته الشديدة مما أدى إلى إصابة كثير من أفراد الجيش العربى بأمراض نفسية، غير أن الإيمان القوى كان هو الحافز أمام الجيش العربى بالمثابرة، وعرض الملك داهر الصلح وتقديم المساعدة الغذائية للعرب فى لهجة تتسم بالتهديد والوعيد، ولكن محمد بن القاسم كرر قولته المشهورة:" لن أترك أرض السند قبل أن أرسل رأس داهر إلى الحجاج بالعراق".

شجع الحجاج ابن أخيه محمد بن القاسم بتعيينه نائبا عنه فى بلاد السند، وحذره من الصلح محفزا إياه على القضاء على داهر مهما كلفه الأمر، وأن عبور نهر السند يكون - حسب دراسة الحجاج للخريطة كما سبقت الإشارة - عند منطقة بت حيث يقل الماء فيسهل العبور، وكان داهر متغافلا عن تحركات العرب، وفى تخطيط عسكرى دقيق سار محمد ابن القاسم إلى الشاطئ وبنى جسرا لعبور قواته حيث اندفعت هذه القوات فى بسالة داخل بلاد السند وكان النصر لهم، واقترب الجيش العربى من العاصمة السندية، وفشلت جهود الملك داهر وجيوشه فى مواجهة الجيش العربى رغم قيادته بنفسه لهذه الجيوش، وفى 9 رمضان سنة 93 هـ بدأت المعركة،وعلم الملك داهر أهمية الفيلة وخطورتها على العرب فأمر بهجوم شامل وعنيف من الفيلة والفرسان على العرب الذين

اضطربوا، لكنهم سرعان ما سيطروا على المعركة حين ناداهم محمد بن القاسم يحثهم على الجهاد والصبر، فقاموا بحملة شديدة على جيش السند.

خرج الطرفان للقتال فى 10 رمضان سنة 93 هـ وبلغ جيش السند نحو مائة وخمسة وعشرين ألفا، وفى المواجهة كان القائد العربى الشاب محمد بن القاسم الثقفى على رأس جيش قوامه نحو خمسة عشر ألفا فقط، وحث القائد العربى جيشه على الجهاد فى سبيل الله وتحمل الشدائد، وكان الجيش العربى على مستوى عال من التدريب والكفاءة القتالية والإعداد الجيد، وفى أثناء القتال توجهت جماعة من قواد السند وجنودهم نحو القائد محمد بن القاسم فأعطاهم الأمان وأعلنوا إسلامهم لديه، وكانت هذه أول مجموعة كبيرة من أتباع الديانة البرهمية من قواد الملك داهر وجنوده تدخل الإسلام برغبتها فى أيام الفتوحات.

ونظرا لأن القوتين لم تكونا متكافئتين فإن حملة الجيش السندى قد اشتدت على المسلمين فى محاولة مستميتة لدرجة أن محمد بن القاسم قد اضطرب من هول المعركة، لكنه تماسك وأطلق صيحة قوية مليئة بالإيمان بالله، وشجع جنوده على استمرار القتال والثبات، وانتهت هذه المعركة المصيرية الدامية فى المساء بانتصار المسلمين(6).،وكان داهر قد قتل فقطع الجنود المسلمون رأسه وأتوا بها إلى محمد بن القاسم، وكتب محمد بن القاسم إلى الحجاج والى العراق يخبره عن قتل داهر، وبعث بها إليه، وأمر الحجاج القائد الشاب محمد بن القاسم بفتح بقية بلاد السند، الذى قام بالفعل بفتح راور وهرهمناباد، وبهرور، ودهليلة، ثم فتح برهمناباد– برهمن آباد– والأخير إقليم كبير من أقاليم بلاد السند الأربعة – وأمر جيشه باحترام البراهمة– رجال الدين البرهمى– وسمح لهم بإقامة شعائرهم الخاصة بهم، وقام بتنظيم أمور هذه المدينة الحصينة "برهمناباد"، وكتب رسالة إلى الحجاج بهذه الإنجازات.

وكانت الخطوة التالية هى إخضاعه لقبائل الزط، والسمة، والسهتة فى إقليم برهمناباد- حيث كانت هذه القبائل تعيش على السلب والنهب، وقد حذرهم محمد بن القاسم بالعقاب الشديد إذا مارسوا هذه الأعمال ووضع قيودا على تصرفاتهم وتحركاتهم وأخذ منهم عهودا لاستقرار الأمن والطمأنينة فى البعد وبذلك قبل الزط طاعة المسلمين، والواقع أن محمد بن القاسم قد أثر فى هذه القبائل تأثيرا بالغا بإدماجهم فى المسلمين وحتى من لم يدخل الإسلام منهم فقد تحسنت عاداتهم وتهذب سلوكهم إلى حد بعيد،وأعاد ابن القاسم تنظيم أمور هذه القبائل والأقاليم التى يسكنون فيها وتعيين حكام جدد لهذه الأقاليم لأسباب سياسية واجتماعية منها تأكيد سيطرته على البلاد، والتعامل مع المتمردين بإسكانهم مناطق بعيدة.

بعد أن انتهى محمد بن القاسم من فتح برهمناباد وتنظيم أمورها الاقتصادية والدينية والاجتماعية، وإخضاع القبائل المختلفة فى مناطق خصون عسكرية لها أهميتها الاستراتيجية، غير أن فتح هاتين المدينتين لابد أن يسبقهما فتح مدينة منها، ومدينة هراور- وهما مدينتان صغيرتان تقعان بالقرب من كل من أرور والملتان- وفضلا عن ذلك هناك مدينتان أخريان هما بسمد وساوندرى.

ويذكر البلاذرى أن محمد بن القاسم قام بفتحهما، وهما بالقرب من أرور.

وفى أوائل سنة 94هـ حاصر محمد بن القاسم مدينة أرور (الور) العاصمة لمدة شهر وكان حاكمها الأمير قوفى بن داهر- الذى قتل أبوه وأرسلت رأسه إلى الحجاج- وقد هرب ليلا مع أسرته إلى مدينة جيبور الواقعة على الحدود الهندية، وانشغل محمد بن القاسم فترة من الوقت بتنظيم أمور مدينة أرور وبنى بها مسجدا كبيرا ووضع الخراج على سكان

المدينة ونصح بتعاون العرب من أهل السند لنشر الأمن حيث اعتنق الكثير من سكانها الإسلام.

توجه محمد بن القاسم لفتح مدينة باتيه (بابيه) والتى تقع على الشاطئ الجنوبى لنهر بياس، وقد عرض عليه حاكمها الطاعة لابن القاسم الذى قبل ذلك منه وعينه مستشارا سياسيا له وفوض إليه الأمور المالية، وكان هذا الحاكم- الأمير ككسه- خير معين لمحمد بن القاسم فى غزواته التالية، وبعد ذلك فتح محمد بن القاسم مدينة اسكلنده بعد معركة مع سكانها وولى عتبة سلمة التميمى حاكما عليها، ثم توجه نحو قلعة سكة الحصينة- وهى منطقة عسكرية قريبة من مدينة الملتان- ووقعت حرب دامية مع سكانها استشهد فيها نحو ثلاثمائة جندى من أهل الشام نظرا لأن القلعة كانت محصنة ومنيعة، فلما استولى عليها محمد بن القاسم أمر بهدمها(7). ثم زحف القائد العربى إلى مدينة الملتان المعروفة ففتحها ونواحيها بإقليم البنجاب حيث قتل نحو ستة آلاف جندى ملتانى ووقع الكثيرون فى الأسر فاستسلم سكان المدينة(8). وقد سميت الملتان بمرج بيت الذهب نظرا لما غنمه المسلمون من غنائم كثيرة من الذهب من معبدها الذى استأثر باهتمام الجغرافيين والمؤرخين العرب من النواحى السياسية والمذهبية والاقتصادية، ويذكر البلاذرى وابن الأثير أن أهل بلاد السند كانوا يحجون إليه ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده(9). وقام محمد ابن القاسم بتنظيم الأمور المالية والعسكرية والمذهبية فى الملتان وأخذ المواثيق والعهود من أعيان المدينة بالطاعة والتعاون المشترك مع العرب لرفاهية الشعب، وفى الوقت الذى تفرغ فيه من أمور الملتان، وكاد ينتهى من فتح النواحى النائية لبلاد السند والملتان وصله خبر وفاة الحجاج فى سنة 95 هـ وتأثر بشدة،وبعد أن كانت وجهته التالية هى بلاد كشمير التى كانت تحمى أمراء السند وتمدهم بالقوة العسكرية ضد العرب، فقد قرر العودة إلى أرور

لمتابعة الأحداث السياسية الجديدة فى دار الخلافة، غير أنه وجه جيشا إلى مدينة البيلمان- مدينة صغيرة بجوار مدينة الور الكبيرة - فأخضعها، كما أخضع مدينة سرست - بجوار الور أيضا- والتى كانت مقراً لقبائل الميد المعروفين بقطع الطرق والنهب فى البحر وايذاء المسافرين، وبذلك تم تأمين السفن التجارية المارة بهذه النواحى- مثل ميناء الديبل- فى طريقها من بلاد العرب إلى بلاد السند.

قام محمد بن القاسم- رغم وفاة الحجاج- بمواصلة جهوده فى فتح بقية بلاد السند، ومنها الكيرج- إقليم يقع على حدود السند- ثم توجه إلى حدود بلاد كشمير وتوغل فيها عازما على فتح إقليم قنوج المهم فى موقعه على الحدود والتابع سياسيا للهند، وقد وصل فعلا إلى مشارف هذا الإقليم، غير أنه لم يتمكن من فتحه- وهو آخر جزء من بلاد السند- حيث وصلت إليه الأوامر من الخليفة سليمان بن عبد الملك بالعزل وإلقاء القبض عليه وإرساله إلى العراق، ويعزى المؤرخون سبب ذلك إلى الكراهية التى حملها سليمان بن عبد الملك ضد أفراد أسرة الحجاج وأقربائه، لأن الحجاج تمكن من الحصول على موافقة الولاة والحكام على خلع سليمان، ولولا وفاة الحجاج لكان مجرى الأحداث قد تغير، وهو ما جعل سليمان بن عبد الملك يذيق أسرة الحجاج ألوانا من العذاب حتى قتل الكثيرين منهم ومنهم محمد ابن القاسم نفسه.

وقد بكت شعوب شبه القارة الهندية محمد بن القاسم تقديرا لبطولاته وأقاموا له تمثالا رائعا فى مدينة الكيرج،وبمقتله توقف الزحف المقدس، وفقد العالم الإسلامى قائدا مسلما شجاعا، عظيما استطاع أن يفتح بلاد السند كلها فى أقل من ثلاث سنوات وترك بصماته البيضاء عليها متمثلة فى المساجد الكبيرة فى المدن الإسلامية، ولا تزال الملايين من مسلمى شبه القارة الهندية يتذكرون اسم هذا البطل.

مراجع الفصل الرابع من الباب الثانى

(1) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 530- 534.

(2) راجع : البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 531- 533.

- تاريخ ابن خلدون، الجزء الثانى ص 41- 43، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 271- 273، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع ص 21- 27.

(3) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 532- 537.

(4) دكتور عبد الله مبشر الطرزى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية مرجع سابق ص 164- 166. نقلا عن: مولانا أبو ظفر ندوى الهندى، تاريخ سنة (باللغة الأردية) 1947، رجموار فان مولائى السندى، تاريخ تمد سند(تاريخ حضارة بلاد السند). حيدر آباد، السند، باكستان 1959م، ولا يذكر البلاذرى سنوات الحملة وإن كان تسلسل أحداثة يتفق والمصادر الباكستانية، ويذكر ابن الأثير السنة التى قتل فيها داهر وهى سنة 89هـ، ويستنتج الطرازى من ذلك أن محمدا بن القاسم وصل مكران سنة 88هـ وإن هذا ليس بصحيح،أما الطبرى فيجعل مقتل داهر سنة90 هـ ثم يذكر فى حوادث سنة94هـ بأن محمدا بن القاسم فتح أرض السند، ثم يذكر فى حوادث سنة 95 هـ بأنه فتح أخر الهند مدينة الكيرج ومعنى ذلك-كما يضيف الطرازى-أن الطبرى جعل وصول ابن القاسم سنة 89هـ.

(5) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ص 180 نقلا عن جرنانه ص 157 بالفارسية وقد ألفة عالم عربى باللغة العربية بعنوان " منهاج الدين والملك" أواخر العصر الأموى، بلاد السند ، عنوان النسخة العربية الأصلية مفقودة، وتعتبر النسخة الفارسية المترجمة. ومن الملاحظ أن الطرازى قد اعتمد بصفة أساسية على هذه النسخة فى مؤلفه القيم المشار إليه (الباحث).

(6) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ص 534- 537

- ابن الأثير ،الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع،حوادث سنة 89 هـ
- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 275- 278.

(7) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 536- 539.

(8) المرجع نفسه ص 538.

(9) المرجع نفسة ص 538، وراجع ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع حوادث سنة 89 هـ، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 59- 61

الفصل الخامس

بلاد السند بعد محمد بن القاسم

- اضطراب الأحوال السياسية.

اضطراب الأحوال السياسية:

مات الحجاج بن يوسف الثقفى فى سنة 95 هـ (714م) وهو لم يبلغ من العمر أربعة وخمسين عاما، وكانت مدة ولايته على العراق والولايات الشرقية للخلافة الأموية عشرين عاما، منذ عهد الخليفة عبد الملك بن مروان إلى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى مات سنة 96 هـ (715م) بعد ستة أشهر من وفاة الحجاج، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك فى السنة ذاتها بعد أن كاد يحرم من حقه فى الخلافه بسبب رغبة الخليفة السابق الوليد بن عبد الملك تحويل الحكم إلى ابنه، غير أنه بوفاة الحجاج والخليفة الوليد لم يتم التتويج رسميا لابن الخليفة السابق، وتولى الخلافة سليمان ابن عبد الملك باعتباره ولى العهد الشرعى. وقد انعكست هذه الأحداث على بلاد السند والبنجاب منذ خلافة سليمان بن عبد الملك حتى خلافة مروان ابن محمد بن مروان الأموى 96- 132هـ وذلك حسب التسلسل الآتى:

أولا: طوال عشر سنوات ابتداء من عهد الخليفة سليمان إلى عهد الخليفة هشام، اضطربت الأحوال السياسية فى بلاد السند، وتدهورت أوضاعها وخاصة بعد انتهاء حكم محمد بن القاسم مباشرة، حيث قامت الفتن والثورات ضد العرب، ولم يقم معظم ولاة العرب ببلاد السند بأعمال تذكر وخرجت مناطق عديدة من أيدى العرب بسبب الاضطرابات السياسية فى الدولة الأموية وما عكسته من خلافات قبلية وعصبية بين العرب أنفسهم فى بلاد السند.

تولى يزيد السكسكى سنة 96 هـ حكم بلاد السند والعمل الوحيد الذى قام به هو القبض على محمد بن القاسم الذى سلم نفسه بلاد مقاومة إطاعة لأوامر الخليفة،و بوفاة السكسكى، تولى حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الذى واصل سياسة محمد بن القاسم بمحاربة أهل مدينة الور العاصمة وهزمهم وأخضع مناطق أخرى، ولم يمهله الوقت لغزو برهمناباد حيث عزله

الخليفة عمر بن عبد العزيز(99-101 هـ) [1] بتهمة الاشتراك فى المؤامرة مع أخيه ضد الخلافة فى سنة 99 هـ، حين كانت الخلافات القبلية السياسية بين العرب قد انعكست نتائجها على أحداث بلاد السند والعرب المقيمين بها.

ثانيا: استطاع عمرو بن مسلم الباهلى الذى حكم بلاد السند سنة 99 هـ - فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز- أن يسيطر على بلاد السند، ويقضى على الفتن الباقية، كما غزا بعض المناطق مثل كش "كجة" وأخضعها للحكم العربى، وقد بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز سنة 100 هـ برسائل رقيقة إلى أمراء السند وقوادها يدعوهم إلى الإسلام وأن يبقوا فى مراكزهم الحكومية ولهم مثل ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، وقد أثرت السيرة الحسنة للخليفة على أمراء السند وزعمائها فاعتنق كثير منهم الإسلام ومنهم الأمير جيسبه بن داهر الذى حكم إقليم برهمناباد ثلاثة سنوات، وقبل آخرون دفع الجزية والخراج مع البقاء على دينهم، وهكذا قلت الفتن والاضطرابات السياسية فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فلما تولى الخلافة يزيد الثانى (101- 105 هـ) حدثت فى عهده موجات عنيفة من الفتن واستطاع حبيب بن المهلب أن يهرب من السجن- وكان متهما بالتآمر على الخلافة كما سبقت الإشارة- واستولى على الولايات الشرقية التابعة للدولة الأموية، كما غزا جيشة مكران، ومدينة قندابيل، لكنه قتل مع أخيه يزيد فى حربه ضد الخليفة فى البصرة.

ثالثا: عين الخليفة يزيد الثانى بن عبد الملك الأموى (101-105 هـ) هلال بن أحوز التميمى على بلاد السند، واستمر هلال مدة خمس سنوات حارب فيها من تبقى من آل المهلب لخطورتهم على الدولة الأموية، واستطاع أن ينشر الاستقرار حتى عزله الخليفة هشام بن عبد الملك (105- 125هـ) الذى تمكن بحزمه من القضاء على الفتن السياسية والخلافات القبلية، وانعكس ذلك على استمرار الفتوحات فى المناطق الجديدة فى الشرق.

اختار الخليفة هشام بن عبد الملك قائدا عظيما لحكم بلاد السند هو الجنيد بن عبد الرحمن المرى (107- 111هـ) وأراد دخول برهمناباد فمنعه الأمير جيسيه من دخولها قائلا[2]: "أنى قد أسلمت وولانى الخليفة الصالح- عمر بن عبد العزيز- بلادى، ولست آتيك"، فغضب الجنيد ولكنه حاول حل هذه المشكلة بالوسائل السلمية،وأخذ رهنا من جيسيه الذى تعهد بدفع ما على ولايته من الخراج والجزية وراقب الجنيد تحركات جيسيه الذى لن يكن بدوره غافلا عنه. وتشير المصادر[3] إلى حدوث معركة بين جيشى الجنيد وجيسيه حيث انهزم جيش جبسيه أمام جيش المسلمين، ويركز البلاذرى[4] على ارتداد جيسبه عن الإسلام ورجوعه الكفر مما أغضب الجنيد الذى قتله ، فى حين يرجع أحد المؤرخين[5] المحدثين أن قتل جيسيه كان لأسباب سياسية وليس لأسباب دينية.

قام الجنيد بفتوحات عديدة فى داخل بلاد السند حيث استولى على مدينتى برهمناباد والكيرج، ثم فتح مدينة مريد (ماروار)- وهى جزء من جدهبور- ثم تحرك نحو مدينة المندل (ماندل) وفتحها بسهولة كما فتح مدينة دهنج (دهنج) ثم استولى على مدينة بنجاسر عاصمة الكجرات الشمالية، كما أخضع العديد من مدن السند التى ثارت مثل بهروج (بروص)، وبهدمد، وسرست، والواقع أن فتوحاته كانت ناجحة وسريعة فى الوقت ذاته، وأقام الجنيد فى بلاد السند أربع سنوات استطاع خلالها تنظيم أمورها السياسية والإدارية والاقتصادية، ثم نقله الخليفة هشام بن عبد الملك إلى خراسان بسبب تصاعد نشاط الدعاة العباسيين فى البلاد العربية والولايات الشرقية وخاصة خراسان.

رابعا: من الثابت أن الجنيد قد قام بتثبيت الحكم العربى فى جميع أنحاء بلاد السند،كما أحرز انتصارات كبيرة فى بلاد الهند [6]. فضلا عن أنه تمكن- وهذا هو الأهم- من تدعيم الحكم العربى فى هذه البلاد. ثم تولى حكم

السند تميم بن زيد العتبى وكان من القواد العرب ببلاد السند منذ عهد محمد بن القاسم، غير أنه لم يكن له صفات الحاكم السياسى ولذلك فشل فى السياسة الداخلية والخارجية عسكريا وسياسيا بل أنه أضاع جهود الجنيد، واشتدت الخلافات بين القادة العرب الذين كانوا يرون أنهم أحق من تميم بالولاية، وكان تميم يحرض القادة ضد بعضهم البعض تبعا لقبائله ويؤيد قبيلة اليمانية ضد قبيلة النزارية لأن والى العراق خالد بن عبد الله القسرى كان زعيم اليمانية وانتهز أهل السند فرصة ضعف الوالى وشدة الخلافات القبلية بين العرب فأثاروا الفتن والاضطرابات فى مناطق كثيرة، ولما ساءت الأحوال السياسية قرر والى العراق تعيين الحكم بن عوانة الكلبى حاكما على السند، وكان الحكم من أحسن القواد الشباب الذين كانوا فى معية محمد بن القاسم أيام الفتوحات الإسلامية ببلاد السند.

وفى العراق كان واليها خالد بن عبد الله القسرى من زعماء اليمانية، وبالمثل كان الحكم بن عوانة الكلبى، واستمرت الفوضى والاضطرابات والفتن التى تركها تميم بين العرب وأهل السند فكان لابد من القضاء عليها ولم يجد الحكم بن عوانة الكلبى أفضل من عمرو بن محمد بن القاسم الثقفى لتعيينه نائبا له رغم صغر سنة، وذلك لإيمانه بالمثل العربى:" الولد سر لأبيه"، وفرض إليه الأمور الإدارية والأعمال المهمة، وبذلك استطاع أن يرضى النزارية بحيث أصبح الوالى يمانيا ونائبه حجازيا.

كان أهل السند قد استولوا على بعض المناطق الهامة وكانوا يضايقون العرب فى كل جهة، فشيد الحكم مدينة عظيمة على الجانب الشرقى لنهر السند كى يقيم العرب فيها أسماها "المحفوظة" وبنى فيها مسجدا كبيرا واتخذها عاصمة للحكومة العربية وبلاد السند بدلا من برهمناباد التى كان معظم سكانها من البرهميين والقلة من البوذيين والعرب.

كما اهتم بالجيش بقيادة عمرو بن محمد بن القاسم الذى أعاد المدن السندية التى خرجت من الحكم العربى.

بقى الحكم بن عوانة يحكم السند أكثر من ثمانى سنوات حتى قتل خالد بن عبد الله القسرى والى العراق بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك سنة 120 هـ مما أثار كراهية اليمنية، وقد أعتبر المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة الأموية، حيث قام اليمانيون بالثورة فى دمشق وفلسطين، وأضعفت العصبية القبلية بنى أمية وأذنت بزوال سلطانهم، وانتهز بعض زعماء أهل السند فرصة وجود الاضطرابات فى العالم العربى وقاموا بالفتن السياسية المعادية للعرب ببلاد السند، الأمر الذى جعل الحكم بن عوانة يخرج بنفسه للقضاء على الفتن الجديدة ويتوغل فى بلاد السند مثل القيقان وقندابيل والمناطق المجاورة لحدود بلاد الهند حتى استشهد سنة 121 هـ فى إحدى معاركها.

خامسا: تنازع كل من عمرو بن محمد بن القاسم من الحجازيين ويزيد ابن عوار الكلبى من اليمانيين على حكم بلاد السند لكن الخليفة أمر بتولية عمرو الى حبس يزيد خشية قيامه بالفتن والاضطرابات، وقام ببناء مدينة أخرى للعرب على جانبى البحيرة الواقعة فى شرق نهر السند واتخذها مركزا للحكومة العربية بسبب موقعها الجغرافى ولقربها من مدينة المحفوظة، وسماها المنصورة(7) وبنى فيها مسجدا عظيما.

غير أن أهل السند قاموا بالزحف على المنصورة وأغاروا عليها، واضطروا والى العراق لإرسال جيش إلى عمرو مما جعل أهل السند ينصرفون عن هذه الغارات، واستلزم ذلك تكوين جيش مركزى قوى تمكن من إخماد فتن أهل السند وإعادة الهيبة العربية إلى بلاد السند، وظل عمرو بن محمد بن القاسم يحكم بلاد السند خمس سنوات حتى تولى الخلافة الوليد

بن يزيد بن عبد الملك الذى عزل عمرو عن ولاية السند وعين مكانه خصمه اللدود يزيد بن عوار، فانتحر عمرو فى سنة 125 هـ

عادت القوة إلى اليمانية بتولي يزيد بن عوار الكلبى بلاد السند، بالإضافة إلى تولى منصور بن جمهور الكلبى ولاية العراق، غير أن الفتن تجمعت ضد الخليفة مروان بن محمد بن مروان الأموى (125- 132هـ) وهو آخر[8] خلفاء بنى أمية، وفى بلاد السند حدث صراع على السلطة بين كل من منصور بن جمهور الكلبى الثائر- الذى حكم فى الفترة 129-132 هـ وبين يزيد بن عوار الكلبى، وانتصر المنصور على منافسه وأخضع بلاد السند ثم انشغل بتنظيم الأمور فيها ورغم كونه تأثرا على الدولة الأموية نفسها إلا أنه يعتبر آخر أموى يحكم بلاد السند حتى قتل سنة 134 هـ على يد موسى بن كعب التميمى أول وال عباسى على بلاد السند[9].

مراجع الفصل الخامس من الباب الثانى

(1) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 539- 541.

- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ، الجزء الرابع، حوادث سنة 95 هـ.
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 66.

(2) نقلا عن البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 540- 542.

(3) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع، حوادث سنة 107هـ.

- البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 540- 542.
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 64- 66.

(4) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث، ص 540- 541.

(5) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ص 233- 234.

(6) نفس المرجع السابق، نقلا عن مجلة قسم الآداب، جامعة كلكتا، الهند، المجلد العاشر ص 20- وما بعدها، يكاد لا يكون هناك شك أن الجنيد- كما يذكر المؤرخ الهندى ما جمدار قد هزم ملوك سانيد اهافاس وملوك كاجهيلاس، وملوك سوراشترا، وملوك جانوتا كلاس، وملوك موررياس، وملوك جورا جاراس.

(7) تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 388- 391.

(8) تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 164- 166.

(9) تاريخ اليعقوبى، الجزء الثالث ص 4- 7.



الفصل الأول: أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها.

الفصل الثاني: الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية.

الفصل الثالث: من عصر الانحلال إلى بروز الولايات الإسلامية الانفصالية الاستقلالية.

الفصل الرابع: عصر الانحلال الثانى وتعاظم دور الفرق الإسلامية.

الفصل الخامس: سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة.

الفصل السادس: الغزو الصليبى.

الفصل الأول
أسس الدولة الجديدة وفتوحاتهـــا

❁ الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الإسلامية .

❁ الفتوحات الإسلامية .

❁ الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية:

1. أبو العباس السفاح 132- 136هـ
2. أبو جعفر المنصور 136- 158 هـ
3. المهدى بن المنصور 158- 168هـ
4. من الهادى بن المهدى إلى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) 170- 193 هـ
5. شئون بلاد السند.

الدولة الجديدة والعلاقات السياسة الإسلامية:

سبقت الإشارة إلى أن الأمويين كونوا دولتهم أساسا على العنصر العربى مما أثار غيرة وحسد الشعوب الإسلامية الأخرى حيث الموالى وهم المسلمون من غير العرب كالفرس والترك وأهل السند قد كرهوا الحكم الأموى خاصة وأنهم اعتقدوا- أى الموالى- أن اعتناقهم الإسلام سوف يريحهم من دفع الجزية ونظر الأمويون لهم- من ناحية أخرى- على أنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا لمصالحهم الشخصية وليس لمبادئ الإسلام القويمة، وكان لهذه العصبية الأموية انعكاساتها فى مساهمة الموالى فى حركات التمرد والعصيان والثورات ضد الحكم الأموى، فانضموا إلى الخوارج وثورة عبد الرحمن بن الأشعث على الخليفة عبد الملك بن مروان.

من ناحية أخرى بدأت العصبية القبلية تنفث سمومها فى العالم الإسلامى بعد خلافة عمر بن عبد العزيز وخاصة فى عهد فتنة أسرة المهلب ابن أبى صفرة ضد الحكم الأموى،فأمر يزيد بقتل أفراد هذه الأسرة رغم خدمتها الطويلة للأمويين ضد الخوارج، وتصاعدت هذه العصبية فى عهد الوليد بن يزيد وجعلته يقتل نفسه، وكان تشجيع الخلفاء الأمويين لقبيلة ضد أخرى سببا آخر أثر بظلاله على الموالى، وقد شجع سلوك الخلفاء الأمويين وتعصبهم للعرب أن نشط دعاة الخلافة العباسية متبعين أسلوب السرية ثم ضم الفئات الساخطة على العصبية القبلية حيث كان حب أهل خراسان وبلاد فارس لآل البيت وأن الحق ينبغى أن يعود لأصحابه، وانضم الأعاجم إلى صفوف هذه الفئات الساخطة،وكان هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن الأسباب السابقة وهو ملاحظة الأمويين للدعاة العباسيين ومن أشهرهم عامل خراسان أسد بن عبد الله القسرى الذى تولى أمر خراسان مرتين الأولى (106- 109 هـ) والمرة الثانية (117- 120 هـ)، وتذكر المصادر أنه

كان مثالا لليقظة والحزم[1]، كما أن هؤلاء الدعاة للعباسيين لم يردعهم تنكيل أو تعذيب الأمويين بل شجعهم ذلك على دعوتهم[2].

انعكست العوامل السابقة على نشأة وتطور الدولة العباسية حتى أن فريقا من المؤرخين العرب المحدثين يرون أن دولة بنى أمية هى الدولة العربية الخالصة، فى حين جاءت الدولة العباسية لتصبح عربية الشكل، لكنها فى حقيقتها أعجمية، وأن تفوق العنصر الأعجمى على العنصر العربى - كيفا وكما- ساهم فى ضعف شأن العرب، فالتمايز العربى فى عصر بنى أمية ظهر واضح المعالم، فالولاية للعربى، والقضاء للعربى، والأرض للعربى، ورغم المبالغة فى تصور التمايز العربى فى عصر الدولة الأموية على هذا النحو إلا أن بعض الحقيقة تكمن فى هذه الآراء حيث كان العنصر العربى والأعجمى هما عماد الدولة، ولم يتمكن العنصر الأعجمى فى الدولة العباسية الجديدة من القضاء على النفوذ العربى تماما.

وسوف نستعرض آراء فريق من مؤرخى المسلمين قديمهم وحديثهم بهذا الشأن: يقول الجاحظ[3] :" أن بنى العباس أعجمية خراسانية ودولة بنى مروان أموية عربية"، ويصف المسعودى[4] قيام الدولة العباسية وسقوط الدولة الأموية قائلا: "سقطت قيادات العرب وزالت رياستها". ويستطرد المسعودى قائلا: "إن المنصور هو أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه، وصرفهم فى مهماته، وقدمهم على العرب، فأمتثلت الخلفاء ذلك من بعده"، وقد كان من نتائج هذا التقلص لنفوذ العرب وبروز السلطان الأعجمى، أن دخلت النظم الأعجمية من فارسية وغير فارسية فى الدولة الجديدة، ومن أبرز هذه النظم تلك الفزعة الكسروية الساسانية الاستبدادية، فبعدت الشقة بين الدولة والقبيلة والبادية العربية بعدا شاسعا.

أما الدكتور عبد العزيز الدورى[5]. فيرى تطرف الآراء السابقة، وأن الخلفاء العباسيين كانوا عربا هاشميين- لنسبهم إلى الأب- وكانوا يعتــزون بنسبهم، ومع أنهم قربوا الفرس، إلا أنهم سيطروا عليهم، ونكلوا بهــم حــين شعروا بتعاظم قوتهم، كما فعل أبو العباس بالخلال، والمنصور بأبى مــسلم، والرشيد بالبرامكة، والمأمون بالفضل بن سهل، صحيح أن بعض أصــحاب المناصب الكبيرة كالوزارة قد أنيطت إلى الفرس، لكن عددا كبيرا من الولاة والقواد كانوا عربا، ويؤيد الدكتور محمد أسعد طلس[6] هذه الآراء ويــضيف قائلا:" إن أصحاب تلك النظرية قالوا: أن السلطان العربى قد اضــمحل، وأن الدولة قد اصطبغت بصبغة أعجمية بعد أن كانت عربية خالصة، وقد اختص آل العباس الأعاجم بصورة عامة، والخراسانيين بصورة خاصة، أما العرب فقد فقدوا كثيرا من امتيازاتهم التى كانت لهم فى العصر الأموى، سواء أكان ذلك فى الوظائف الكبرى، أو فى الإقطاعيات التى يأخذ منها، أو فى النفــوذ بصورة عامة.

غير أن هذا التمايز فى تكوين عناصر الدولة العباسية لم يكــن بــين الفرس والعرب فقط وإنما اشتمل الترك أيضا، ويذكر أحمد أمين[7] أن الفرس لم يهدأوا وهم يرون الترك يحتلون مراكز مرموقة فى الدولة الفارسية، ولما كان الخليفة العباسى يعتمد على العنصر الفارسى فى تصريف شئون الدولة، فإن الفرس بالتالى قد احتفظوا للخليفة بمظهر الأبهة، لكنهم علــى الجانــب الآخر أخذوا ينشرون سلطانهم، مما جعل الخلفاء العباسيين يستبدون بهم، كما فعل الرشيد بالبرامكة، والمأمون بابن سهل،وكان الترك سرعان ما يستردون نفوذهم، فينكمش الفرس على حنق، وهذه الحلقة من فقدان النفوذ واســترداده يتبعها تدبير المؤامرات والدسائس والفتن على نحــو مــا ســترد الإشــارة إليه تفصيلا.

ألبست الدولة العباسية الجديدة دعوتها لباسا دينيا، حيث ادعى أصحاب الدعوة أنهم قاموا بدعوتهم اتباعا لكتاب الله وإحقاقا لحق آل بيت رسول الله ﷺ، وتحكيما لسنته وإرجاعا لنظم الخلافة كما أرادها الرسول الكريم بدل الملك العضوض. غير أن الدولة العباسية – على حد قول ابن الطقطقى فى الفخرى– قد ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون رهبة أو رغبة، والذى حدث بالفعل أن العباسيين قد سلكوا نظام الوراثة فى الخلافة فقد أصبحت ولاية العهد ووراثة الحكم أمورا تقليدية، لكن الجديد هو ما استأثرت به الشورى والأعراف القبلية من رعاية– نظريا على الأقل– أما من الناحية التطبيقية والواقعية فلم يكن للشورى، أو الأعراف والتقاليد القبلية مكانا فى اختيار ولى عهد الخليفة، ويلاحظ المؤرخون تولية العديد من الأطفال فى الخلافة، فضلا عن العديد من غير المؤهلين للقيام بأعباء الخلافة الذين تولوها، وفى مجال الدراسة المقارنة مع الدولة الأموية، فإن الأمويين بالرغم من نزعتهم الاستبدادية لم يتمكنوا من تجاوز التقاليد العربية، وحافظوا على حركة القبيلة، ومنزلة رئيسها، ومكانته الاجتماعية، واحترام الأنساب، فى حين احتلت التقاليد الفارسية والأعجمية مكانتها عند الولة العباسية، واعتمد الخلفاء على الفرس والموالى وقربوهم منهم، وتمكن الموالى أن ينفذوا إلى قلوب الخلفاء ويسيطروا على مرافق الدولة ومؤسساتها، بل أن العهد الجديد قد استقى العديد من النظم الإدارية الأعجمية والكسروية حيث بالغوا فى الاعتماد على غير العرب وخاصة أهل خراسان فى الجيش، وأصبح العربى كالغريب، كما جعلوا فرقا من الجنود المرتزقة التى اعتمدوا عليها وأغدقوهم بالرواتب الكبيرة.

وأدى أبناء البلاد المفتوحة من روم، وفـرس، وسـريان، وأقبـاط، وأنباط دوار كبيرا فى الثقافة الإسلامية التى أثريت فى العـصرين العباسـى الأول والثانى، كما خلقوا بيئة اجتماعية بأفكارها، وآدابها، وأخلاقها المستمدة من الحضارات القديمة العريقة من فارسية ورومية وهندية، فاختفت أو كادت تلك الروح القبلية التى سادت العصر الأموى وحلت محلهـا روح التعـصب القومى، وقد سبقت الإشارة إلى انقسام العرب فى العصر الأموى إلى قـيس، ويمن، أو قحطانية وعدنانية، أما الدولة العباسية الناشئة فقد سادت فيها أفكار اجتماعية غريبة عن البيئة العربية مثـل الزندقـة، والإلحـاد، والمانويـة، والمزدكية، والخرمية. وكان طبيعيا أن يتطاول الأعـاجم والمـوالى علـى العرب ويطمسوا كثيرا من معالم الفضل العربى عليهم.

وكانت العراق مراكـز لهـذه الأفكـار،ومن الثابـت أن العـراق، والكوفة قد اجتمعت فيهما كثير من الثقافات القديمة،وكان طبيعيا أن تنبع فى هذه البيئة جماعات لها أفكار مغايرة تماما عن الأفكار العربية مثـل فكـرة التناسخ،وفكرة الحلول، وفكرة الحق الإلهى،وفـى خراسـان تلاقـت شـتى الثقافات والأفكار والآراء، وكان فيها كثير ممن أسـلم رغبـة فـى منفعـة أو رهبة من بطش،وقلبه مملوء كرها للعرب والإسلام، وكان الاعتماد علـى الموالى دافعا لتقوية النزعات القومية، فأخذ العرب مع ما هـم عليـه مـن حزازات قديمة يتحزبون على الأعاجم، ويرجعون إلى تقاليدهم الجاهلية التى جاربها الإسلام، وأخذ الفرس والموالى يتكتلون ضد العرب،وأخذت بـوادر النزعات القومية، والإقليمية تبرز فى الأقاليم المفتوحة فى خراسان، والجزر، وبلاد الشرق، وأخذ المتطلعون إلى السلطة من أبناء فارس والديلم، والأتراك يفكرون فى الانسلاخ من جسد الدولة العربية، ويعملـون علـى الاسـتقلال الذاتى، وهذا يرجع- كما سبقت الإشارة- إلى أن الدواوين والدولـة يتبـوأ مراكزها العالية الموالى أنفسهم، وقد ساعد على ذلك نقل عاصـمة الدولـة

من الشام إلى العراق فانتقلت الأنشطة الفكرية والسياسية إلى المشرق، وشادت الثقافات الشرقية، والسريانية، والنبطية، والهندية، والرومية في الدولة الجديدة، وضعف نفوذ الدولة المركزية في ولاياتها ومنها جنوب الجزيرة العربية.

الفتوحات الإسلامية:

سبقت الإشارة إلى استمرار الدعوة السرية للقضاء على الأمويين منذ مطلع القرن الثاني الهجري وحتى سنة 125 هـ، وقد استعمل دعاة الدولة الجديدة جميع الأساليب لتحقيق أهدافهم، وقد فطن الأمويون لذلك وأخذوا يلاحقون هؤلاء الدعاة، ثم انتقلت حركة الدعوة من السرية إلى الجهر بها من جانب إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس سنة 126 هـ، بعد وفاة والده، وفي العالم التالي تولى أبو مسلم الخراساني مسئولية إنجاح ثورة العباسيين وجمع حوله كل المؤيدين لهم وخاصة الساخطون والحاقدون على الدولة الأموية.

سار أبو مسلم إلى خراسان في سنة 128 هـ فلبس السواد الذى اتخذه العباسيون شعارا، وأحس الخليفة الأموى مروان بن محمد بخطورة الموقف، فكتب إلى أميره على خراسان (نصر بن سيار) أن يحسم الأمر بشدة، وأمر الخليفة الأموى عاملة بالبلقاء أن يهاجم الحميمة،ويأسر إبراهيم بن محمد، ويرسل به إليه، ثم بعث في سنة 131هـ من جاءه بإبراهيم بن العباس، الذى أدرك أن مروان لابد وأن يقتله، فأوصى بالأمر من بعده إلى أخيه أبى العباس عبد الله (السفاح)، وطلب إليه أن يترك الشام ويفر بأهله إلى الكوفة حيث شيعتهم، فسار أبو العباس حتى دخلها سرا ومكث حوالى الشهرين متخفيا عن الخليفة الأموى الذى قتل أخاه.

لما علم أبو مسلم الخراسانى بوصولهما إلى الكوفة، قدم إليهما، وعزاهما بوفاة أخيهما، وبايع أخاه أبو العباس، وعاد إلى خراسان بعد أن أوصاه أبو العباس ألا يدع فى خراسان عربيا لا يدخل تحت أمره ألا ضرب عنقه، وتذكر المصادر خطبة لها دلالتها فى العلاقات السياسية الإسلامية حيث انتقلت بؤرة الاهتمام إلى الكوفة وذلك حينما قام عم أبى العباس السفاح وهو داود بن على الذى كان من أفصح بنى العباس قائلا:" يا أهل إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا، حتى أتاح الله لنا شيعتنا من أهل خراسان، فأحيا بهم حقنا.... وأظهر بهم دولتنا.... وأدالكم على أهل الشام، ونقل إليكم السلطان وغير الإسلام..." ويستدل الباحثون من هذه الخطبة الأسس التى اعتمد عليها العباسيون فى تكوين دولتهم.

لما تمت البيعة للخليفة الجديد، رأى أن أول ما يجب عليه هو تكملة فتح ما بقى من أجزاء العراق والاستيلاء على الشام، والقضاء على مروان بن محمد الذى أفزعته قوة أعدائه العباسيين، فجمع جيشا كبيرا يقدر عدده بمائة ألف، وتلاقى مع جيش العباسيين البالغ أربعين ألفا بقيادة أبو مسلم الخراسانى على نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة 132 هـ وعلى الرغم من ضخامة جيش الأمويين، إلا أنهم هزموا، بسبب ما بثه العباسيون من دعاية حول الانتصارات التى أحرزوها فى خراسان والشام التى حاصرها واضطر أميرها الوليد بن معاون أن يستسلم فدخلها جيش العباسيين وفتك بالأمويين، وهرب مروان بن محمد إلى مصر حيث قتل هناك، وبقتله انتهت دولة بنى أمية فى الشرق، وتوطدت أركان الدولة العباسية.

وفيما يتعلق بتصفية الحسابات بين الخليفة العباسى الجديد ومنافسيه وأهمهم أبو سلمة الذى كان قد أخفى لديه أبو جعفر وأبو العباس – فقد اضطربت المصادر فى ذكر من حرض على قتله فيما بعد، أهو الخليفة أو أبو مسلم– فإن هذه النقطة لا تدخل فى مجال هذه الدراسة التى تتركز

أصلا على تطور العلاقات السياسية الإسلامية، وكان أبو سلمة بمثابة كابوس ثقيل وخطر على الخليفة الجديد الذى يريد فرض إرادته وجده فى أرجاء المملكة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها. وقد كتب الجغرافى الموثوق المعاصر لذلك العهد وهو الشيخ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المقدسى المعروف بالبشارى المتوفى سنة 375 هـ فى كتابة "أحسن التقاسيم فى معركة الأقاليم"، كتب أن المملكة الإسلامية فى ذلك العهد قد امتدت طولا من أقصى الشرق عند مدينة كاشفر، إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات، وأنها تمتد عرضا من شواطئ بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة، وبلغ طول هذه المملكة ألف وستمائة فرسخ[8]. وقد انقسمت المملكة الإسلامية الجديدة إلى أربعة عشر إقليما كالأتى:

أولا: إقليم جزيرة العرب، واشتمل على الحجاز، وقصبته مكة المكرمة ومن مدنة طيبة وينبع والجار وجدة والطائف، ثم اليمن وهو قسمان، فما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة، وما كان ناحية الجبل فهو نجد ثم بلاد عمان وقصبتها صحار ثم بلاد هجر وقصبتها مدينة الإحساء(البحرين).

وأهل هذا القسم لغتهم عربية، تتكلم اللسان العربى، إلا صحار فإن سكانها يتكلمون الفارسية.

أما القسم الثانى فهو العراق الذى شمل الكوفة والبصرة وواسط والمدائن وحلوان وسامرا، وشعوب هذا الإقليم نبطيون، دخله العرب، فزاحموا أهله، وصارت كأنها لهم، وأصبحت لغتهم العربية، وأصبح لهجاتهم الكوفية لقربها من البادية، وبعدها عن النبط، وأما سكان البطائح فنبط، والذين نزلوا بهذا القسم من الإقليم من العرب أكثر من الذين منهم بأى قطر آخر، ما عدا الشام والجزيرة، وقد كان بهذه الأقاليم ملوك المناذرة بالعراق، وملوك الغساسنة بالشام، ولم يكونوا مستقلين، فلما جاء الإسلام اتسق لهم الملك بالإقليمين، وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية.

أما القسم الثالث فهو أقليم آقور وسمى بالإقليم الجزيرة، لأنه يقع ما بين نهر دجلة والفرات وشمل ديار ربيعة وقصبتها الموصل، وديار مضر، وديار بكر،وقد نزل العرب هذه الديار قبل الإسلام، وسكنها قبائل من العدنانيين سميت بهم، ولذلك يعتبر هذا الإقليم عربيا محضا، وينتهى إلى حدود الروم وأرمينية، ومناخه مقارب للشام، ومشابه للعراق.

وقد شمل القسم الرابع أقليم الشام وبه قنسرين وقصبتها حلب وحمص وقصبتها دمشق والأردن وقصبتهما طبرية وفلسطين وقصبتهما الرملة والشراة.

وقد شمل القسمان الخامس والسادس مصر والمغرب[9] أما أقليم المشرق فيقع فى آسيا وهو قسمان، ما وراء النهر وهو شرقى نهر جيحون ويسمى جيعطل وغربى نهر جيحون ويسمى بلاد خراسان[10]. وقد شمل إقليم الديلم العديد من المدن العامة وشمل إقليم الرحاب الراق وأرمينية وأذربيجان وشمل إقليم الجبال الرى وهمذان وأصفهان، وشمال خورستان الذى يعرف بالأهواز العديد من المدن، فى حين شمل إقليما فارس وكرهان إحدى عشر مدينة هامة والأخير يشبه ما قبله- أى إقليم فارس- وأخيرا إقليم السند الذى شمل خمس مدن، وهذه الأقاليم كلها كونت مملكة إسلامية مترامية الأطراف متعددة الشعوب والموارد الاقتصادية واللغات، ولم تكن إدارتها سهلة، غير أن خلفاء العصر العباسى الأول سيطروا عليها جميعا،وهو ما يستدعى وقفة للتفسير بالنسبة لأوضاع بلاد السند.

أصبح أبو مسلم الخراسانى- مع قيام الدولة العباسية فى نهاية سنة 132 هـ كما سيأتى ذكر ذلك تفصيلا- واليا على خراسان وحاكما عاما فى الولايات الشرقية للخلافة العباسية بما فيها بلاد السند، قد أرسل جيشا بقيادة فعلس بن السرى العبدى إلى بلاد السند لإقامة حكومة عباسية هناك.

وقد سبقت الإشارة أن منصور بن جمهور الكلبى الثائر كان لا يزال يحكم بلاد السند، وسار فعلس العبدى عن طريق طخارستان حتى وصل مدينة الديبل واشتبك في قتال عنيف مع حاكمها منظور شقيق منصور الكلبى، وقتل منظور فى المعركة، وتقدم فعلس العبدى نحو مدينة الجيش لمحاربة فعلس، فخرج من المنصورة ووقع قتال شديد بين الطرفين وانهزم الجيش العباسى، ووقع فعلس ومن معه من كبار القواد فى الأسر حيث قتله المنصور على الفور.

الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية :

سوف نستعرض إنجازات الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول، وبصفة خاصة مواقفهم من الأخطار التى هددت الدولة الإسلامية من الفتن والثورات والحروب التى خاضتها وعلاقاتها الخارجية.

1- أبو العباس السفاح (132- 136):

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، اتخذ مدينة الأنبار عاصمة له كأول خليفة عباسى، أسس دولته على الحزم والقوة، وخطب يوم اعتلائه للخلافة منددا بالأمويين لاغتصابهم الخلافة، ومدح أهل الكوفة لإخلاصهم، وولائهم ولقب بالسفاح بالرغم من أن أحدا من المؤرخين[11] القدامى الموثوق بهم لم يذكره بهذا اللقب باستثناء المسعودى الذى نقل عنه المؤرخون المحدثون هذا اللقب، وفى عهده ابتدئ بتنظيم الدولة الجديدة، فتوطد الأمن فى أنحائها كافة، وتم استيزار أبو سلمة الخلال ولقبه بوزير آل محمد، ولم تكن لفظة" الوزارة" قد استقر عليها بعد لأنها أمر جديد لم تعرفه النظم الإسلامية سلفا[12]. وكانت هذه أول مرة يذكر فيها هذا المنصب بشكل رسمى فى العهد العباسى، ويظهر أن أهل خراسان أخذوا ذلك المنصب من تنظيماتهم الفارسية الساسانية.

وقد سبقت الإشارة أن الشدة التى اتبعها السفاح لم تشمل بنى أمية فقط، بل امتدت لتشمل وزيره أبا سلمة لاتهامه بالميل إلى العلويين، ويعزى استقرار بناء الدولة العباسية إلى أبى الخراسانى فى الشرق، وأبى جعفر المنصور بالعراق وعبد الله بن على بالشام ومصر [13] ومن إصلاحاته الأولى أنه مسح المسافة بين الكوفة ومكة وأقام[14] علامات عند كل ميل ليهتدى بها المسافرون وفيما يتعلق ببلاد السند، فقد تلقى رسالة من أبى مسلم الخراسانى حاكم خراسان والولايات الشرقية بمقبل قائد حملته فعلس العبدى على بلاد السند، وأستأذن أبو مسلم الخراسانى الخليفة فى اختيار موسى بن كعب التميمى قائدا على جيش كبير وتعيينه واليا على بلاد السند.

توجه موسى بن كعب التميمى إلى مدينة قندابيل بعد أن جمع المعلومات عن أحوال السند، ونجح فى جلب اهتمام كبار القواد وزعماء قبائل السند فى المنصورة- العاصمة العربية هناك- وتأييدهم له وأقنعهم بعدم جدوى المقاومة للخليفة العباس وجيوشة الجرارة.

تحرك موسى بن كعب التميمى نحو المنصورة بعد عبوره نهر السند وخرج فى مواجهته منصور بن جمهور بجيشه، واشتبك الجيشان حيث انهزم جيش موسى، وقتل موسى، ودخل موسى بن كعب مدينة المنصورة وأسس حكومة عباسية جديدة، وقام باصلاحات كثيرة فيها، كما وسع مسجدها الذى كان قد بناه عمرو بن محمد بن القاسم، ونظم الأمور الإدارية والسياسية فى جميع أنحاء بلاد السند فأخذ البيعة والطاعة من حكام المدن والمناطق عربا وعجما للخلافة العباسية.

2- أبو جعفر المنصور (136- 158هـ) (754- 775م):

هو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، ولد بالحميمة سنة 101 هـ، كان الساعد الأيمن لأخيه السفاح الذى ولاه إمرة الجزيرة وأرمينية واذربيجان، فوطد أركان الدولة الجديدة فى عهده، وكان عليه أن

يسد ثلاث ثغرات، الأولى احتدام المنافسة مع عمه عبد الله بن على الذى كان نفوذه قويا فى خراسان والشام والجزيرة والموصل، وكان طامعا فى الخلافة، والثانية درء الخطر الذى أخذ يتعاظم من أبى مسلم الخراسانى، أما الثغرة الثالثة فقد تمثلت فى الطامحين من آل على بن أبى طالب، الذين لا تزال قلوب الناس معهم،وكان رأس العلويين محمد بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بذى النفس الذكية.

كلف المنصور أبا مسلم الخراسانى أن يقضى على عبد الله، ورغم رغبة أبى مسلم فى التخلص من هذه المهمة، إلا أن المنصور أصر على ذلك فاضطر أبو مسلم لمواجهة عبد الله فى حرب دامت نصف سنة، وكانت المعركة الفاصلة سنة 137 هـ، وهرب عبد الله، والتجأ إلى أخيه سليمان أمير البصرة، فأمنه على نفسه، وسعى لدى المنصور ليعفو عنه، فوافق على سجنه، وظل مسجونا حتى مات سنة 147هـ.

أما ابو مسلم الخراسانى فلم يكن المنصور راضيا عنه سواء قبل توليه الخلافة أو بعدها حيث لاحظ تعاظم نفوذه واستبداده بالناس، ومما زاد العلاقات سوءاً بين أبى مسلم والمنصور، أما الأول بعد انتصاره على عبد الله ابن على- كما سبقت الإشارة- فقد أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم من هذا التصرف قائلا: "كيف أؤتمن على الأرواح خائن فى الأموال(15)."، وتأزمت الأمور أكثر عندما عين الخليفة أبا مسلم على مصر والشام، فرفض أبو مسلم وأصر على بقائه فى خراسان، رأى المنصور فى أبى مسلم خصما عنيدا وخاصة عندما أرسل إليه يطلب منه مرافقته إلى المدائن فلم يستجب له قائلا:" أنه لم يبق لأمير المؤمنين عدوا إلا مكنه منه... وقد تروى عن ملوك آل ساسان أنه أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء، فنحن نافرون من قربك، حيث تقارنها السلامة، فإن أرضاك ذلك فإننا كأحسن عبيدك، وأن أبيت إلا أن

تعطى نفسه ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى عن مقامات الذل والإهانة..." وقد رأى المنصور استخدام أسلوب الدهاء مع أبى مسلم فكتب إليه قائلا:" قد فهمت كتابك، وليست صنعتك أولئك الوزراء الغششة إلى ملوكهم يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم،.... فلم سويت نفسك بهم، فإنه فى طاعتك وبناصتحك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به،... وأسال الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فإنه لم يجد بابا يفسد به نيتك أقرب وأوكد من طبه من الباب الذى فتحه عليك...".

وقد أمر الخليفة رسوله الذى أرسل إليه خطابه أن يحدثه باللين، وأن يمنيه، فإذا أبى فليهدده، فلما وصل رسول الخليفة إليه أخذ أبو مسلم الرسالة وقرأها واستشار خاصته فنهوه عن السفر إلى المنصور، فلما هدده رسول الخليفة أضطرب أبو مسلم وأدرك أنه مغلوب على أمره لا سيما بعد أن تمت تولية أبى داود- نائب أبى مسلم- على خراسان طيلة عمره على أن يقطع صلته بأبى مسلم، فلما قصد أبو مسلم المدائن، ودخل على الخليفة الذى كان قد أمر أن يجىء أربعة من رجاله ويخبئهم وراء السرادق، ثم سأله عن سبب رغبته فى البقاء فى خراسان فأجاب أبو مسلم:" دع هذا فما أصبحت أخاف أحدا إلا الله" فلما سمع المنصور كلماته هذه صفق، فخرج الشرطة فقتلوه.

أما موقفه من العلويين، فقد رأى المنصور أن محمدا وأخاه أحفاد على ابن أبى طالب كانا يهددان كيان دولته فأخذ يعمل على العثور عليهما وقتلهما، وألقى القبض على والدهما،و على أهله، وزج بهم فى السجن، ثم نقلهم إلى العراق،وأمر بتعذيبهم فمات أكثرهم فى السجن، وأخذ يهدد محمدا ذى النفس الذكية وبعث إليه بجيش، وانتهت المعركة بقتله[16]. سنة 145 هـ واستسلم جميع العلويين بعد ذلك، ورفعت الأعلام السوداء فى كل مكان، وثار أخوه إبراهيم بن عبد الله فى البصرة مؤيدا من جمع غفير من أهل

خراسان، وخاف المنصور مغبة حركته، فأرسل إليه جيشا من الحجاز، وكان إبراهيم مسيطرا على فارس، والأهواز، والتقى الجيشان بجوار الكوفة فهزم إبراهيم وقتل.

وبموت محمد وإبراهيم حفيدا الحسين بن على بن أبى طالب، فقد تخلص المنصور من خصومه الألداء جميعا وخطب أمام شيعة خراسان قائلا:" يا أهل خراسان أنتم شعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتى من ولد على بن أبى طالب تركناهم، والذى لا إله إلا هو، والخلافة لم تعرض لهم فيها بقليل أو كثير فقام على، وتلطخ، وحكم عليه الحكمين، فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم قام من بعده الحسن فوالله ما كان فيها برجل، ثم عرضت عليه الأموال فقبلها، ثم قام من بعده الحسين فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا، فصرنا تارة بالطائف وتارة بالشام، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا، فأحيا شرفنا، وعزنا بكم، أهل خراسان، ودفع بحكم أهل الباطل، وأظهر حقنا، فلما استقرت الأمور فينا، وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا، وبغيا لما فضلنا الله به عليهم، وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه، جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن".

ويكاد المؤرخون يجمعون أن المنصور هو المؤسس الحقيقى للدولة العباسية وشمولها لإقاليم شاسعة انضوت تحت لواء الإسلام، وهو الذى قضى على الفتن التى اشتعلت فى أماكن متعددة وهددت قواعد المملكة وهو الذى أسس عاصمة جديدة للدولة ونظم الجيش وأدار علاقاتها السياسية الخارجية على النحو الآتى:

الجيش ودوره الإسلامى:

إهتم المنصور بتقوية الجيش اهتماما كبيرا، وكان للجيش دوره فى توجيه الدولة والقضاء على روح التمرد والزندقة والفرق التى أرادت هدم الإسلام والقضاء على كيان العرب وتقليص مجدهم ومن هذه الحركات الهدامة حركة (بها فريد) المتنبيء الفارسى الذى قام فى عهد أبى العباس بثورة عقلية فى نيسابور رغم أنها تكملة لرسالة "زرادشت" فاستجاب له كثير من السكان وبخاصة الذين من أصل مجوسى، ومن تلك الحركات الهدامة "حركة الخرمية" وهى طائفة أرجعت مبادئ "دينها" إلى مذهب مزدك الإباحى وتفرعت عن هذه الحركة فرقة الخداشية والزرامية، كما ظهرت حركة "الراوندية" بالقرب من أصبهان، وقد اتخذت مبدأ تقديس الملوك إلى درجة الآلهة" وأن أبا جعفر المنصور هو إلهنا" وأن الألوهية انتقلت إليه، وحلت فيه، وأن روح الله كانت فى عيسى عليه السلام ما تزال تنتقل منذ أن حلت فى على، حتى حلت بإبراهيم بن محمد،ووصلت إلى المنصور، وهناك حركة المقنع الخراسانى الذى أتخذ لوجهه قناعا من ذهب أو من حرير أخضر وادعى الألوهية وأسقط الصلاة والصوم والزكاة والحج عن أتباعه وأباح أموال الآخرين ونكاح نسائهم، وهناك الكثير من الحركات الإلحادية[17] التى ضيق عليها جميعا الخليفة المنصور من خلال ما قام به الجيش الذى تكون من فريقين، الفريق الأول هو جيش الخراسانيين ومن إليهم من الأعاجم، والفريق الثانى هو جيش العرب، وكان الخليفة يوازن بين الفريقين، وكان من أشهر قادة الجيش أبو مسلم الخراسانى، وعمرو بن العلاء، والمسيب بن زهير الضبى، والحسن بن قحطبة الطائى، ويزيد بن حاتم، ويذكر الطبرى أن المنصور كان يتفقد جيشه بين وقت وآخر ويصلح ما يكون قد فسد من شئونه ويعتنى بقادته وتنظيمه وتقويته حيث دوره فى القضاء على الفتن الداخلية والحركات الهدامة فضلا عن دوره الخارجى.

فقد كانت الأمبراطورية العربية العباسية متاخمة للبيزنطيين، وكانت بزور النزاع بينهما قائمة منذ الدولة الأموية، وورث العباسيون هذه العداوة، كما ورثوا تقليدا أمويا هو إرسال الجيوش لغزو بلاد الروم كل صيف وشتاء، وكانت آسيا الصغرى هى مجال تلك الحروب، وقد تم تجديد هذا التقليد فـى عهد المنصور بعد أن صمم على توسع الدولة الإسلامية فغزت جيوش المسلمين جيوش الروم سنة 138 هـ، وتعددت الحروب بين الروم والمسلمين ، ونظرا لأن بغداد عاصمة الدولة العباسية كانت أبعد من دمشق عاصمة الدولة الأموية، فقد اكتفى العباسيون بإرسال الصوائف والشواتى، غير أن المنصور جهز جيشا إسلاميا من الخراسانيين والعرب لمواجهة مناوشات البيزنطيين بتحصين حدوده من جهتهم، ويذكر البلاذرى[18] أن المنصور أمر فى سنة 139 هـ بتجميع الصناع المهرة فى كافة الدولة لتحصين الثغور، وبنى للجنود قلاعا، و بنى مدينة الرافقة على الفرات سنة 155 هـ استمرارا لتحصين حدوده حيث جعلها على نمط مدينة بغداد وأكثر فيها من السلاح والذخيرة لتكون مقر حركاته فى حروبه مع الروم، ثم اتجه إلى حدوده المتاخمة لبلاد الخزر، فقواها، وجدد بناء مدينة كمخ، والمحمدية، وباب واق[19].

وهكذا أخذت الدولة العباسية شكلها من خلال خلافة أبى جعفر المنصور الذى كان أقوى الخلفاء العباسيين وأطولهم حكما بحيث ظل يحكم 22 عاما، على نهج يختلف عن النهج السياسى فى الدولة الأموية حيث خفت فى عهده الخلافات القبلية بين العرب عامة، وكان لسياسته أثر طيب على بلاد السند أيضا حيث بدأت العلاقات العلمية بين العرب والسند واستفاد العرب من علوم أهل السند، كما أفادوهم بالعلوم المختلفة.

وفيما يتعلق بالأحوال السياسية فى بلاد السند فى فترة خلافة أبى جعفر المنصور، فحينما علم باشتعال الفتنة القبلية هناك قام بعزل عيينه بن موسى بن كعب التميمى، وجهز جيشا بقيادة عمر بن حفص ووجهه إلى بلاد السند للاستيلاء على الحكم فيها[20]، وانضم أغلبية القادة من السند إليه لتضايقهم من سياسة عيينة وخاصة مع اليمانية من ناحية ومعاداته للخليفة من ناحية أخرى، واضطر عيينة إلى الصلح مع عمر بن حفص الذى أعطاه الأمان، ولخوفه من عقاب الخليفة فر هاربا نحو سجستان حيث قتلته جماعة من اليمانية وحملوا رأسه إلى الخليفة المنصور فى سنة 142 هـ ولم تقم فى فترة حكم عمر بن حفص- التى استمرت نحو تسع سنوات- خلافات قبلية من جانب العرب، ولا اضطرابات سياسية من جانب أهل السند حتى عزله الخليفة فى سنة 151 هـ لتأييده للعلويين وحركة الشيعة السياسية فى بلاد السند[21].

تولى الحكم فى السند هشام بن عمر التغلبى (151- 157 هـ) وكان هدف الخليفة من توليته القضاء على زعيم الشيعة السياسية هناك- عبد الله الأشتر ومحاربة ملك السند الذى أيد الشيعة السياسية، وقد نفذ هشام أوامر الخليفة حيث استولى على مملكة الملك السندى وقتل عبد الله الأشتر، كما قام بحملات على بعض المناطق الشرقية، وقضى على الفتنة فيها، ثم توجه نحو المناطق الغربية وقضى على العرب المتغلبة من الأمويين بمدينة الديبل وما حولها، وفتح منطقة قندهار" كندهاوة" وبعض مناطق كشمير غير أنه لم يوفق فى السيطرة الكاملة على بلاد كشمير وبلاد الهند. واتسم عهده بالاستقرار والطمأنينة حتى فوضه الخليفة المنصور فى إدارة أمور منطقة كرمان الواقعة فى إيران، واستطاع أن يحكم بلاد السند الواسعة مشرفا على حكومة العرب فى الملتان. وشجع إقامة علاقات علمية بين العرب والسند وخاصة فى بغداد والبلاد العربية والإسلامية الأخرى.

وبوفاته فى سنة 157 هـ ولى الخليفة المنصور على تلك البلاد معبد ابن الخليل التميمى (157- 159 هـ) الذى حكم السند بحزم وأقام بمدينة المنصورة وشهد وفاة الخليفة المنصور وتعيين ابنه المهدى سنة 158 هـ.

3- المهدى بن المنصور (158- 168هـ) (775- 785م):

هو محمد بن عبد الله المنصور، ولد بالحميمة سنة 126 هـ، وكان قد تولى قيادة الجيش إلى خراسان سنة 141 هـ للقضاء على بعض الفتن هناك، فلما وفق فى القضاء على الفتنة غزا طبرستان، وفى سنة 147هـ كان أبوه قد بعثه إلى الرى ليتمرس على الحكم ، ولما تولى الخلافة سنة 158 هـ فقد فضل تغيير سياسة العنف التى كان يسلكها أبوه، لأن أركان الدولة كانت قد توطدت، وخفت شوكة الثوار والمتمردين الحراسانيين، ثم اجتذب رعيته بالعديد من الإصلاحات الاجتماعية والإدارية والمائية فاستقرت الأوضاع الاجتماعية، غير أنه استمر فى ملاحظة الزنادقة والملاحدة وفتك بهم ويذكر الطبرى أن الخليفة جدد فى سنة 168هـ، فى طلب الزنادقة والبحث عنهم وقتلهم وكان أكثرهم من المانوية، والأباحيين، والملاحدة، والديصانية ، و المرقونية، وحفلت المكتبة الإسلامية فى عهده بأمهات الكتب الفكرية التى ترد على هذه الحركات الهدامة.

وفيما يتعلق بعلاقاته الخارجية فالملاحظ أن علاقته بالدولة الرومية كانت سيئة، وقد عمل على التوغل فى بلاد البيزنطيين، وأرسل (الصوائف) و (الشواتى) كل عام للجهاد والغزو، وبعث بابنه هارون سنة 163 هـ فغزا بلاد الروم وتوغل حتى بلغ تخوم القسطنطينية والبوسفور، واضطرت الإمبراطورية لمصالحته وعقدت هدنة لمدة ثلاث سنوات معه، وكان المهدى قد حاول فى سنة 159هـ فتح الهند، فبعث عبد الملك بن شهاب المسمعى بجيش من البصرة فى البحر، قوامه نحو عشرة آلاف رجل، فقدموا مدينة (باريد)- بهار بهوت- على الساحل الهندى.

وقع قتال شديد بين العرب المسلمين وبين أهل الهند الكفار، وكان الانتصار للمسلمين الذين تقدموا وحاصروا المدينة وفتحوها بعد أن استشهد[22] 29 شخصا من العرب. ويبدو أن أ حد أسباب حملة المهدى ابن منصور على ذلك الجزء من بلاد الهند هو أن أهل إقليم كجرات كانوا قد بدأوا مرة أخرى فى مضايقة التجار العرب وأسرهم نتيجة للاضطرابات السياسية التى لم تهدأ فى هذه المناطق الشاسعة وما عكسته أحداث الصراع على السلطة بين ملوكها المحليين[23] على الجاليات العربية التى وقعت لها أضرار كثيرة، ولذلك وجه الخليفة المهدى بن منصور فرقة بحرية إلى هناك لمساعدة المسلمين وفتح هذه المنطقة.

مات أكثر من ألف جندى عربى[24] بسبب انتشار الأمراض الوبائية المسمومة والمعروفة فى شبه القارة الهندية، مما جعل الرعب يستولى على قلوب العرب بسبب ذلك الوباء فتوجهوا بسفنهم إلى بلاد فارس، ولسوء حظهم، عندما اقتربت من ميناء خليج العرب اشتدت الرياح وغرق معظم الجنود ونجا القليل ووصلوا بصعوبة إلى العراق وكان بين الناجين قائد الحملة عبد الملك بن شهاب المسمعى الذى تعين فيما بعد واليا على بلاد السند، وبعد ذلك لم يفكر الخليفة المهدى فى إرسال حملة أخرى إلى بلاد السند، وقد أدى هذا الانفصال بين الخلافة العباسية وبلاد السند إلى بدء عهد من الفوضى وعدم الاستقرار السياسى فى هذه البلاد حيث تعاقب على حكمها أحد عشر واليا، وأحيانا كان يصل عدد الولاة إلى ثلاثة فى السنة الواحدة وذلك لضعفهم وكثرة الفتن فى البلاد فضلا عن الخلافات القبلية بين العرب ويمكن تفسير تسلسل هذه الأحداث على النحو الآتى:

أولا: أمر الخليفة المهدى بتعيين روح بن حاتم لحكم بلاد السند سنة 159هـ غير أنه لم يتمكن من تنظيم الأمور بسبب قيام قوم الزط الغلاظ بالفتن فى الأجزاء الغربية من البلاد، فعزله الخليفة- رغم كونه من أسرة

قيادية معروفة- وعين أخاه يزيد بن عمرو التغلبى (159- 160هـ)، ولكن الخليفة لم يلبث أن عزله لأسباب سياسية رغم أنه تمكن من القضاء على الفتن والاضطرابات القائمة فى البلاد من طرف قبائل الزط وكان ناجحا فى إدارة شئون الدولة، ولا تفسر المصادر التاريخية[25] السبب الحقيقى لعزلة.

ثانيا: أمر الخليفة المهدى بعودة روح بن حاتم مرة ثانية إلى ولاية بلاد السند فى سنة 161هـ، غير أنه لم ينجح فى هذه المرة أيضا فى تدبير الحكم أو القضاء على فتن الزط التى تجددت بسبب ضعف شخصية الوالى ثم تولى حكم بلاد السند نصر بن محمد بن الأشعث الخزاعى فى السنة ذاتها ولم يستطع هو الآخر القضاء على الاضطرابات الداخلية وفتن الزط حيث كان يساندهم قوى خارجية وتمدهم بالمال والسلاح فى المناطق الغربية القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير. أما الوالى الثالث والرابع فى نفس العام لبلاد السند فكانا محمد بن سليمان الهاشمى وعبد الملك المسمعى،وكان الصراع على السلطة فضلا عن عدم استتباب الأمور فى العراق حيث يخضع له ولاة السند- وراء تعيين وعزل هؤلاء الولاة بهذه السرعة والكثرة فى سنة واحدة.

ثالثا: اختار والى العراق زبير بن عباس ليتولى حكم السند فى سنة 162 هـ وكان ينتمى إلى أسرة سياسية عريقة، لكنه لم يكن راضيا عن توليته هذا المنصب ولم تعجبه بلاد السند وأحوالها، ولذلك لم يهتم بشئونها حتى الغربية القريبة من حدود بلاد الهند وبلاد كشمير، أما الوالى الثالث والرابع هذه الفتن أن تقضى على سلطة العرب فى تلك البلاد حتى تم عزله.

وقع الاختيار على مصبح بن عمرو التغلبى لخبرته الطويلة بشئون بلاد السند حيث كان الشقيق الأصغر لمصبح بن عمرو الغلبى، وفى وقت قصير تمكن من القضاء على مواطن الفتن والاضطرابات عند قوم الزط، غير أن الفتن اشتعلت مرة أخرى - ليس من جانب الزط وأهل السند - وإنما

من جانب العرب بسبب تجدد الخلافات القبلية واحتدام الخصام والحروب الأهلية بين قبائل النزارية واليمانية ولم يتمكن مصبح بن عمرو بفض هذه المنازعات والقيام بالتالى بواجباته الإدارية فاستقال أو عزل[26].

رابعا: للمرة الثالثة يتولى مضر بن محمد بن الأشعث الجزاعى حكم بلاد السند (162- 164هـ) ولا تذكر المصادر التاريخية فترته هذه إلا بإشارات سريعة وغامضة، وبالرغم من توليته للمرة الثالثة إلا أنه فشل فى القضاء على الخلافات القبلية بين العرب فى الوقت الذى تصاعدت فيه أيضا حدة الاضطرابات الوطنية لأهل السند، وبوفاته تولى الشقيق الرابع لهشام بن عمر التغلبى حكم بلاد السند وكان يقيم فيها منذ مدة طويلة ويبدو أن حكمه كان لفترة وجيزة لحين وصول الوالى الجديد وهو الليث ابن طريف.

وكان الليث رجلا سياسيا لبقا وقائدا عسكريا موهوبا، وفور وصوله بدأ بدراسة الأحوال السياسية والاجتماعية ووضع خطة لإصلاح أوضاع بلاد السند ونجح فى ذلك إلى حد كبير. وكان أول شىء فعله هو استقطابه زعماء القبائل العربية إلى جانبه، وتمكن بالتالى من تنظيم الأمور الداخلية، غير أن الزط قاموا باضطرابات عنيفة على زعمائهم المفسدين والمشاغبين وعاد الأمن والاستقرار إلى البلاد وتقدمت أحوالها الزراعية والتجارية خلال فترة حكمة التى استمرت نحو ست سنوات[27].

أما الخليفة المهدى بن المنصور فقد أراد فى سنة 168 هـ الخروج بجيش كبير إلى جرجان لقتال المفسدين والمتمردين، فلما وصل إلى " باسيذان" أحس بالمرض يشتد عليه، وتوفى هناك بعد فترة حافلة بالانجازات تجاه الأمة الإسلامية.

4- من الهادى بن المهدى (169- 170 هـ) (775- 776م) إلى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) (170- 193هـ) (786- 808م):

لم يطل عهد الهادى، ومع ذلك فينسب إليه تضييقه على الزنادقة، وسار فى ذلك سيرة أبيه فى الفتك بهم، وتخليص الإسلام من شرورهم وتحريق كتبهم.

وفى عهده خرج الحسين بن على بن الحسن سنة 169هـ من المدينة، وكان والى المدينة عمر بن عبد العزيز بن عمر بن الخطاب، وتذكر المصادر أن سبب خروجه أن والى المدينة عمر، أخذ ينكل بالعلويين ومنهم الحسين ابن محمد النفس الذكية، وزجهم بالسجن، فاعترض الحسين لامتهان كرامة أهله، وقصد مع أتباعه دار الإمارة فى المدينة، غير أن الوالى تحصن بها فكسروا السجن، وأخرجوا من فيه، وبويع الحسين.

غير أن المصادر تتضارب في ذكر ثورة العلويين وهل كانت فى عهد المهدى بن منصور، أم فى عهد خلفه الرشيد بن المهدى (170- 193هـ) (786- 808م)، والأرجح أن هذه التمردات العلوية قد امتدت فى عهد العباسيين من خليفة لآخر، فقد لقوا اضطهادا كبيراً فى عهد السفاح وصولا إلى عهد الرشيد حيث ثار فريق من الشيعة وهزموا فى" فخ" بالقرب من مكة، ونجا من هذه الوقعة يحيى بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن وفر إلى مكة وقد أغضب ذلك الرشيد، وتمكن الطرفان من المصالحة. وقد حاول الرشيد أن يسلك مع مثيرى الفتن سبيل السلم واللين وأن يستميلهم فأمر بإخراجهم من السجون، غير أن هذه السياسة لم تؤت ثمارها المرجوة فثار عليه، ففى سنة 178 هـ خرج الوليد بن طريف أحد الخوارج فى نصيبين من أرض الجزيرة، ففتك بعاملها، وهزم الجيش العباسى، وأخذ سلطانه يتسع حتى بلغ أرمينية وأذربيجان،وأخذ يهدد العراق، فبعث الرشيد إليه جيشا تمكن من القضاء على الفتنة[28].

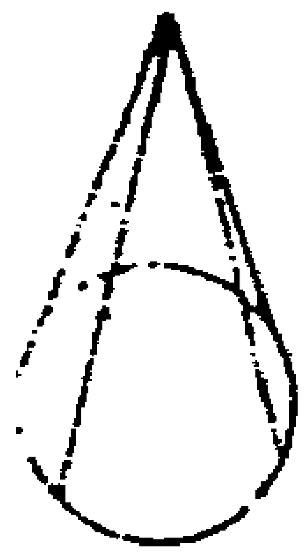
كانت الشام هى الأخرى مسرحا للفتن والتمردات الداخلية بسبب الانقسامات القبلية بين العدنانية والقحطانية. واضطربت الطرق التجارية وفى سنة 176هـ حدثت فتنة بين اليمانية والنزارية زعزعت الاستقرار فى البلاد ولم يستطع عامل الشام موسى بن عيسى إخماد هذه الاضطرابات فأرسل الرشيد جيشا. وتمكن موسى من إعادة الهدوء والصلح بين الطرفين، غير أن الأحداث تصاعدت بين النزارية والقحطانية سنة 180 هـ وبعث الرشيد جعفر بن خالد البرمكى ليقضى على هذه الثورة.

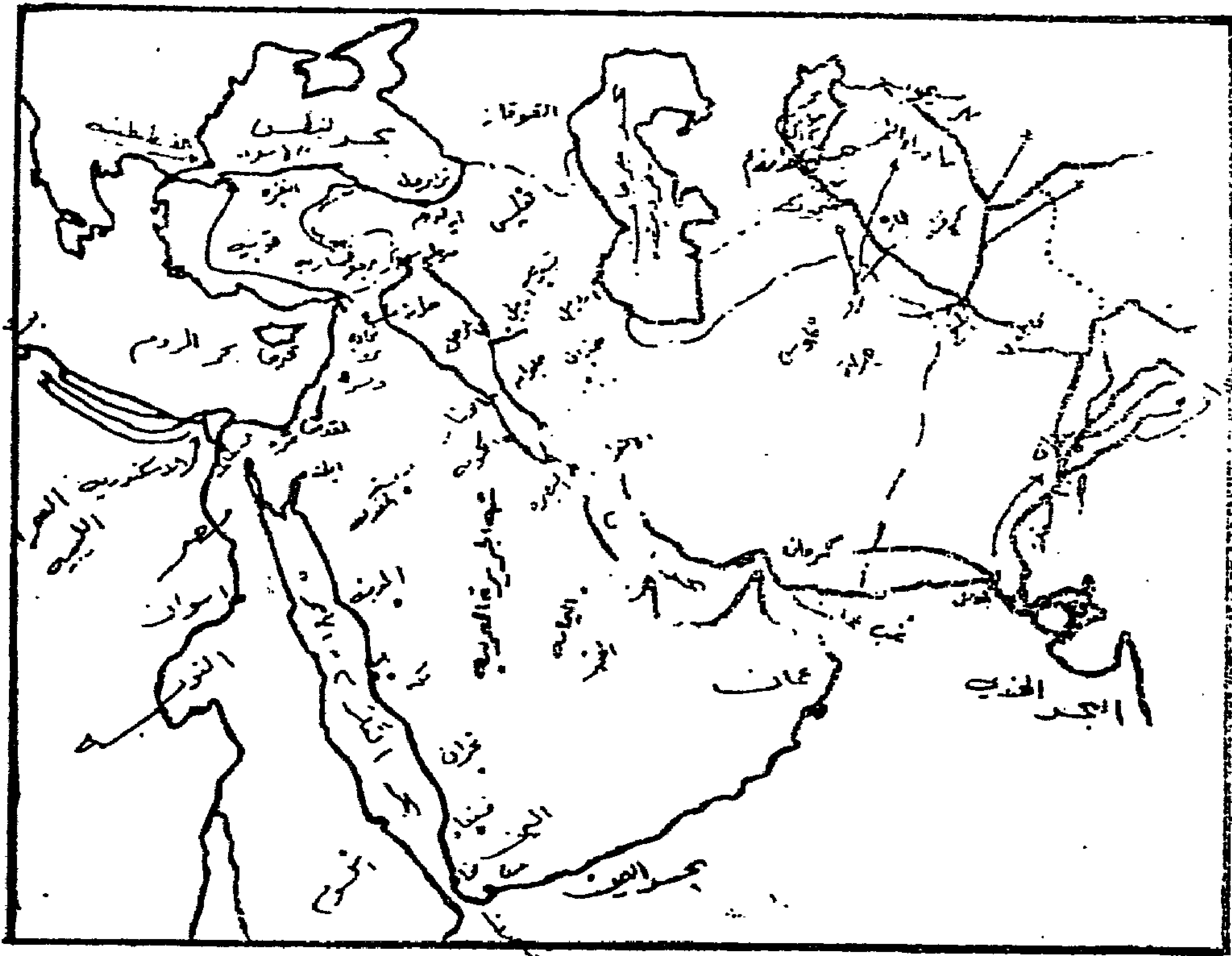
وفى اليمن قامت فتنة قوية ضد الدولة العباسية سنة 179هـ، حيث ثار الناس على واليهم حماد البربرى الذى كان شديد الجور، فقام الرشيد بعزله[29].

واهتم الرشيد اهتماما بالغاً بالثغور الإسلامية المتاخمة للبلاد البيزنطية لنشر النفوذ الإسلامى وتقوية حدوده. ولم تخلو سنة من سنوات حكم هارون الرشيد من غزو أو صحائف أو شات يشنه على الروم البيزنطيين، ومع ذلك فلم تكن لديه- على الأرجح- خطة مرسومة لفتح بلاد الروم لكثرة الفتن والمشكلات الداخلية فى عهده، ويذكر الطبرى وابن الأثير تفصيل هذه الأحداث التى قامت فى الفترة 170- 186 هـ[30]، وفى سنة 181هـ بلغ جيش الرشيد أنقرة، وفتح الرشيد بنفسه حصن الصفصافة، وحصل أول تبادل للأسرى بين الروم والمسلمين، كذلك قبل الرشيد أن يعقد صلحا مع الأمبراطورة رينى فى سنة 183هـ، ويذكر الطبرى أن عيسى بن موسى مات فى أرض الروم بعد أن نجح فى حصار حصنى قرة وسنان وأن خطابا ورد إلى الرشيد مما استفزه وأغضبه، ورد على نقفور إمبراطور الروم ملقبا أياه بكلب الروم، وسار الرشيد بنفسه لقتاله وهزم الجيش الرومى هزيمة منكرة، وقبل نقفور أن يدفع الجزية، وكان تبادل آخر للأسرى فى سنة 189هـ حيث لم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى "الطبرى 10- 97"

ومرة أخرى فقد نقض نقفور العهد مستغلا انشغال الرشيد بحوادث الفتنة فى خراسان، فذهب إليه الرشيد بجيش قوامه 135 ألف ففتح هرقلة وسبى أهلها ووقع فى أيدى المسلمين عدد كبير من الأسرى، فاضطر نقفور أن يعرض الصلح ويدفع الجزية عن رأسه وسار على ذلك أهل بلده. وفى سنة 191 هـ، ولى الرشيد هرثمة على خراسان. ويذكر ابن الأثير أن الرشيد كان قد عزل [31] تقدماً واليها على بن عيسى بن ماهان.

أما علاقات الرشيد الخارجية فقد أحرزت الدولة الإسلامية فى عهده تقدماً لم تشهده من قبل بالعلاقات السياسية الإسلامية مع الفرنجة وإيفاد بعثة من الملك شارلمان- ملك فرنسا- إليه وأهداف الرشيد من ضرورة إقامة علاقات ودية معه مما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة[32]. أما العلاقات التجارية والفكرية مع الهند والصين فى عهد الرشيد، فالملاحظ أنها توطدت أكثر حيث بعث ملك الهند إلى الرشيد بالعديد من الهدايا الرمزية القيمة وكان للبرامكة فضل كبير فى إرساء دعائم العلاقات الفكرية والاقتصادية والسياسية مع الدولة العباسية حيث أطلق الرشيد لهم العنان إلى أن فتك بهم سنة 173هـ وكان الرشيد أول من عهد إلى يحيى بن خالد البرمكى بالوزارة وكان يحيى عالما كاتبا عاملا حازما نهض بأعباء الدولة على خير وجه، واهتم الرشيد بحفظ الأمن فى العاصمة والأقاليم وقام بتنظيم موارد الدولة المالية، وكلف قاضى القضاة الإمام أبو يوسف بمسئولية ترتيب أمر بيت المال، فألف كتابة المشهور "الخراج" الذى يعتبر مصدرا أمينا لدراسة الشئون المالية والحسابية فى هذه الفترة.





الدولة الأموية
في آسيا
(٦٦١ – ٧٥٠م)

مقياس الرسم

إعداد :
شحادة علي الناطور

المصدر : الدكتور احمد قاعود . الدكتور شحادة الناطور . تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولي . مطبعة الخالدي . عمان ١٩٨٢ .

وعموما فقد ازدهرت الدولة الإسلامية عامة، والعراق خاصة في عهد الرشيد في نواحي العلم والفكر والفن ومجالات الحضارة وصارت بغداد قبلة الباحثين عن العلم، وكفى بشرف دولته أن اجتمع ببابه الوزراء، والأمراء، والقواد، والعلماء، والفقهاء، والأدباء، والخطباء، والمحدثين، والشعراء، ما لم يجتمع على باب خليفة غيره، وكان هؤلاء أو معظمهم من الأئمة الذين يرجع إليهم الفضل في تدوين كتب العلم والفن، التي أصبحت مراجع الحضارة العربية الإسلامية، كما ازدهرت في عصره الحركات العقلية الفلسفية، وعلى الصعيد الاجتماعي توافرت لسواد الشعب حياة مقبولة، وهو ما يستدل عليه مما ورد في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، وكتاب ألف ليله وليلة، وكتاب الفهرست لابن النديم، وجمع هارون الرشيد بين العقل والعلم، والسياسة والعناية بشئون الدولة والجهاد في سبيل الإسلام ورفع شأن الخلافة.

شئون بلاد السند:

لم يحدث تغيير سياسي مهم في بلاد السند في عهد الخليفة الهادي بن المهدي، أما في عهد هارون الرشيد فقد انعكست مظاهر الرخاء ونهضة البلاد العربية على الولايات التابعة للخلافة العباسية في المجالات العلمية والسياسية والتجارية. غير أن الخلافات القبلية العربية ظلت مستمرة في بلاد السند رغم الجهود الجبارة التي بذلها الخليفة للقضاء عليها، غير أن وقوع البلاد السندية في أماكن نائية عن مقر الخلافة فضلا عن ضعف الولاة الذين حكموها في الماضي القريب. كل ذلك جعل جهود الخليفة تذهب سدى. وقد شهدت فترة خلافة الرشيد تولية عدد من الحكام على بلاد السند بدءا بسالم التونسي (171- 174هـ) الذي حاول نشر الاستقرار والأمن وجمع شمل القبائل العربية وقد تمكن من الحكم لمدة أربعة سنوات بدون مشكلات سياسية أو اجتماعية. ثم اسحق بن سليمان الهاشمي (174هـ) ولكنه لم يعش كثيرا

ليستفيد أهل السند من خبرته حيث توفى فى نفس عام توليته قام الخليفة بعدها بتولية طيفور بن عبد الله الحميرى (175- 175هـ) ولكونه يمنيا فقد تجددت لاخلافات القبلية بين العرب فور حضوره إلى بلاد السند، ولما اشتدت هذه الخلافات بين اليمانية والنزارية قام الخليفة بعزلة[33].

تولى جابر بن الأشعث الطائر (175- 176هـ) حكم بلاد السند، ولكنه فشل فى إدارة البلاد فتم عزله، ويلاحظ اليعقوبى خلال تلك الفترة انفصال بعض المناطق التى تقع فى الجهة الشرقية لنهر السند عن الحكم العربى مثل برهمنا باد، والور وقيام حكومات محلية سندية بها، ويعزى اليعقوبى ذلك لانشغال العرب بالخصومات القبلية، فى حين كانت المدن والمناطق الواقعة فى الجهة الغربية لنهر السند كلها تقريبا فى أيدى العرب.

أما كثير بن مسلم بن قتيبة (176- 179هـ) فقد تمت توليته من خلال أخيه سعيد بن مسلم بن قتيبة والى العراق، لكنه انشغل بنفسه ولم يعمل لمصلحة بلاد السند اعتمادا على منصب أخيه فعزل وأعقبة محمد ابن عدى التغلبى (179- 181هـ) الذى أثار العصبية القبلية بين العرب وخشى على نفسه من البقاء فى العاصمة المنصورة، وأراد التوجه إلى مدينة الملتان بإقليم البنجاب فمنعه أهلها، واستمرت العصبية القبلية بين اليمانية والنزارية حتى عزله الخليفة هارون الرشيد الذى اختار رجلا اسمه عبد الرحمن (181- 182هـ) وفشل فى القضاء على الخلافات القبلية فتم عزله وأمر الخليفة بتولية أيوب بن جعفر (182- 184هـ) وحاول جهده عقد صلح بين القبائل العربية، غير أنه فشل ووصلت الحروب القبلية بين العرب فى المنصورة عاصمة بلاد السند إلى درجة خطيرة وبحث الخليفة عن شخصية قوية، ووقع اختياره على المغيرة بن يزيد المهلبى (184- 185هـ) غير أن أهل المنصورة سدوا الأبواب فى وجهه ومنعوه من دخول المدينة حيث أنه من اليمانية وسوف تثور العصبية القبلية باضطهاده النزارية وهو ما

حدث بالفعل، حيث كتب إلى أخيه داود بن يزيد المهلبى الذى دخل مدينة المنصورة بالقوة وطرد وسجن الكثير من النزارية، غير أن هذا الحزم كان ضروريا لاستتباب الأمن طوال فترة ولاية داود بن يزيد التى استمرت عشر سنوات نشطت فيها أيضا العلاقات المختلفة بين أهل السند والعرب فى ميادين الطب وعلوم الرياضة والفلك.

وبانتهاء خلافة هارون الرشيد التى اتسمت بالتقدم والرخاء وتولى كل من الأمين والمأمون والمستقيم الخلافة من بعده فقد تدهورت الأحوال السياسية فى عهده على الصعيد الداخلى وبين الأسرة الحاكمة ذاتها مما عكس تأثيراته على الصعيد الخارجى تجاه الولايات الإسلامية فى آسيا بصفة خاصة على نحو سيتم التعرض له تفصيلا فى موضع لاحق

مراجع الفصل الأول من الباب الثالث

(1) دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور، مرجع سابق ص144.

(2) راجع تفصيلا: الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء السابق ص 106- 109.

(3) راجع آراء الجاحظ تفصيلا فى: الجاحظ، عمر بن بحر، المتوفى سنة 255 هـ، البيان والتبيان، دار الفكر للجميع، بيروت 1954م.

(4) راجع آراء المسعودى تفصيلا فى: المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصدر سابق.

(5) راجع آراء الدكتور عبد العزيز الدورى تفصيلا فى: الدكتور محمد أسعد طلس تاريخ العرب، المجلد الثانى، الجزء الخامس، عصر الازدهار، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت، الطبعة الثالثة 1983 ص 10.

(6) المرجع نفسه ص 10.

(7) راجع: أحمد أمين، ظهر الإسلام، الجزء الأول،دار الكتاب العربى، بيروت، الطبعة الخامسة، 1969 ص 49.

(8) راجع فى تفصيل ذلك، دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى، مرجع سابق ص 26- 40.

(9) نفس المرجع السابق ص 32- 34.

(10) المرجع نفسه ص 34- 36.

(11) مثل الطبرى واليعقوبى وابن قتيبة.

(12) على أن هذه الكلمة كانت معروفة من قبل، فقد وردت فى القرآن الكريم عند قوله تعالي:" واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى"، كما وردت فى بعض الأحاديث النبوية الشريفة تصف أبا بكر الصديق بأنه وزير النبى صلى الله عليه وسلم، وفى العصر الأموى أطلق اللفظ على الكاتب.

(13) راجع فى تفصيل ذلك:

- عبد الفتاح السرنجاوى، الخلافة العباسية اضمحلالها وسقوطها، مطبعة عطايا بمصر القاهرة 1955.
- الشيخ محمد الخضرى، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية، القاهرة 1970.

(14) وقد توفى أبو العباس السفاح سنة 136 هـ بالأنبار.

(15) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، الجزء الخامس ص 469.

(16) نفس الرواية وردت فى الطبرى، الفخرى، المسعودى.

(17) لمزيد من التفصيل راجع: الشهرستانى، مصدر سابق ص 75- 80 الطبرى مصدر سابق، الجزء الثامن ص 240- 249.

(18) راجع في تفصيل ذلك: البلاذرى، فتوح البلدان ص 440- 445.

(19) ومن ناحية الاهتمام بالعلماء والفقهاء ودورهم فى تقوية كيان الدولة الجديدة فقد استعان بنو العباس بالإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام مالك.

(20) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث ص135-139"حوادث سنة 141هـ"

- اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 362- 364، 373
- أبن خلدون، تاريخ ابن خلدون الجزء الثالث ص 185- 188.

(21) حيث أمر الخليفة بنقله إلى حكم أفريقيا وقتل فيها سنة 154هـ، راجع أبن الأثير الكامل في التاريخ، الجزء الخامس، ص 386- 389.

(22) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء السادس ص 30- 32.

- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 207- 209.

(23) تذكر كتب تاريخ إقليم كجرات أن الملك " كرشن" أحد أفراد أسرة " راشت كوت" كان يحكم كجرات الجنوبية وأن نزاعا قد وقع بين أفراد هذه الأسرة بشأن الحكم والعرش، وعلى أثر ذلك قامت الاضطرابات.

(24) ومنهم التابعى الجليل الربيع بن صبيح – رحمه الله –، راجع: ابن الأثير الكامل فى التاريخ، الجزء الخامس ص 54- 56.

(25) قارن:

- الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث ص 470.
- ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ، الجزء الخامس ص 54.
- ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 206- 208.
- الدكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى، الجزء الأول ص267- 268.

(26) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء السادس ص 441- 443.

(27) وذلك فى الفترة من 164 – 170هـ حتى تولى هارون الرشيد الخلافة معزله مع بعض الولاة سنة 170هـ راجع – اليعقوبى، تاريخ اليعقـوبى، الجـزء الثـانى، ص408 – 410.

(28) الدكتور أحمد قاعور، الدكتور شحادة الناطور، ص 153.

(29) الطبرى، الجزء العاشر ص 65.

(30) راجع ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء السادس ص 114- 175.

(31) راجع تفصيل أسباب هذا القول فى ابن الأثير، مصدر سابق ص 203- 205.

(32) حول العلاقة بين المسلمين والفرنجة فى عهد الرشيد راجع: - أبن الأثير، مصدر سابق، دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلـد الثـانى، مرجـع سـابق ص 104- 108.

(33) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 407- 410.

الفصل الثانى

الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية

- من الأمين بن الرشيد 193- 198 هـ إلى المأمون 198- 218هـ والمعتصم 218- 227هـ .
- الفتن وأحداث التمرد والعصيان فى عهد المأمون .
- العلاقات الخارجية فى عهد المأمون .
- المعتصم بن الرشيد 218- 227هـ .
- العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم .
- شئون بلاد السند حتى سنة 240هـ .

من الأمين بن الرشيد (193- 198هـ) (808- 813م) إلى المأمون (198- 218هـ)، والمعتصم (218- 227هـ) (833- 842م):

يرتبط عصرا الأمين والمأمون ابنا هارون الرشيد ارتباطا وثيقا، والدتهما مختلفتان، لكنهما ولدا فى سنة واحدة، وبدأت الفتن بينهما بسبب تولية الأمين الخلافة لتدخل أمه، خلع الأمين أخاه من ولاية العهد وولى ابنه موسى، فلما علم المأمون ذلك قطع صلته بأخيه، وأخذ يستعد للدفاع عن خراسان بجيش من الفرس وأهل خراسان، فى حين استعد الأمين بجيش من العرب ، ومن هنا احتدم النزاع بين الفرس والعرب، غير أن جيش الأمين قد هزم، فى حين تقدم جيش المأمون يستولى على الأقاليم، إقليما إقليما حتى وصل إلى بغداد وحاصرها سنة كاملة هدمت خلالها الأسوار، وخربت المبانى وانتشرت المجاعات، ونفذت أموال الأمين، وكانت شخصيته تتسم بالمجون، فصمم قادة جيش المأمون على اقتحام بغداد واحتلالها، ونصح الحلفاء الأمين بالتنازل لأخيه عن الخلافة، لكنه قتل وأرسلت رأسه إلى أخيه المأمون، وانتهى عصره الذى استمر خمس سنوات من الفتن والاضطرابات وعدم الاستقرار السياسى، ويعزى المؤرخون مغزى هذه الفتنة بين الآخرين إلى أسباب عديدة أدت إلى نتائج وخيمة.

كان هارون الرشيد قد كتب عهدا لأولاده، يصفه المؤرخون بأنه عمل غير طبيعى لأن استقلال المأمون بخراسان والولايات الشرقية استقلالا تاما يعنى تمتعه بخيرات هذه البلاد، والسيطرة عليها، واحتمال الانفصال عن سلطة الخليفة فى بغداد، وكان سلطان الخلافة ينحصر فى بقعة محددة بجنوب العراق والشام وشبه الجزيرة العربية ومصر، ومع ما ينبغى أن يتوفر للخليفة من سلطات وقوة فى عهد الرشيد، فلم يكن طبيعيا أن تنتقص الدولة الإسلامية من سيادتها الشاملة على أقاليمها.

هناك نتيجة أخرى أدت إليها الفتنة التى مزقت وشائج صلة الرحم بين الأخوين، حيث انتهز الفرس هذه الفتنة، وخاصة من جانب المأمون – ابن أختهم– لأن أمه فارسية، فتذكر المصادر[1] أن الفضل بن سهل شجع المأمون على الوقوف فى وجه أخيه لأنه، نازل فى أخواله، وبيعته فى عنقهم، أما الأمين فإن جماعته كانوا من الهاشميين والعرب بصورة عامة وقد أدت أطماع ذوى الطموح السياسى للوصول إلى السلطة فى اتباع الفرقة بين الأخوين وتقطيع أوصال إمارة المأمون، فالفضل بن الربيع كان من أبرز هؤلاء الطامعين فى السلطة من خلال إفساد ملك بنى العباس، فهو الذى أوقع بين الرشيد والبرامكة، وبين الأمين والمأمون أيضا ثم تخلى عن الأمين بعد ذلك، فلما استقر الأمر للمأمون عاود سيرته فى نفاقه والتقرب إليه.

وعلى صعيد مطامع الخلفاء العباسيين فى نقل الخلافة إلى أولادهم من بعدهم وليس لأصحاب الحق فى ولاية العهد، فقد كان هذا سببا آخر فى تصعيد الفتن والاضطرابات التى أضعفت من سلطة الدولة المركزية، ويلاحظ أحد المؤرخين[2] أن أيا من خلفاء بنى العباس كان له ولد، فإنه كان يسعى حثيثا لخلع صاحب الحق سواء أكان عما أو خالا أو أخا أو ابن عم، ثم وضع ابن الخليفة فى غير موضعه غير مراع فى ذلك خير الأمة الإسلامية.

وكان لهذه الفتنة نتائج مادية ومعنوية، لعل من أهمها أنها أضعفت تمويل بيت المال فضلا عن الضرر الذى لحق بالسكان وأحيت نار العصبية بين أهل خراسان من الفرس وبين العرب بصورة عامة وانعكس ذلك على الإسلام والعروبة، ومع ذلك فإن الآثار الأدبية الرائعة كانت نتاجا لهذه الفترة من جانب أعلام المؤرخين أمثال الطبرى واليعقوبى وابن الأثير وابن طباطبا وغيرهم ممن تركوا تراثا أسلاميا رائعا فى الأدب السياسى والشعبى لا يزال– وسيظل– منهلاً للدراسين والباحثين.

الفتن وأحداث التمرد والعصيان فى عهد المأمون:

سواء تعلق الأمر بثورة الطالبيين أو فتنة بغداد فقد قام هرثمة ابن أعين بدور بارز فى القضاء على هاتين الحركتين، فقد خرج محمد ابن إبراهيم بن إسماعيل بن الحسن بن الحسن بن على بالكوفة، قام بأمر أحد رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا بن منصور الشيبانى، فأرسل الحسن بن سهل والى العراق من قبل المأمون جيشا بقيادة زهير بن المسيب، فهزمه أبو السرايا وتمت تولية محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين ابن سهل جيشا، لكن النصر كان حليف أبى السرايا فارتفع شأن الطالبيين – أنصار على بن أبى طالب– ثم وجه الحسن بن سهل هرثمة بن أعين إلى أبى السرايا، فانتصر عليه، وقتله وأعاد الكوفة إلى سلطة الدولة وعندما علم أتباع أبى السرايا في مكة بقتله، اجتمعوا، حول محمد ابن جعفر الصادق، وبايعوه بالخلافة، وسموه أمير المؤمنين، فأرسل المأمون إليهم هرثمة لتخليص مكة منهم، وانتصر الجيش على العلويين وطلب محمد بن جعفر الأمان ثم خرج من مكة لتدخلها الجيوش العباسية.

عقب انتهاء هرثمة من القضاء على فتنة العلويين، أراد أن يذهب إلى مرو عاصمة خراسان ليطلع المأمون على دسائس الفضل بن سهل، غير أن الفضل تمكن أن يوغر صدر المأمون عليه باتهامه بأنه وراء كل الفتن، ولم يصغ هرثمة إلى نداء المأمون بتوليته الشام، وعند دخوله مدينة مرو، لم ينصت المأمون لحججه، بل عذب، وسجن، ثم قتل، فلما علم أهل بغداد ثاروا على الحسن بن سهل، وطردوه من بغداد، وولوا منصور ابن المهدى أمر بغداد ولم يكن لديه جيش قوى، وعمت الفوضى البلاد، وأخفى الفضل بن سهل عن المأمون هذه الأخبار، وفى هذه الأثناء اختار المأمون لولاية العهد علىَ الرضى بن موسى بن جعفر الصادق وهو الثامن من

أئمة الشيعة الإمامية الأثنا عشرية، وسماه الرضى من آل محمد، ويعزى المؤرخون[3] ذلك لتربية المأمون بين أهل خراسان والبرامكة، غير أن أهل بغداد اتهموا الفضل بن سهل بذلك، واجتمع العباسيون واتفقوا على مبايعة إبراهيم المهدى عم المأمون بالخلافة وكان ذلك فى سنة 202 هـ ولكن على الرضى أخبر المأمون بأحداث فتنة بغداد، وبإنجازات الفضل بن سهل، ومع ذلك فقد قتله المأمون ونترك ابن الأثير[4] ليسرد أحداث وظروف هذه الفتنة: ففي سنة 202 هـ سار المأمون من مرد إلى العراق واستخلف على خراسان غسان بن عبادة، ولكن سبب مسيره أن على بن موسى الرضى أخبر المأمون بما الناس فيه من الفتنة والقتال، منذ قتل الأمين، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه ن أخبار، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: مسحور، مجنون، وأنهم قد بايعوا إبراهيم ابن المهدى بالخلافة".

" فقال له المأمون: لم يبايعوه بالخلافة، وإنما صيروه أميرا يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه، وأن الحرب قائمة بن الحسن بن سهل وإبراهيم، والناس ينقمون عليه مكانه، ومكان أخيه الفضل، ومكاني، ومكان يبقيك لي من بعدك"، " فقال: ومن يعلم هذا؟ قال: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وغيرهما من وجوه العسكر فأمر بإدخالهم، فدخلوا فسألهم عما أخبره به على بن موسى ولم يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل أن يعرض إليهم، فضمن لهم ذلك، وكتب لهم خه به، فأخبروه بالبيعة لإبراهيم بن المهدى، وأن أهل بغداد قد سموه الخليفة السنى، وأنهم يتهمون المأمون بالرفض لمكان على بن موسى فيه، وأعلموه بما فيه الناس وبما موه عليه الفضل من أمر هرثمة، و أن هرثمة إنما جاءه لينصحه فقتله الفضل...".

ويتسطرد ابن الأثير قائلا:" فلما تحقق ذلك أمر بالرحيل، فعلم الفضل بالحال، فبغتهم، حتى ضرب بعضهم ، وحبس بعضهم،.... فقال على بن موسى للمأمون فى أمرهم، فقال : أنا أدرى ، ثم ارتحل، فلما أتى سرخس وثب قوم بالفضل بن سهل، فقتلوه فى الحمام... وهربوا.. فجاء بهم العباس بن الهيثم الدنيورى، فقالوا للمأمون أنت أمرتنا بقتله ،فأمر بهم، فضربت رقابهم".

أما فتنة الزط فقد شكلت هى الأخرى إزعاجا وتوترا شديدا للمأمون ، ويعرف الزط بالنور، وينتسبون إلى هنود آسيا وكانوا يسكنون شواطيء الخليج العربى، واستولوا على الطريق إلى البصرة خلال فتنة الأخوين الأمين والمأمون، فلما استقرت الأمور للمأمون أرسل إليهم عيسى ابن يزيد الجلودى سنة 205هـ غير أنه لم يحرز انتصارا يذكر، وفى سنة 206هـ أرسل إليهم المأمون داود بن ماسجور، ولم يحقق هو الآخر إنجازا يذكر، واستمر أمرهم حتى سنة 219هـ فى عهد المعتصم الذى أرسل إليهم عجيف بن عنبة بعد أن عاثوا فسادا بالقرب من البصرة فحاصرهم وأسر وقتل الكثيرين، ثم انقطعت أخبارهم حتى عادوا للظهور فى أيام المتوكل.

وقد واجه المأمون أيضا فتنة بابك الخرمى الذى خرج 201هـ (816م) من شمالى إيران فى "مازندران" بالقرب من أذربيجان، فأعلن تمرده على الإسلام، وإحياء دين مزدك والدعوة إلى دين الفرس[5]. وقد ظهر بابك بحركته، والبلاد لم تكن قد استقرت بعد فى عهد المأمون، ولما كثر أنصاره ودخل المأمون بغداد ، بعث يحيى بن معاذ لمحاربتهم عدة مرات، غير أنه فشل فى أسر بابك الذى أخذ سلطانه يقوى فى أذربيجان وهمذان، وأصفهان، وماسندان حتى مات المأمون وفتنة بابك فى قمتها وكان المأمون قد أوصى أخاه المعتصم[6]. بالقضاء على الحزمية.

العلاقات الخارجية فى عهد المأمون:

لم تستأثر الشئون الخارجية باهتمام المأمون فى أول عهده، ولكنه بعد عودته إلى بغداد جدد سياسة إعادة غزو الروم فتوجه سنة 205 هـ لغزوهم، مارا بالموصل فأنطاكية وطرطوس باعتبارها ثغرا قويا حيث عبأ قواه وسار إلى بلاد الروم ففتح حصن قره، وأعتق أسرى المسلمين بعد شرائهم ثم فتح قواده حصون سندس وسنان، ثم قفل راجعا إلى الشام، وكان ملك الروم تيوفيل بن ميخائيل قد هجم على طرطوس والمصيصة[7]. فعاد المأمون وقاتله وأخضعه، وافتتح عددا من الحصون[8] وهدم القلاع وطلب تيوفيل الصلح مع المأمون نظير عدة شروط لم يوافق عليها المأمون حيث جددَ غزوه سنة 217هـ لبلاد تيوفيل، وعاود الغزو سنة 218هـ حيث جمع جيشا من العواصم والثغور فى العراق والشام ومصر وخراسان وبلاد العرب استعدادا لحرب طويلة، ويصف اليعقوبى هذه الاستعدادات قائلا:" استعد المأمون لحصار عمورية، وقال أوجه إلى الغرب، فأتى بهم من البوادى، ثم أنزلهم كل مدينة مفتوحة حتى أخرب القسطنطينية، فلما بلغ إمبراطور الروم ذلك طلب هدنة بينهما رفضها المأمون، وقصد بلاد الروم، ونزل طرطوس، يستعد لحملة الحرب الكبرى، غير أن المنية وافته.

وفى تقويم المأمون بشأن إدارة علاقاته الخارجية عموما، يقول المسعودى:" كان حسن التدبير، لا تخدعة الأمانى، ولا تجوز عليه الخدائع، ولم يكن يعاب فى حكمة بشىء سوى تهاونه بالأمر بعد استخلافه فترة، وتركه السلطة لآل سهيل يفعلون ما يريدون، كما يعاب عليه تقريبه الأعاجم وتبعيده للعرب[9].

أما ابن الأثير فيقول: "تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا، وقال: يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام، كما نظرت لعجم خراسان، فقال له: أكثرت على، والله ما أنزلت قيسامن ظهور خيلها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالى درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفيانى حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على ربها منذ بعث نبيه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما سائسا أعرف مثل الله بك..."، ويستدل من قول هذين المؤرخين العملاقين أن السياسة الأعجمية قد غلبت على المأمون على حساب العرب، ومع ذلك فإن عصر المأمون يعتبر خاتمة للدولة العباسية القوية فى المشرق، وفترة ازدهار عربية إسلامية، وهو ما نصح به المأمون ولى عهده المعتصم بشأن محافظته على نسل على بن أبى طالب قائلا:" ... هؤلاء ولد عمك من أمير المؤمنين على بن أبى طالب، فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئتهم، واقبل من محسنهم، وصلاتهم، فلا تغفلها كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى....".

وتكتمل الصورة الإسلامية المشرقة فى عهد المأمون عند استعراض الأحوال الإدارية، والحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية في عهده، فقد كانت الوزارة فى عهدة الأول وزارة تفويض من خلال تواجده فى مرو، فقد فوض أمرها إلى الفضل بن سهل، الذى كان له الفضل فى ايصاله إلى الحكم، فأطلق يده فى الدولة وسماه ذا الرياستين، رياسة الحرب ورياسة التدبير، وفي تقويم هذا التفويض يرى طلس[10] أن بقاء المأمون فى خراسان وتقليم أظافر العرب فى ديارهم وتقويته مخالب الفرس، لم يكن فى حقيقته سوى تأييد للسياسة الفارسية، وإحياء للدولة الكسروية، وفى أواخر أيامه استعان المأمون بوزير كفء هو ابن سويد حيث أطمأن إليه، وقد سار المأمون فى الأمور المالية من خراج،

وجباية، وضرائب على سيرة أبية مستنيراً بكتاب الإمام القاضي ابن يوسف، فازدهرت البلاد اقتصاديا فى عهده، وقد شهد ابن خلدون فى تاريخه وثيقة قيمة ذكرها فى المقدمة نقلا عن كتاب جراب الدولة عدد الأقاليم الإسلامية فى عهد المأمون ومقدار جبايتها[11].

أما الحياة الفكرية والعقلية فقد ازدهرت، ويعتبر عصر المأمون العصر الذهبى الرائع للحضارة الإسلامية، وهو عصر الإزدهار بالفعل حيث نقب عن المخطوطات الإغريقية والأجنبية فجمعها وعمل على ترجمتها وأغدق على المترجمين، وبلغت العلوم الإسلامية ذروتها ونبغ علماؤها فى الفقه، والأصول، والحديث، والكلام، واللغة، والأدب، والشعر، ونقل الفلاسفة السوريون فى حران وأنطاكية علوم الأولين إلى العربية، وجمع المأمون فى دار كتبه المسماة بيت الحكمة كنوز العلم وآثاره من إسلامية وغير إسلامية، وكان المأمون متفتحاً على الثقافات المختلفة فلم يؤثر مذهبا أو عرقا خاصا فأباح الاستخدام فى مناصب الحكومة لجميع المتعلمين على اختلاف أديانهم، كلما أنشأ مجلسا استشاريا للدولة يتألف من ممثلى جميع الطوائف من مسلمين ويهود ومسيحين وصائبين على حد سواء.

واستمرت الحياة الاجتماعية كما كانت فى عصر سلفه الرشيد، لولا أن الفتنة بين الأخوين (الأمين والمأمون) قد تركت بصماتها لفترة فأفسدت مظاهر الحياة الاجتماعية إلى حد ما، فى حين انتعشت الحياة الاقتصادية كثيرا فى عصره وهو ما انعكس على الزراعة والتجارة والصناعة، ومهما يكن من شيء. فقد كان المأمون خليفة عظيم الشأن، ولو طال أجله لكان شأنه أعظم.

المعتصم بن الرشيد (218- 227هـ) - (833- 843م):

شهدت فترة خلافة المعتصم (218- 227هـــ) (883- 842م) العديد من الفتن الداخلية والتمردات ثم الحروب مع الروم. ففى عهده تمرد محمد بن القاسم بن على من الزيدية، فى خراسان. والتف حوله النـــاس، فأرسل إليه عبد الله بن طاهر أمير خراسان الجيــوش إلـــى أن هزمـــه، وأسره وأرسل إلى المعتصم حيث سجن فى سامرا سنة 219هـــ.

وفى عهده قوى الزط، وهم قوم مـــن أخـــلاط الـــشعوب الآريـــة والسامية وأخذوا يعيثون فى الأرض فـــسادا، ويقطعـــون علـــى الـــسابلة طريقهم، بين البصرة، وواسط، وبغداد، حتى انقطع عن بغداد جميـــع مـــا كان يحمل إليها من السفن[12]. وقد حاربهم المعتصم حتى أستأمنوا له، كما واجه المعتصم ثورة مازيار الكارين آخر الأمراء القارنيين الذى أخرجـــه شهريار ابن شيرويه من طبرستان. فالتجأ إلى المأمون، وأسلم على يديه، غير أن إسلامه كان سطحيا[13].. ولما قوى أمره أعلـــن اســـتقلاله عـــن الخليفة الذى كان قد ولاه على طبرستان وما والاها، فـــأعلن عـــصيانه، واستولى على أملاك العرب ومواليهم، وأغرى فلاحى تلك البلاد على قتل أصحاب الأراضى من العرب قائلا:" إنى قد أبحتكم منازل أرباب الضياع، وحرمهم ، فاقتلوا أرباب الضياع جميعهم قبل ذلك، ثم خذوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم"[14].

ويرى طلس أن تمرد أو ثورة مازيار كانت فارســـية، خرميـــة، ترمى إلى هدم الدين الإسلامى والخلافة العربية، وقد اعتنق كثيـــر مـــن الإيرانيين أفكار مازيار، واضطر الخليفة أن يبعث إلـــيهم الحـــسن بـــن الحسين، وحيان ابن جبلة، ومحمد بن إبراهيم، لمعاونة عبد الله بن طاهر فى القضاء عليهم، واستطاع الجيش الإسلامى أسره، وإرساله إلى سامراء حيث صلب إلى جانب بابك سنة 224هـــ وهو ما يستدعى وقفة للتفسير.

فقد سبقت الإشارة أن المأمون أوصى المعتصم قائلا:" والخرمية فاغزهم ذا ضرامة وصرامة، جلدا.. فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك" فلما قويت شوكة بابك الخرمي وكاد يسيطر على بلاد فارس، لولا أن الخليفة المعتصم اختار لحرب بابك قائدا كبيرا هو حيدر بن كاوس الأشروسني الملقب بالأفشين، وبعثه إليه فى سنة 220هـ، وتمكن هذا القائد من أسره بابك وأسرته وإحضاره إلى سامرا، وما لبث أن قتل وصلب على نحو ما سبقت الإشارة إليه، ويروى الطبرى أن عدد من قتلهم بابك فى عشرين عاما بلغ مايزيد على ربع مليون مسلم، فى حين يقول المسعودى "إن من أدركه الإحصاء ممن قتله بابك فى 22 سنة من جيوش المأمون والمعتصم من الأمراء، والقواد ، وغيرهم من سائر طبقات الناس فى القول المقلل خمسمائه ألف، وقيل أكثر من ذلك..."، وترجع المصادر العربية[15] تقدير الطبرى باعتباره أقرب إلى الصواب لأنه كان يطلع على الوثائق الرسمية.

أما الأفشين ذلك القائد الذى أسر بابك، فقد قام هو ا لآخر بفتنة حيث طمع فى الاستقلال بأشروسنة، فساءت ظنون الخليفة به، وهرب الأفشين إلى أرمينية عبر طريق الموصل، وقام بمؤامرة لقتل الخليفة نفسه، لكنه فشل فى تحقيقها،وعقد المعتصم محكمة للأفشين[16]. واعترف بذنبه ، فسجن حتى مات سنة 226هـ.

العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم:

لم يثق المعتصم فى جنود بغداد، فأحضر الأتراك وأسكنهم بغداد وأعجبته شجاعتهم، واستغنى عن جيوش العرب، وأسقطهم من الدواوين واستكثر من الفراعنة، والأشروسنية، فكثر جيشة، ولما تعاظم خطرهم ورأى المعتصم أنهم سيثيرون له المشكلات، بنى لهم مدينة أسماها سامراء سنة 219 هـ، ونترك ابن الأثير ليحكى ظروف هذه المدينة [17] قائلا:

"في هذه السنة خرج المعتصم إلى سامراء لبنائها، وكان سبب ذلك أنه قال: إني أتخوف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلماني فأريد أن أكون فوقهم، فإن رابني منهم شيء، أتيتهم من البر والماء، حتى آتى عليهم، فخرج إليها، فأعجبه مكانها".

" وقيل كان سبب ذلك أن المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك فكانوا لا يزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلا، ذلك أنهم كانوا جفاة، يركبون الدواب، فيركضونها إلى الشوارع، فيصدمون الرجل والمرأة والصبي، فيأخذهم الأبناء على دوابهم، ويضربونهم؟ وربما هلك أحدهم فتأذى به الناس".

ويضيف ابن الأثير قائلا:

" ثم أن المعتصم ركب يوم عيد، فقام إليه شيخ، فقال له: يا أبا أسحق! فأراد الجند ضربه، فمنعهم وقال: يا شيخ مالك ، مالك؟ قال: لا جزاك الله عن الجور خيرا، جاورتنا، وجئت بهؤلاء" العلوج" من غلمانك الأتراك، فأسكنتهم بيننا، فأيمت صبياننا، وأرملت به نسواننا،؟ وقتلت رجالنا، والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله، ولم ير راكب إلى مثل ذلك اليوم، فخرج فصلى بالناس العيد، ولم يدخل بغداد، بل سار إلى ناحية القاطول،ولم يرجع إلى بغداد.

" ... ولما خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق وكان المعتصم قد اصطنع قوما من أهل الحوف بمصر، واستخدمهم، وسماهم المغاربة، وجمع خلقا من سمر قند، وأشروسنة، وفرغانة وسماهم الفراغنة، فكانوا من أصحابه، وبقوا بعده، وكان ابتداء العمارة بسامرا سنة إحدى وعشرين ومائتين".

وقد انعكست هذه الظروف على علاقاته الخارجية خاصة وهو يحارب الروم، حيث الفتن الداخلية عاقته عن الاستمرار في حربهم، وتذكر المصادر أن بابك قال لملك الروم: أن ملك العرب قد وجه أعظم جيشه إلى ولم يبق على بابه أحد، فاغتنم الفرصة، فلم يلبث ميخائيل بن تيوفيل حتى خرج فى جيش عظيم فأتى "زبطرة" فقتل أهلها وسبى نساءها وأحرقها، ثم مضى إلى ملطية، فأغار على أهلها، وبلغت هذه الأخبار مسامع المعتصم ، فسأل: أى بلاد الروم أعظم أو أمنع؟ فقالوا له: "عمورية" وهى مسقط رأس تيوفيل، فجهز جيشا وسار بنفسه عليه، وانتصر عليه، وسار إلى أنقرة ودخلها، وسار إلى عمورية سنة 223هـ، واشتد القتال بينه وبين الروم، واقتحم المسلمون المدينة وغنموا مغانم كثيرة، ويذكر المسعودى أن المعتصم أراد المسير إلى (القسطنطينية) وفتحها براً وبحراً ولكنه ما لبث أن غادرها بعد أن اكتشف مؤامرة لقتله واستخلاف العباس ابنه مكانه، فسجن العباس وقتل القادة المتآمرين.

وهكذا ارتبط الجيش بالوقعات الخارجية وخاصة فى بلاد الروم، فالمعتصم نفسه كان عسكريا، وقد سبقت الإشارة إلى استكثاره من الموالى الأتراك وعدم وثوقه فى أهل خراسان وأقصى العرب عن الجندية، واهتم بمدينة سامراء اهتماما كبيرا حتى صارت قلعة عسكرية تعتبر من أعظم الحواجز الإسلامية. غير أن عهده قد بدا به بما يسميه المؤرخون بعصر الضعف والتفكك فى الدولة العباسية، كما ينسب الفضل فى محافظته على الأسرى المسلمين إلى الواثق بالله ابنه حيث كتب ملك الروم إليه يطلب منه تبادل الأسرى، فاستجاب الواثق لطلبه، وتم تبادل الأسرى على نهر اللامس وكان عدد الأسرى من المسلمين 4600 ومن أهل الذمة 500[18].

شئون بلاد السند حتى سنة 240هـ:

كان والى السند داود المهلبى لا يزال يحكمها حين تولى ا لخليفة الأمين، ورغم الاضطرابات التى سادت دار الخلافة وبعض ولاياتها الإسلامية- على نحو ما سبقت الإشارة إليه تفصيلا- فإن الأوضاع كانت هادئه ومستقرة فى بلاد السند، وبمقتل الخليفة الأمين سنة 198 هـ، وتولى شقيقه المأمون الخلافة قرابة عشرين عاما، فقد نشطت العلاقات الثقافية والتجارية مع بلاد السند.

تولى بشر بن داود المهلبى (205- 121هـ) ولاية بلاد السند وكانت أسرته قد بلغت حدا من القوة والنفوذ والسيطرة فى هذه البلاد ما جعله يشعر بالغرور ولم يهتم بدار الخلافة وامتنع عن دفع الخراج فقرر الخليفة عزلة[19] وعين مكانه حاجب بن صالح سنة 212 هـ، وقد حدثت خلافات مع شقيق بشر حاكم إقليم مكران، وكان على حاجب أن يتوجه إلى العاصمة المنصورة وهو ما جعله يخشى الأخوين معا، فتقاعس وفشل فى مهمته، وعندما علم الخليفة بقوة بشر بن داود الجبارة فى بلاد السند، وقع اختياره على قائد كبير من نفس قبيلة بشر" آل المهلب" يسمى غسان ابن عبادة المهلبى، ولما وصل غسان إلى بلاد السند، قدم له بشر واعتذر على ما حدث من التباس مع حاجب، كما أبدى اعتذاره لتأخره عن دفع الخراج لدار الخلافة وسلم إليه حكم بلاد السند والذى سلمه بدوره إلى ابن يحيى البرمكى[20] كتعليمات الخليفة.

تسلم موسى بن يحيى بن خالد البرمكى زمام الحكم فى المنصورة ببلاد السند واستمر فى الفترة 216- 221 هـ، وفى عهده تم إخماد اضطرابات وفتن انفصالية حيث نشبت معركة بين الجيش العربى والجيش السندى وتمت هزيمة الأمير السندى حيث أمر الوالى بقتله، واستطاع

موسى البرمكى توطيد العلاقات التجارية والتعليمية بين العرب وأهل السند رغم قله الخراج الذى أرسلته إلى دار الخلافة.

وفى عهد موسى البرمكى قام الفضل بن ماهان أحد حكام العرب بحمله على مدينة سندان الهندية القريبة من بلاد السند، وفتحها وظل يحكمها مستقلا، وكان هذا بمثابة إنجاز كبير للعرب وشجعه الخليفة وبموت الفضل بن ماهن تولى ابنه محمد زمام الأمور فى هذه الدولة العربية الإسلامية الصغيرة ونجح فى توسيعها بمنطقة مجاورة حيث فتح مدينة قالى الهندية- بالقرب من سندان - غير أن أخاه ماهان استولى على حكم سندان خلال تغيبه، وكتب إلى الخليفة المعتصم راجيا المساعدة، ولكن ماهان استطاع الحصول على تأييد أهل السند المقيمين هناك وغدر بأخيه وقتله، وقد انتهز حكام بلاد الهند فرصة الفرقة بين الأخوين وقاموا بهزيمة جيوش ماهان ثم قتلوا ماهان نفسه وهكذا زالت هذه الدولة الإسلامية الصغيرة فى تلك البقعة الهامة من بلاد الهند.

أما فى عهد الخليفة المعتصم بالله (218- 227هـ) فقد حدثت فتنة هددت دولته وهى فتنه السند المعروفين بالزط الذين كانوا يسكنون بالبطائح بين البصرة وواسط بالعراق منذ عهد الخلفاء الراشدين حيث قام الزط بقطع الطرق ونهب أموال التجار والمسافرين ثم استولوا على طريق البصرة وفرضوا المكوس الجائرة، وحالوا دون وصول المؤن إلى بغداد حتى تمكن الخليفة من هزيمتهم ونفيهم(21) إلى آسيا الوسطى بحملة عجيف ابن عنبة أحد قواد العرب.

تولى عمران البرمكى ولاية بلاد السند بعد وفاة والده موسى سنة 221هـ واستمر فى الحكم حتى سنة 226 هـ ولم تمض أيام قلائل على استلامه الحكم حتى قامت القبائل الزطية السندية بالفتن والاضطرابات ضد العرب فى كل مكان وخاصة فى المناطق الغربية لنهر السند،وقد قاتلهم

عمران البرمكى وانتصر عليهم ونشر الأمن والاستقرار هناك، ثم بنى مدينة فى منطقة بوقان أسماها" البيضاء" وهى بمثابة حصن منيع كى يراقب الجنود العرب هؤلاء الزط، ثم تكررت الفتن من أهل قندابيل وحاكمها العربى "محمد بن الخليل"، فقاتله عمران وانتصر عليه وفتح المدينة، وشبت فتنة ثالثة من قوم الميد المنافس لقوم الزط فهزمهم عمران، أما الفتنة التالية فجاءت من العرب أنفسهم ومن داخل المنصورة عاصمة بلاد السند وهى تجديد العصبية القبلية بين الفريقين والخصمين اللدودين: النزارية واليمانية حيث عمل النزارية على إسقاطه والقضاء عليه وكان قائدهم عمر بن عبد العزيز الهبارة حفيد أحد الثوار العرب العظماء وبالفعل تمكن من قتل عمران البرمكى سنة 226هـ.

عكست هذه الفتن والاضطرابات آثارها السيئة على استمرار الأوضاع فى بلاد السند وتشتت شمل العرب وهو ما انتهزته قبائل الزط والميد للقيام بالفتن ضد العرب الذين ازدادوا فرقة، فى حين استقل بعض الحكام العرب والسند بقلاعهم ومناطقهم [22].

تولى عنبة بن اسحق الضبى[23] حكم بلاد السند الذى اهتم بتهدئة الخلافات القبلية بين عرب المنصورة، لكنه لم يعاقب عمر بن عبد العزيز الهبارى على قتل عمران البرمكى، وربما يرجع ذلك إلى تلك القوى البشرية الهائلة التى وقفت وراءه واختارته زعيما لها مما أدى إلى سكوت الخليفة والوالى الجديد معا، وينسب إلى عنبة بن اسحق الضبى أنه قضى على نفوذ حكام الأقاليم وزعماء القبائل العربية وزعماء القبائل السندية وبنى سجنا كبيرا للمتمردين منهم فى مدينة الديبل الشهيرة وفى موقع حصين سنة 234هـ وبذلك استطاع نشر الأمن والاستقرار فى بلاد السند[24].

ترك عتبة الضبى ولاية بلاد السند بعد تولى الخليفة المتوكل على الله (232- 247هـ) وتم تعيين هارون بن خالد المروزى حكم البلاد فى الفترة 235 إلى 240 هـ، وتجددت الخصومات بين النزارية واليمانية حتى قتل هارون نفسه فاستولى عمر بن عبد العزيز الهبارى زعيم النزارية على الحكم فى المنصورة سنة 240هـ، وأبدى إخلاصه وولاءه للخليفة المتوكل على الله فوافق على توليته حكم بلاد السند، غير أنه- أى عمر بن عبد العزيز الهبارى- سلك سياسة جديدة تهدف إلى استقلال حكم تلك البلاد عن دار الخلافة ونجح فى ذلك لأن الظروف ساعدته، وظل أبناؤه من بعده يرثون حكم دولته- التى كانت عاصمتها "المنصورة"- لمدة أكثر من قرن فى تبعيتهم للخليفة العباسى، وبذلك ظهرت حكومة عربية جديدة فى المنصورة.

وتجدر الإشارة إلى قيام دولة عربية ثانية فى الملتان بإقليم البنجاب باسم الدولة العربية فى الملتان، ومعنى ذلك أن الحكم العربى ببلاد السند قد انقسم إلى حكومتين شبه مستقلتين عن الخلافة العباسية منذ سنة 240هـ، وهو ما سوف يتم التعرض له فى إطار الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية فى موضع لاحق من الدراسة.

مراجع الفصل الثانى من الباب الثالث

(1) الجمهثيارى، محمد بن عبندوس الكوفى المتوفى سنة 331هـ. كتاب الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ الشلبى- مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة 1938ص 365- 367.

(2) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى ص 143.

(3) دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص 151- 159.

(4) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ص 346- 348.

(5) شرح ابن النديم فى كتاب الفهرست، والبندارة فى كتابه الفرق بين الفرق ما دعا إليه بابك وأن الحزمية أو الحزمدينية (الأولون) ويسمون أيضا الحمرة، وصاحبهم مزدك أباح التابعية تناول الملذات ومزاولة الشهوات،و المشاركة بين الناس فى الطعام والحرم والمال، وتحريم القتل وقد حاربهم الملك كسرى أنوشروان، وقتل صاحبهم، وقد أطلق عليهم فيما بعد لفظ" البابكية" نسبة إلى بابك الحزمى وكان يقول أنه إله وأنه يجدد دين المحمرة ويبيح لأتباعه قتل مخالفيهم.
راجع: دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثامن ص 151- 152.

(6) الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية، ص 195- 197.

(7) راجع فى تفصيل ذلك: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمى المغربى المتوفى سنة 808هـ، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمى، بيروت 1971.

(8) راجع فى تفصيل ذلك: اليعقوبى الجزء الثالث ص192، الطبرى، الجزء العاشر ص281.

(9) المسعودى، مروج الذهب، الجزء الأول ص 304.

(10) الدكتور محمد سعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى، مرجع سابق ص157 – 158.

(11) المرجع نفسه ص 159- 161 نقلا عن مقدمة ابن خلدون ص 209- 211..

(12) راجع: البلاذرى، فتوح البلدان، مصدر سابق ص 381- 384.

(13) راجع : المسعودى، البلاذرى، البغدادى، الطبرى وذلك لمزيد من التفصيل.

(14) نقلا عن الطبرى، الجزء العاشر من 352- 353.

(15) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد ا لثانى ص 182.

(16) راجع تفصيل محاكمة الأفشين فى الطبرى، مصدر سابق.

(17) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ص 451- 452.

(18) الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية ص 253.

(19) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث ص 1098- 1101.

- البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 542- 545.

(20) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الخامس ص 114- 116.

- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثالث ص 253- 256.

(21) وقد ظلوا هناك حتى أسرهم البيزنطيون سنة 241هـ، راجع : الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، الجزء العاشر ص 254- 257.

(22) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، الجزء الثانى ص 584- 586.

(23) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث ص 542- 545.

(24) المصدر نفسه ص 435- 438.

الفصل الثالث

من عصر الانحلال الأول

إلى بروز الولايات الإسلامية الانفصالية

في آسيـــــا

- خلفاء عصر الانحلال الأول.
- شئون الخلافة
- بروز الولايات الإسلامية الانفصالية الاستقلالية:

1- الدولة الصفارية	247- 289هـ
2- الدولة الطاهرية	205- 259هـ
3- من الدولة السامانية	216-389هـ
إلى الدولة الغزنوية	251- 582هـ
4- دولة آل بوية	334- 447هـ
5- الحمدانيون	293- 402هـ
6- من الدولة الزيادية	203- 253هـ
إلى الدولة الزيدية	250- 355هـ
7- الدولة الهبارية	240- 416هـ
8- الدولة الملتانية	151- 401هـ

من عصر الإنحلال الأول إلى بروز
الولايات الإسلامية الانفصالية فى آسيا

لعل الهزات التى تعرض لها العالم الإسلامى ابتداءا من القرنين الثالث والرابع الهجريين- قد أثرت سلبيا على حركة التاريخ الإسلامى، فالأحداث الخطيرة والملاحظة أضعفت الدولة العباسية، بل وصلت إلى درجة الانهيار فى الفترات اللاحقة سواء تعلق ذلك بالتطورات السياسية أو الاجتماعية أو الدينية والعقائدية، وقد شهدت الدولة العباسية مراحل انحلالها ثم سقوطها، حتى القناع الدينى قد سقط هو الآخر، فقوى المتمردون وانسلخوا عن جسد الدولة السياسى بأقاليمهم، وخاصة فى آسيا وهو ما يتعلق بمجال هذه الدراسة، فاليمن انسلخت بقيادة يعفر ابن عبد الرحيم، كما انفصلت سجستان على يد الأسرة الصفارية واستقلت خراسان، وما وراء النهر بزعامة الطاهريين، والسامانيين وآلت الموصل، وشمال الشام وديار بكر إلى زعامة بنى حمدان، وفى فترات لاحقة سيطر الهوبهيون والسلاحقة ثم المغول على مركز الخلافة ذاتها.

ولما كانت هذه الدراسة تجمع بين المنهجين التاريخى والتحليلى فسوف يتم استعراض خلفاء العصر العباسى الأول بتسلسلهم، ثم نستعرض فى إطار المنهج التحليلى السمات البارزة التى مرت بها هذه الفترة بدءا بالانحلال الأول 232- 320 هـ بما شملته بمجالات الإنحلال التى أمسكت بالجسد السياسى، أى الدولة، مرورا بنتائج هذا الإنحلال والتى كان أهمها الحركات الانفصالية وظهور العديد من الدويلات فى آسيا (الطاهرية، الزيادية، الزيدية، الصفارية، السامانية، الساجيه) وانتهاء بعصرى الانحلال الثانى 320- 422 هـ ثم سقوط الدولة العباسية نهائيا سنة 656 هـ نتيجة لما عكسته الأوضاع الداخلية على علاقاتها

الخارجية من ناحية وعلى صعيد العلاقات السياسية الإسلامية- وهذا هو الأهم من ناحية أخرى، لتفسير وتحليل فكر أصحاب الدعوات المخالفة لمذهب الخلافة مثل الإسماعيلية والقرامطة والحركات "العقائدية" الأخرى غير أننا نبدأ أولا فى هذا الفصل بخلفاء عصر الانحلال الأول.

خلفاء عصر الانحلال الأول:

تتفق المصادر[1] أن الخليفة فى هذه الفترة كان أسيرا فى يد الأتراك فإن شاءوا أبقوه، أو خلعوه، أو قتلوه، ويعتبر المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (232- 247هـ) (847- 861م) هو بداية ما اصطلح المؤرخون على تسميته بدور الانحلال[2] فى الدولة العباسية، وكان المتوكل يكره العلويين، وأمر فى سنة 237هـ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء، وفى عهده تصاعدت غارات الروم على الثغور الإسلامية وقاموا بنهبها وأسر الكثير من سكانها، كما قوى نفوذ الأتراك فى عهده وامتد ليشمل جميع مرافق الدولة حتى تآمروا عليه وقتلوه.

تولى ابنه محمد المنتصر الخلافة بعد مقتل والده، وفى عهده (24247- 248هـ) 861م زادت هيمنة الأتراك وسيطرتهم على الدولة فعزلوه وبايعوا المستعين أحمد بن المعتصم سنة 248هـ ولم يلبث الأتراك أن استولوا على أمور الدولة كلها، وتولى أحد القواد الأتراك الوزارة، وبعد مضى أربع سنوات، اضطروا المستعين أن يخلع نفسه ثم قتلوه سنة 252هـ وفى عهده اضطربت الأحوال على الثغور، واجتاح الروم البلاد قتلا ونهباً فى عهد خلفه المعتز (252- 255هـ) (866- 869م) حيث قتل ويصف ابن طباطبا هذه الفترة قائلا:" لم يكن المعتز بالله بسيرته وعقله بأس، ألا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة فى يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه وأن شاءوا خلعوه، وأن شاءوا قتلوه، ولو جلس المعتز على سرير الخلافة

قعد خواصه، وأحضروا المنجمين، وقالوا لهم: انظروا كم يعيش، وكم يبقى فى الخلافة؟ وكان بالمجلس بعض الظرفاء، فقال: أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته، فقالوا له: فكم تقول أنه يعيش وكم يملك؟ قال: مهما أراد الأتراك ، فلم يبق فى المجلس إلا من ضحك(3).

ثم تولى الهندى (255 – 256 هـ) (869- 870م) الخلافة حتى خلعه الاتراك، وكان متدينا ناهجا نهج الخلفاء الراشدين، وروى ابن طباطبا أنه قال: "إنى أستحى من الله أن لا يكون فى بنى العباس مثل عمر ابن عبد العزيز فى بنى أمية...".

وتجدر الإشارة أن الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية قد ظهرت فى هذه الفترة، ثم تصاعدت حدتها، نتيجة الفوضى والاضطراب فى العاصمة، ففى سنة 249هـ ثار عمر بن يحيى بن الحسين بنى زيد بن على فى الكوفة، واجتمعت إليه الزيدية، ودعا إلى" الرضا من آل محمد". وفى سنة 250هـ ثار الحسن بن زيد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد ابن على فى طبرستان، فتملكها، كما تملك جرجان إلى سنة 270هـ ثم قام أخوه محمد بن زيد من بعده فضم إليه مملكة الديلم أيضا، وبقى يحكمها إلى أن قضى عليه السامانيون سنة 287هـ، وفى سنة 255هـ كانت ثورة صاحب الزنج التى أقلقت الخليفة، وأضعفت أركان الدولة، وكاد الثوار أن يفوزوا على جيش الخليفة لولا أن أخا الخليفة الموفق طلحة قد تمكن من القضاء على هذه الثورة سنة 250هـ- 883م بعد أن استمرت أربع عشرة سنة،وتركت آثارا مخيفة من التدمير والفساد(4).

تولى المعتضد الخلافة فى الفترة 279- 289هـ-892-902م عقب وفاة أخيه الهندى، وفى عهده ثار العرب فى جزيرة الفرات لكنه تمكن من القضاء على هذه الثورة ، ثم ظهرت فتنة حمدان بن حمدون الذى سيطر على قلعة ماردين، غير أن المعتضد استطاع ان ينتصر عليه

وإحضاره إلى بغداد[5].كما ظهر هارون الشارى الخارجى، فأرسل إليه الحسين بن حمدان الذى انتصر عليه وأحضره أسيرا إلى بغداد، وظهر القرامطة بالبحرين والعراق والشام وكانوا من القوة بحيث استمروا فترة من الزمن يقلقون المسلمين والخلافة كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من الدراسة، و فى عهد المعتضد خرج عليه رافع بن هرثمة، واحتل نيسابور وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى، فقضى عليه عمرو بن الليث وأرسل كتابا إلى المعتضد مع رأس رافع، وكان رافع قد طالب أن يوليه الخليفة بلاد ما وراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد السامانى، ووقعت مناوشات عديدة انتهت بوضع الشرق كله تحت حكم الأسرة السامانية كما سيأتى تفصيل ذلك.

ولما مات المعتضد سنة 289هـ، تولى الأمر ابنه المكتفى بالله، وتصفه المصادر بأنه من أفاضل الخلفاء، وأراد إعادة مجد الخلافة الإسلامية ، ولكنه فشل، ففى عهده ازدادت فتنة القرامطة اشتعالا،ولقى الإسلام بلاءا جسيما، كما استقر الأمر للدولة السامانية فى بلاد خراسان وفارس، فاقتطع جزء كبير من دولة الخلافة وخاصة حول بغداد والبصرة وفى سوريا واليمن، وعقب موت المعتضد تولى الأمر ابنه المقتدر، وكان فتى لم يتجاوز الثالثة عشرة، وقد أثار توليه الخلافة بعض الاضطرابات بل أهل الرأى والفقهاء، وما لبث أن عزل، ليتولى عبد الله بن المعتز الذى لم يلبث سوى يوما، استطار أنصار المقتدر إعادته إلى الخلافة وفى عهده 295- 320هـ/ 908- 932م، تدخلت النساء فى أمور الدولة وازداد نفوذهن والأهم من ذلك أن القرامطة قوى شأنهم كثيرا عن ذى قبل وضعف شأن الخلافة ضعفاً لم تشهده الخلافة الإسلامية من قبل، وكان مواليه من الأتراك يديرون أمر الدولة، ويصف المؤرخون فترة حكمه بأنها أسوأ فترة مرت بالدولة العباسية منذ تأسيسها، ومن سوء حظ

الأمة أن عهده دام خمسة وعشرين عاما تقريبا استشرى الفساد خلالها، وانتشرت الفتن داخل وخارج البلاد حتى مقتله سنة 320هـ - 932م حيث طغت على الدولة العباسية موجة من الاضطرابات والفتن والجراح التى لم تلتئم الا بعد فترة طويلة، أما الفترة التالية حتى سنة 322هـ - 934م فقد شهدت هى الأخرى المزيد من الفتن فى عهد القاهر بالله حيث ثار عليه الجنود، وقام كبار رجال دولته بعزله وحبسه حتى مات سنة 339هـ(6).

شئون الخلافة:

سبقت الإشارة أن الخليفة العباسى فى العصر الأول كان رأس الدولة ومصدر السلطة ، ومرجعا لكل شئون الدولة، وقد أحيطت شخصيته بالرهبة، فضلا عن العظمة، مما دفع الخلفاء إلى عدم إمامة الناس فى الصلاة، أو خطبة الجمعة كما كان يفعل الخلفاء الراشدون، وتلقب الخليفة العباسى بلقب إمام، مما حمل فى مضمونه تأكيد المعنى الدينى فى الخلافة وأنهم الأئمة.

هناك نقطة أخرى جديرة بالملاحظة وهى مركز الوزير حيث اتخذ العباسيون منصب الوزير من نظام الحكم الفارسى، فكان الوزير ساعد الخليفة الأيمن، يقضى فى جميع شئون الدولة باسمه، وكان له الحق فى تنصيب العمال وصرفهم، والإشراف على كافة شئون الدولة، إلى جانب نصح الخليفة ومساعدته، غير أن هذه الوظائف جعلت المخاطر محفوفة بمركز الوزير، وقد سبقت الإشارة أن أبا سلمة الخلال لقى حتفه على يد السفاح، وكذلك يحيى البرمكى وأسرته على يد هارون الرشيد.

وعلى الرغم من الهيبة التى كان الوزراء يظهرون بها فى أعين الناس، إلا أن ضعف الوزراء لدى الخلفاء كان أمرا طبيعيا، فضلا عن أن المنصب نفسه قد تطور بالتالى فى فترة الانحلال الأولى حيث كان

اطمئنان الخلفاء إلى العنصر التركى فى مناصب الاستيزار والمناصب العامة الأخرى، وكان من نتائج ذلك تسلط هذا العنصر على مرافق الدولة وإهمال أصول الدعوة العباسية من سياسية، وإدارية، وثقافية، ودينية، وحين انقسم الأتراك فضعف أمرهم أراد خلفاء الدولة العباسية فى فترة الانحلال استيزار عناصر جديدة من رجال العلم أمثال بنى خاقان، وبنى الفرات، وبنى وهب، وبنى قيله، وبنى مخلد، غير أن المنافسات بينهم لتولى المراكز القيادية ألحقت فسادا بالدولة لا يقل عن الفساد الذى ألحقه الأتراك.

وتذكر المصادر ما ردده الخليفة الراضى بشأن سوء أحوال الخلافة قائلا:" وكأنى بالناس تقول: رضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى حتى يتحكم فى المال، وينفرد بالتدبير، ولا يدرون أن هذا الأمر قد فسد قبلى، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى...".

وقد استخلص زعيم القادة الأتراك وظيفة إمارة الأمراء، وصار بموجبها أكبر رئيس فى الدولة الإسلامية تاركاً المظاهر الشكلية للخليفة وقد اتفق ابن رائق آمر الجيش مع القادة الكبار أن يتولى بنفسه- فى سنة 304 هـ- إدارة الدولة ورئاسة الجيش معا، وصار منصب الخليفة شرفياً فقط حيث يتسلم راتبه الشهرى، ومع ذلك فقد بقيت بعض المزايا الخاصة بالخليفة رمزية على الأقل، وحرص أمير الأمراء التركى أن يحفظ للخليفة هذه المظاهر الشكلية بما لا يجرح شعور العامة، فالمراسيم والقوانين تصدر باسم الخليفة، وهو مرجعهم الدينى الذى يلجأون إليه فى الشدائد "ويتوسلون به إلى الله".

وكان لتدهور أوضاع الخلافة أن قوى أيضا منصب الوزارة ومع ذلك كان الخليفة يقصى الوزير عن منصبه أو يقتله إذا ارتاب فى تصرفاته وكان هذا المعنى هو السائد فى الفترة الأولى للدولة العباسية، أما فى فترة

انحلال الدولة فقد تبوأ منصب الوزير درجة عالية من الأهمية، وربما نافس الوزير صاحب السلطة العسكرية نفسه، أى أمير الأمراء، بل لقد أصبحت الوزارة فى مرحلة لاحقة وراثية فى بعض القبائل، مثل آل الفرات، وبنى وهب، وبنى مثلة كما سبقت الإشارة.

بروز الولايات الاسلامية الانفصالية الاستقلالية :

أما نتائج هذا الانحلال فقد عكست تأثيراتها بشدة، على انقسام الدولة العباسية إلى دوليات، ومن ناحية أخرى فقد قوى أمر أصحاب المذاهب والتيارات المخالفة لمذهب الخلافة ، فكان طبيعيا أن تتجزأ الدولة إلى دويلات، أو بمعنى أبسط ،فقد نجحت الدعوات الانفصالية من الناحية الواقعية، مع الإبقاء اسميا على الخلافة كرمز ، وكانت هذه الدويلات التى استقلت فى آسيا استقلالا حقيقيا عن دولة الخلافة على النحو الآتى:

1- الدولة الصفارية : (247- 289هـ):

تتعارض المصادر[7] فى فترة حكم هذه الدولة التى تأسست على يد يعقوب بن الليث الصفار الذى أغار على الدولة الطاهرية فى خراسان والتى كان قد أسسها طاهر بن الحسين فى عهد المأمون سنة 205هـ. ففى حين تذكر إحدى الدراسات أن هذه الدولة قد امتدت من سنة 247 إلى سنة 289هـ، فإن مصادر أخرى تذكر أنها شملت الفترة من 254- 290 هـ، والواقع أن الخوارج حينما ثبتوا أقدامهم فى سجستان منذ زمن أبعد من ذلك، ومن الأرجح أنهم منذ أوائل القرن الثالث الهجرى قد أغاروا على السكان فى قسوة، ولم تتمكن الدولة العباسية من إخضاعهم، لدرجة أنهم استولوا على العاصمة نفسها لسجستان.

شهدت الفترة 247- 253هـ أحداث غارات متعددة وقتال تجاه الخوارج انتهت باستيلاء يعقوب بن الليث على هراة، وبوشنج، ثم قاتل أمراء الترك، والديالم المتاخمة لسجستان حيث أذعن له هؤلاء الأمراء

ومعهم أمراء الملتان، وذابلستان، والسند، ومكران، وفى سنة 256هـ، استولى على كرمان، بعد أن ضم إقليم فارس إليه، وفى سنة 259هـ استولى على نيسابور قاعدة الطاهرية [8]. وحارب الحسن بن على مؤسس الدولة العلوية فى طبرستان وهزمه، وكتب يعقوب إلى الخليفة العباس أن يوليه شرطة بغداد فأجابه أخ الخليفة إلى ما طلب، غير أن يعقوب أراد أن يهاجم بغداد نفسها، ففشل، وأخذ يحارب بعض ولاة الخليفة واستولى على الأهواز.

توفى يقوب بن الليث سنة 265هـ، وخلفه أخوه عمر بن الليث، حيث استقرت له بلاد المشرق وطمع فى بلاد ما وراء النهر، وطلب من الخليفة المعتضد أن يوليَه إياها، فكانت تلك الولاية سببا فى القضاء عليه، حيث ولاه الخليفة بالفعل هذه البلاد، ويذكر الطبرى أن كتاب الخليفة بعزل إسماعيل بن أحمد السامانى عن ما وراء النهر قد قرىء فى بغداد وأن عمرا قد تولى مكانه، فلما جاء رسول الخليفة إلى عمرو يخبره بذلك قال عمرو: ما هذا؟ فقال الرسول: هذا الذى سألت، فقال عمرو، وما أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى ذلك إلا بمائة ألف سيف، فقال الرسول: أنت سألته، فشمر الآن لتتولى العمل فى ناحيته، وتذكر المصادر أن السامانيين[9]. قد حاربوا عمرا فى ربيع سنة 287هـ وهزموه شر هزيمه، وحملوه أسيرا إلى بغداد، وتولى الحكم بعده حفيده طاهر بن محمد بن عمرو لكنه قبض عليه هو الآخر وأرسل، مع أخيه إلى بغداد، وكان هذا إيذانا بانتهاء هذه الدولة التى ظلت دولة قوية قرابة النصف قرن، وبالرغم من أنها كانت حركة انفصالية فى ظاهرها، إلا أن أمراءها لم يقطعوا كل الصلات مع الخليفة، وإن كانوا قد استمتعوا بالاستقلال وذكرت أسماؤهم مقرونة باسم الخليفة على المنابر، وكانوا شديدى الحرص على بيت المال وضبط موارده، وكان عمرو عادلا فى حكمة مساويا بين رعيته، على جانب من الدهاء وحسن الإدارة.

2- الدولة الطاهرية: (205- 259هـ) (820- 872م):

أسس هذه الدولة الأمير طاهر بن الحسين بن مصعب الخراسانى، وهو أحد قواد المأمون، وأدى دورا هاما فى الفتنة بين الأخوين، الأمين والمأمون،و يرجع إليه الفضل فى فوز المأمون على أخيه، فكافأه المأمون بتوليته الجزيرة وجانبى بغداد، ثم ولاه أمر خراسان، وما إليها إلى أقصى الشرق، ومن الأرجح أن الثقة التى وثقها المأمون بطاهر جعلته يطمع فى الانفصال عن الدولة العباسية، وبالفعل أعلن عصيانه على الخليفة سنة 207هـ مما جعل الأمور تسوء بينهما، ولكن الخليفة أدرك قوة سلطان طاهر فى إقليمه، فأجحم عن الإضرار به[10]. ويظهر أن المأمون قد سلط عليه فيما بعد من دس السم، فهلك. ويتابع ابن طباطبا تطور العلاقات بين الخليفة المأمون وطاهر الخراسانى قائلا[11]:" كان المأمون، لما ولى طاهر بن الحسين خراسان، استشار فيه أحمد بن أبى خالد الأحول وزيره، فضرب أحمد الرأى فى توليته طاهر، فقال المأمون لأحمد: إنى أخاف أن يغدر ويخلع، ويفارق الطاعة، فقال أحمد: الدرك فى ذلك على، فولاه المأمون، فلما كان بعد مدة، أنكر المأمون عليه أمورا، وكتب إليه كتابا يتهدده، فكتب طاهر جوابا أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون، فقال لأحمد: أنت الذى أشار بتولية طاهر، وضمنت ما يصدر عنه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته، وإلا ضربت عنقك، فقال أحمد: يا أمير المؤمنين طب نفسا، فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه...."، ويضيف صاحب الفخرى قائلا:" ثم أن أحمد أهدى لطاهر هدايا فيها كوامخ مسمومة- طعام فيه بهارات- وكان طاهر يحب الكامخ، فأكل منها فمات من ساعته".

وكان عبد الله بن طاهر هو أبرز أمــراء آل طــاهر، وقــد ولاه المأمون محاربى شيث بن ربعى، ثم ولاه شرطة بغداد، ثم بعث به إلــى مصر لتوطيد الأمن هناك، وفى سنة 213 هــ تولى عبد الله بــن طــاهر خراسان وما إليها من بلاد المشرق، فثبت أركان ودعــائم حكــم الأســرة الطاهرية فيها، والتى توسعت حدودها حتى بلغت تخــوم الهنــد، ونقلــت العاصمة من مرو إلى نيسابور، وظلوا فى الحكم حتى استيلاء الصفاريين على بلادهم، كما سبقت الإشارة، غير أن الدولة الطاهرية رغم هذا التوسع وتوطيد أركانها، فأنها كانت تدين اسميا لدولة الخلافة، أما مــن الناحيــة الفعلية فقد استقلت بالبلاد، واعتبرت أولى الدول الفارسية المنفصلة عــن الدولة العباسية، وكان تعاقب الطاهريين على الحكم كالأتى: طــاهر بــن الحسين (205- 207هــ) وطلحة بن طاهر (207- 213هــ)، عبد الله بن طاهر (213-230هــ) وطاهر بــن عبــد الله (230- 248هــــ)، ومحمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (248- 259هــ).

3- الدولة السامانية (216- 389هــ) (874- 999م)

والدولة الغزنوية (351- 582هــ) (862- 1186م):

تنتسب الدولة السامانية إلى أسرة فارسية، وكلمة "سامان" هى لقب دينى لجد هذه الأسرة الذى كان كاهنا ثم أسلم فى العصر الأموى على يــد أسد بن عبد الله القسرى والى خراسان، واتصل به، وسمى ابنــه الأكبــر باسمه، و كان لأسد بن سامان أربعة بنين وهم: نوح، وأحمــد، ويحيــى، وإلياس، وقد ارتفعت مكانتهم فى دولة المأمون، فولاهم والــى خراســان، غسان بن عباده تلبية لأمر الخليفة، على بعض الأقاليم، فكان نوح أميــرا على سمر قند، وأحمد أميرا على الشاش، وأشروسنة، وإلياس على هراة، وعاش أحمد أكثر من إخوته، فصار إليه حكم سمر قند، وهراة، والشاش، وأسروشنة إضافه إلى بلاد فرغانه، وأخذ سلطانه يتسع حتى امتد إلى بلاد

الصفد، وفى سنة 261هـ خلعه ابنه نصر، وكان أول حاكم استقل عن الدولة، ومقره سمر قند، واضطر الخليفة المعتمد أن يبعث إليه تقليدا بولايته على كافة بلاد ما وراء النهر.

وتضطرب المصادر حول ذكر أسماء حكام هذه الدولة الذين توارثوا السلطة، غير أن إسماعيل بن أحمد بن أسد هو الذى اشتهر وخلف أباه على سمر قند ثم بلاد ما وراء النهر سنة 261هـ، وكانت هذه الجهود المثمرة أساسا فى تكوين هذه الدولة. وفى سنة 721هـ اضطربت بخارى، وطلب أهلها من نصر أن ينقذهم، فبعث إليهم أخاه إسماعيل فوطد الأمن فيها، وحكمها بالنيابة عن أخيه، وفى سنة 272 هـ، عهد الخليفة المعتمد بولاية كافة بلاد بخارى والمشرق إلى نصر، الذى تمكن بمساعدة إسماعيل من القضاء على الثورات والفتن المحلية، غير أن الفتنة نفسها امتدت إلى الأخوين نصر، وإسماعيل حيث تغلب جيش هذا الأخير على جيش نصر، وتم أسره، لكن الأخوين تصافيا، وصار نصر حاكما على سمر قند إلى أن مات سنة 279هـ.

برز نجم إسماعيل فى الفترة التالية، فوطد أركان دولته، والتى اتسعت حتى بلغت أقصى حدود المشرق، وقضى على عمرو بن الليث الصفار أمير خراسان، كما قضى على محمد بن يزيد العلوى صاحب طبرستان، وبموت إسماعيل سنة 295هـ فى مدينة بخارى، فقد تعاقب الأمراء على حكم هذه الدولة حتى سنة 389هـ، وهو ما يستدعى وقفة لتفسير أحداث هذه الفترة، لما عكسته من تأثير على أحوال الأقاليم الإسلامية فى آسيا.

فقد تولى الحكم بعد إ سماعيل ابنه أحمد، وأمره الخليفة على ولاية أبيه، واستطاع أحمد القضاء على الدولة الصفارية، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، ثم ضم[12] الأقاليم التى كانت لها، غير أنه توفى فى سنة 301هـ

وتوسعت الدولة السامانية أكثر فى عهد ابو الحسن بن نصر فضمت قزوين وقم، وهمذان، ونهاوند، والدينور، وفى عهد نوح بن نصر بدأ النزاع بينه وبين بنى بويه، واستطاع نوح أن يسترد الرى، وبلاد الجبل من بويه، لكن الفتن ما لبثت أن اشتعلت مع البويهيين وأدت إلى حروب عديدة بينهما انتهت بالصلح، ثم تعرضت الدولة السامانية لأزمة أخرى بعد عام 366هـ حيث ثار القادة على أميرهم، فاستنجد بآل سبكتكين الغزنوية- أصحاب غزنة- وانتصرت جيوش السامانيين بالقرب من هراة، واستعاد الأمير نوح الثانى بن منصور إقليم نيسابور وولى عليه وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقبه سيف الدولة، ولقب أباه سبكتكين ناصر الدولة، ولما توفى نوح بن منصور سنة 387هـ قام بعده ابنه منصور ابن نوح، وفى عهده وقع الخلاف بينه وبين محمود بن سبكتكين الغزنوى الذى ثار عليه وقضى ابن سبكتكين ا لغزنوى على الدولة السامانية لكى تقوم الدولة الغزنوية، والواقع أن هذه الفترة قد شهدت أيضا تعاظم نفوذ الحرس التركى الذين تدخلوا فى السياسة وأسقطوا هيبة هذه الدولة، وكان ظهور آل بويه فى الغرب، والأتراك القرخانيين فى الشرق بقبائلهم الطورانية النازحة من آسيا الوسطى، إيذانا بسيطرتهم على العالم الإسلامى وهو ما يستدعى التعرض للغزنويين وبنى بويه والتى ظهر فيها أقطاب الأدب والعلم المسلمين أمثال الخوارزمى، والفارابى، والمتنبى، وابن سينا، والطبيب الفيلسوف الرازى وغيرهم.

إن تقويم أوضاع الدولة السامانية، وما عكسته من بصمات واضحة فى تاريخ العلاقات الإسلامية السياسية يتضح حينما تمكن ألب تكين التركى، أحد قواد السامانيين أن ينفصل عن جسد الدولة السامانية سنة 351هـ- 962م ويؤسس دويلة مستقلة عن غزنة، وخلفه سبكتكين سنة 366هـ- 977م فأعلن ولاءه للسامانيين، وفى سنة 384هـ- 994م استطاع ابنه محمود إخماد فتن السامانيين، وسمى بأمير خراسان.

مد سبكتكين سلطانه في الشرق، واتخذ من مدينة بيشاور[13]. ثم استولى على خراسان، فولاه عليها نوح بن سامان سنة 384هـ ثم استولى على جزء كبير من الهند وعلى كابول فى أفغانستان، وقد استقل سبكتكين فعليا عن السامانيين، غير أنه من الناحية المظهرية كان يعترف لهم بالسيادة، ولما تولى ابنه إسماعيل زمام الأمور، فقد اتسم عهده بالصراع على السلطة مع إخوته، ولم يلبث أخوه محمود أن سيطر على الحكم فاستولى على غزنة، وخراسان سنة 387هـ- 997م، وأرسل إليه الخليفة القادر لينعم عليه بلقب يمين الدولة وأمين النقود مقترنا باسمه بألقابه الجديدة، وانتهز محمود فرصة اشتعال الاضطرابات والفتن فى الدولة السامانية، فخلص خراسان من حكمهم وجعل نيسابور مقرا له، وقضى حياته فى الجهاد فى سبيل الإسلام، ونشره فى بلاد الهند، فقام بعدة غزوات من سنة 391هـ- 1000م، وارتفعت راية الإسلام فى مناطق شاسعة من قلب آسيا وكتب إلى الخليفة فى بغداد عن أخبار فتوحاته الإسلامية وتمكنه من بسط نفوذ الدولة الإسلامية على جزء كبير من البنجاب وبلاد الأفغان، وبعد وفاته بدأ الضعف يتسلل إلى الدولة حتى كانت نهايتها سنة 578هـ على أيدى السلاجقة بزعامة طفرلبك، وفى تقويم الدولة الغزنوية يمكن القول أنها كانت دولة سنية، متشددة، وربما يعزى نجاحها فى نشر الإسلام في قلب آسيا والهند وأفغانستان إلى طبيعة حكم أمرائها الذين كان بأيديهم جميع الأمور، فضلا عن فعالية النظام الإدارى وأساليب الحكم فى الأقاليم الخاضعة لها، ومما يجدر ذكره ما قامت به من حملات ناجحة على طائفة الإسماعيلية، وهو ما جعل الخليفة العباسى راضيا عنها.

وفيما يتعلق بالحركة الفكرية والثقافية، فقد شهدت هذه الفترة نشأة الأدب الفارسى، ففيه نظم الفردوسى (الشاهنامة)، وفيه نقل الوزير العالم البلعمى كتاب تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية، ويصف كارل بروكلمان هذه الحركة الفكرية والثقافية قائلا[14].:"..... وفى هذا الوقت، تفتح الوعى القومى عند الفرس من جديد، بعد أن استعبدتهم سياسة العرب السياسية والدينية زمنا طويلا، ومع أن الفرس تفوقوا على العرب فى إدارة الدولة وفى النواحى الثقافية، منذ ابتداء الدولة العباسية، فقد كانت خدماتهم ذات فائدة للعرب فيما بعد.

إذ لم يعد من الممكن إقصاء لغة التنزيل عن الشئون العامة وعن الأدب، غير أن الفرس تذكروا شرف لسانهم القومى وعظمته ... وعلى الرغم من أن الشعب لم ينس فن إنشاء الشعر....، فقد لمع رودكسى أول شاعر غنائى فارسى.... وعلى الرغم من أن شعره لم يخل من الكلمات العربية، وأن الأوزان التى ابتكرها كانت مشابهة لشعراء الفرس ومفرغة من القوالب العربية،- على الرغم من ذلك- فقد دعا أودكى فى منظومته إلى فلسفة فى الحياة، بعيدة عن الهم،والغم، فأسس بذلك ملحمة تعليمية هى من أخصب فروع الأدب الفارسى، ويضيف بروكلمان قائلا:".... وبلغت الجغرافية العربية ذروتها حيث ألف الوزير الجيهانى كتابا فى وصف البلدان المجاورة، ووضع زيد البلخى مصورا جغرافيا، وجعله ذيلا لأطلس إسلامى".

وفى تقويم الدولتين السامانية والغزنوية معا فقد سبقت الإشارة إلى الدور الذى قام به سبكتكين وابنه محمود فى وقف سيل الأتراك الفرخانيين عندما أرادوا التسرب إلى الدولة السامانية، واستطاع الغزناويون بعد ذلك توطيد أقدامهم فى جيحون حتى خراسان بعد مؤازرة الأتراك للغزناويين وغزوهم الهند والتوغل داخل البنجاب ولاهور وملتان والعراق وخراسان

وطخارستان وبلخ وما وراء النهر وسجستان، واتخاذ "غزنة" مقرا لهم، وقد توسع ابن الأثير(15). فى سرد أحداث الفترة اللاحقة على سنة 366 ، ثم الاستيلاء على قلب آسيا سنة 422هـ.

غير أن الصراع على السلطة بين ابناء سبكتكين، قد أضاع هيبة الدولة الغزناوية، ثم انقسمت إلى وامارات، وفي مرحلة لاحقة تمكن الأجانب منها مثل التركستان وسلاجقة فارس- كما سيأتى تفصيل ذلك- واستطاع الغوريون أصحاب أفغانستان توجيه ضربة قاصمة إلى الغزنويين فقضوا عليها سنة 582هـ- 1186م.

والواقع أن هذه الدولة لا تختلف عن الدولة السامانية، أو الدولة الصفارية من حيث أساليب الحكم التى لا تعتمد إلا على القوة، ثم يدب الضعف فى جسد الدولة حتى تنهار، حدث هذا للدول الثلاث: الصفارية، والسامانية، والغزنوية، غير أن ظهور وبروز هذه الأخيرة كان بمثابة أول نصر للعنصر التركى على العنصر الإيرانى فى ميدان زعامة العالم الإسلامى فى حين انتقلت أهمية العنصر العربى تماما من مركز الدائرة إلى محيطها، وتذكر المصادر علو شأن العلماء، والحكماء، والفلاسفة، والشعراء وأبرزهم – فى هذه الفترة- المؤرخ العربى "العتبى" والمؤرخ الفيلسوف العالم أبو الريحان محمد البيرونى الذى قام بعدة رحلات علمية إلى أقاليم الهند الشاسعة ليحيط بهذه الثقافة الفنية ويسجلها فى مؤلفيه القيمين: "تحقيق ما للهند من مقولة"، و"الآثار الباقية عن القرون الخالية".

4- دولة آل بويه (334- 447هـ) (945- 1055م):

ينتسب البويهيون إلى أبى شجاع بويه الذى ينتهى نسبه إلى يزدجرد من آل ساسان ملوك الفرس، وقد سكنت هذه الأسرة(16) فى الديلم فى الجنوب الغربى من بحر قزوين، وتسمى هذه البلاد أيضا بلاد جيلان، وسكانها قسمان: الجيل، وهم سكان السهول ويسمون أيضا الجيلان،

والديلم، وهم سكان الجبال،و كانت أهم أقاليمها روزبار، والجيلان والديالمة ليسوا فرسا، وإنما هم عنصر خاص، وقد فتحت بلادهم فى عهد عمر بن الخطاب ﷺ، ولما ظهر الحسن بن على الأطروش فى بلاد طبرستان دعا الديالمة إلى الإسلام، فاعتنقه معظمهم، وامتد سلطان الزيدية – كما ستأتى الإشارة– من طبرستان إلى بلاد الديلم.

كان لأبى شجاع ثلاثة أولاد هم: أبو الحسن على، وأبو على الحسن، وأبو الحسين أحمد، وقد عمل الثلاثة فى خدمة جيش مرداويج بن زيار الذى اعتمد عليهم لكفاءتهم العسكرية، فولى أبا الحسن على مدينة "كرج"– بين أصفهان وهمذان– سنة 319هـ– 930م، وهاجم أصبهان واحتلها سنة 321هـ – 923م، ثم استولى على أرجان ووجه أخويه لاحتلال الأقاليم المجاورة، فتم الاستيلاء على كازرون، وسجتان، وشيراز، وبذلك سيطر بنو بويه على بلاد فارس، وتذكر المصادر أن أبا الحسن أرسل إلى الخليفة الراضى(17) بالله بالطاعة والمطالبة أن يعهد إليه بما فى يده من البلاد وبعث إليه بألف ألف– مليون– درهم، فأجيب إلى طلبه، فلما بلغ ذلك مرداويج بن زيار، غضب وسار إلى أصبهان ثم إلى اصطخر للاستيلاء عليها وتم له النصر فى الأهواز فصالحه ابن بويه سنة 322هـ، ثم فكر مرداويج فى السير إلى بغداد، والقضاء على الدولة العباسية، وإنشاء مملكة فارسية، ساسانية مركزها "طيسفون" هى عاصمة الدولة الكسروية قبل الفتح الإسلامى، ويذكر ابن الجوزى(18). قول مرداويج:" أنا أرد دولة العجم وأبطل ملك العرب"، غير أن تخطيطه فشل وعاجلته المنية سنة 323هـ– 935م، فاستولى بنو بويه على ما كان تحت يده(19).

ضعفت الدولة العباسية وأنهكتها الاضطرابات والفتن فطمع علـى أبو الحسن فى احتلال بغداد، فسير جيشا إلى الأهواز فتملكها ثـم سـيطر على بغداد سنة 334هـ- 945م فخلع عليه الخليفة المستكفى بالله ولقبه معز الدولة، و لقب أخاه أبا الحسن عليا عماد الدولة، وأمـر أن تـضرب ألقاب الإخوة على النقود، وهكذا سقط السلطان العباسى سقوطا رسميا على حد قول طلس[20]. وأصبح الخليفة رئيسا دينيا فقط، ولـم يعـد لـه وزن ولا هيبة، وكان بنو بويه يدينون بالمذهب الشيعى وهو ما أوجد خـصومة مستمرة مع الخليفة العباسى الذى أصبح فى خطر منهم، لا سيما وأن بنى بويه كانوا يعتبرون العباسيين مغتصبين للسلطة من أصحابها الـشرعيين، أى العلويين، فلما أصبح منصب الخليفة رمزيا فقط، اسـتمر بنـو بويـه يسيطرون على الحكم فى بغداد، وكان عضد الدولة أعظم شخصية فى بنى بويه، فقد ورث ملك عمه معز الدولة وملك أبيه الحسن الذى توفى سـنة 366هـ- 976هـ وخلع ابن عمه بختيار، ثم سار نحو الموصل فطرد أبا تغلب الحمدانى منها، واستولى على ملك الحمدانيين، وبث جنوده فى طلب أبى تغلب فهرب هذا الأخير إلى بلاد الروم، وسيطر عضد الدولـة علـى ديار ربيعة وديار بكر، وديار مضر، وهكذا امتدت سيادته لتشمل ايـران، والعراق، والجبال، والرى، والحجاز، وما إليها، ومات عضد الدولة سـنة 372هـ ببغداد.

تولى العديد من بنى بويه السلطة بعد عضد الدولة بدءا بصمصام الدولة ومرورا بشرف الدولة، وبهاء الدولة، وفى عهده عـاود الأتـراك والديلم التصادم مع بعضهم البعض، كما خلع الخليفة العباسى الطائع وولى القادر الخلافة بدلا منه، ويشيد ابن الأثير وابن خلكان بمآثر عضد الدولـة الفكرية، فلما مات خلفه ابنه سلطان الدولة الذى انتزع منه شرف الدولـة الحكم ثم خلفه جلال الدولة حيث شهد بنو بويه فى عهده تـردى أوضـاع

الحكم إلى درجة كبيرة حيث سيطر الأكراد على البلاد ثم خلفه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان، فأبى نصر فيروز الملقب بالملك الرحيم والذى أقام ملكا إلى سنة 447هـ حين قدم السلطان طغرل بك السلجوقى مستوليا على بغداد، وهكذا زالت الدولة البويهية التى حكمت قرابة قرن وسيطرت على العراق، وفارس، واتخذت شيراز عاصمة لها، وبغداد مقرا لأمرائها[21]. والتى بلغت أوجها فى عهد عضد الدولة، الذى سيطر على أرجاء واسعة فى آسيا واعتنق سكانها الإسلام.

5- الحمدانيون (293- 402هـ):

تداخلت دولتا بنى بويه والحمدانيين فى فترتى حكميهما ورغم اختلاف واختلاط أماكن حكمهما فى نفس الوقت، فقد شهد القرن الهجرى الرابع أزهر عصور الإسلام فى العلم والأدب والحياة الفكرية عموما فى ظل الدولتين، فقد ذكر يعقوب الحموى أن أبا القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى، الفقيه الشافعى، أسس دارا للعلم فى بلده، وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم، كما تحدث[22] ابن النديم عن إنشاء دارى كتب إحداهما بالقصر، والأخرى برامهرمز وكان فى الثانية أستاذ يدرس الكلام على مذهب المعتزلة، وفى حلب جعل سيف الدولة من جامعها، ومن قصره دارى علم، يجتمع فيهما أئمة الأدب والدين فى عصره، وذكر أبو الفداء[23] أن سيف الدولة أجرى على أبى نصر الفارابى الفيلسوف الذائع الصيت، أربعة دراهم كل يوم، وروى ابن خلكان[24] أن ابن خالويه النحوى كان خشنا، فوقع بينه وبين المتنبى كلام فى مجلس سيف الدولة، فوثب ابن خالويه على ابن الطيب، وضرب وجهه بمفتاح كان معه، فخرج من المجلس ودمه يسيل على وجهه، وكان أبو الطيب المتنبى من أشهر الأدباء والشعراء فى بلاط الحمدانيين والذى ضم الكثيرين ممن ذاع صيتهم أمثال أبو الفرج الأصفهانى، وابن نباته الفارقى،

ومن الأئمة أبو الفتح بن جنى الموصلى، والشاعر أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى الأنطاكى، والأمير الفارس أبى فراس الحمدانى.

والحمدانيون أنفسهم كانت لهم إمارتان، إمارة الموصل وإمارة حلب، وينتسب الحمدانيون إلى حمدان بن حمدون الذى يرجع نسبه إلى قبيله تغلب التى هاجرت من نجد فى الجزيرة العربية إلى الجزيرة الفراتية،وبرز حمدان حينما ثار على الخلافة العباسية، واستولى على قلعة ماردين سنة 283هـ- 895م، غير أن الخليفة المعتضد قضى على تمرده وزجه فى السجن[25]. وتذكر المصادر[26] بروز نجم هذه الأسرة فى عهد الخليفة المكتفى بالله الذى عين عبد الله بن حمدان أميرا على الموصل،وما يليها سنة 292هـ- 904م، وقد تعرضت إمارة الموصل للعديد من مؤامرات الأتراك وبنى بويه على السواء، لكن الحمدانيين صمدوا وخاصة فى عهد ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان، واستمرت هذه الإمارة الحمدانية حتى قضى عليها بنو بويه سنة 368هـ[27]- 979م كما سبقت الإشارة – وتزخر الفترة من سنة 333هـ إلى سنة 402هـ بغزو الحمدانيين لبلاد الروم والتوغل فيها وهزيمة الروم فى وقعات كثيرة وخاصة فى عهد سيف الدولة، وحين خلفه ابنه سعد الدولة فانه لم يقم بعمل يذكر، أما أبو الفضائل سعيد الدولة ابن سعد الدولة فقد كان صغير السن، فتولى مولاه لؤلؤ فطمع الخليفة العزيز الفاطمى بتملك حلب، وجهز جيشا واستنجد لؤلؤ بملك الروم فأنجده بجيش كبير، لكن قائدى الجيشين فضلا الصلح فى حين رفضه الخليفة العزيز الفاطمى، ووصلت الدولة الحمدانية إلى درجة كبيرة من الضعف والتفكك حتى كانت نهايتها على أيدى الفاطميين سنة 393هـ- 1002م، وأصبحت حلب جزءا من الدولة الفاطمية..

وفى تقويم هذه الدولة، يمكن القول بقـــدر معقـــول مـــن الثقـــة، أنها كانت دولة عربية خالصة بعيدة عن العناصر الأعجمية وقضت وقتـــا طويلا تؤثر القتال فى سبيل الإسلام على الرغم من أن أمراءهـــا كـــانوا يتبعون المذهب الشيعى ومع ذلك فأنهم لم يفرضوه على رعايـــاهم، بـــل تركوا لهم حرية الدين والمذهب وهو ما يوضح ما سبقت الإشارة إليه من النهضة الفكرية الإسلامية الشاملة فى عهدها.

6- مـــن الدولـــة الزياديـــة 203- 253هـــ، إلـــى الدولـــة الزيديـــة 250- 355هـ والدولة الساجية 266- 318هـ:

فى تتبع مرحلة انحلال الدولة العباسية ونتائجه من حيث انقسامها إلى دويلات ترتبط بها اسميا، لابد من التعرض إلى دولتين إحداهما فـــى اليمن والأخرى فى الكوفة، والاثنان تتشابهان فى ظروف انفصالهما رغم أن الدولة الزيادية لم تستمر سوى ما يقرب من نصف قـــرن، فـــى حـــين استمرت الدولة الزيدية أكثر من قرن من الزمان.

فقد كان أهل اليمن منذ نشأة دولة بنى العباس لا يقرون بها، لأنهم يميلون إلى آل على،و يرون أن آل العباس قد ظلموا العلويين، وفتكوا بهم، وقد ا نعكست عليهم هذه الأحداث، فلم يخـــضعوا خـــضوعا تامـــا لحكـــم العباسيين، وكانوا يتحينون الفرصة المواتية لتأسيس دولة علويـــة مـــستقلة ولم تهدأ ثورات أهل اليمن حتى بعث إليهم الخليفة المأمون بقائـــد عربـــى قوى هو محمد بن إبراهيم الزيادى أحد أبناء زياد بن أبى ســـفيان، وولاه اليمن سنة 203هـــ ونجح فى إخضاعها جميعا، وتصاعدت سلطته ونفوذه ولكنه استمر فى ولائه للعباسيين، وطال حكمه لليمن،وآل الحكم من بعـــده إلى أبنائه، وأحفاده حتى سنة 253هـــ وكانت هذه الدولة هى الأولى فـــى الحركات الانفصالية عن بغداد فى جزيرة العرب حيث لم تسيطر الدولـــة

العباسية على اليمن منذ ذلك الحين فى فرض مذهبها، وقامت بعد الدولة الزيادية دول علوية الهوى، زيدية المذهب إلى أيام الفتح العثمانى.

أما فيما يتعلق بالدولة الزيدية والتى استمرت فى الفترة من سنة 250هـ إلى 355 هـ، فشأنها شأن ظروف قيام الدولة الزيادية حيث كان العلويون ينتهزون أى فرصة للتمرد على الدولة العباسية لحقهم هم فى الخلافة، ففى أيام الفتنة بين الأخوين- المأمون والأمين- قاموا يطالبون بحقوقهم، ويعلنون الثورة على العباسيين،وكانت لهم حركات تمرد وعصيان أخرى، وأهمها حركة أبى السرايا السرى بن منصور، الذى ثار بالكوفة، ومعه ابن طباطبا سنة 199 هـ وهو محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم ابن الحسن، وامتد نفوذه حتى بلغ الحجاز، ولولا موت[28] ابن طباطبا، ثم موت أبى السرايا نفسه سنة 201هـ، لكان لهذه الحركة العلوية شأن آخر على حد رأى طلبس[29]. غير أن الحركة العلوية شهدت ثورة محمد ابن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على فى الكوفة خلال فترة حكم المعتصم، وذاع صيت محمد بن القاسم فى خراسان، وهو يدعو (الرضا من آل محمد) واستقطب الكثيرين حوله، ووقعت بينه وبين أمير خراسان عدة وقعات، ثم أسر محمد وسيق إلى المعتصم، فحبسه فى سامراء سنة 219هـ غير أنه تمكن من الهرب، ولم يعلم أحد عنه شيئا بعد ذلك، وأثار غيابه فجأة اعتقاد الكثيرين بأنه حى، لكنه غائب، وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلا.

وفى أيام المتوكل، الذى كان يعلن عداءه لآل على، وشدة كراهيته لهم، وهدم قبر الحسين وما حوله، ثار يحيى بن عمر بن يحيى بن زيد ابن على بن الحسين، فتمكن المتوكل منه، وحبسه فى بغداد، غير أن يحيى تمكن هو الآخر من الفرار، واستقطب الكثيرين حوله، ولكنه لم يوفق فى الوصول إلى هدفه، وقضى سهل بن هارون على حركته،ومع ذلك فقد

تمكن من الاستيلاء على الكوفة وبلغت دعوته بغداد ذاتهـا أيـام خلافـة المستعين، حيث قوى سلطان يحيى كثيرا وانضم إليه الكثيـرون، فبعـث المستعين بجيش قضى عليه ومثل بجثته، فلما بلغت أخباره الحسن بن زيد بن محمد ابن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحـسن، ثـار بطبرسـتان واستولى على عاصمتها أمل ثم على سائر أقاليمها، وعلى الديلم، واستطاع الحسن بن زيد أن يؤسس دولة قوية دامت نحو قرن، تولى فيها فى الفترة 250- 270هـ ثم أعقبه محمد بن زيد المعروف بالقائم بالحق فى الفتـرة 270- 278هـ وتمكن خلالها من إرسال دعاته لنشر دعوته الزيدية فـى أقاليم متعددة من آسيا، حتى تغلب السامانيون عليه ووطدوا أركان الدولـة السامانية (كما سبقت الإشارة).

وفى سنة 301هـ تمكن الحسن الأطروش بن على بن الحسين بن على ابن عمر بن زيد العابدين أن يعيد سلطان الزيدية من جديد على بلاد طبرستان والديلم، وظل إلى سنة 304هـ، ثم خلفه الحسن بن القاسم ابـن على ابن عبد الرحمن، ومعه أولاد الأطروش فى الفترة من سنة 304هـ إلى 305هـ حين انتهى أمر الدولة الزيدية.

وفى آسيا قامت فى أذربيجان سنة 266هـ حركة تمـرد أخـرى بقيادة يوسف بن أبى الساج عامل أرمينية وأذربيجان فى عهد المقتدر حيث قوى مركز يوسف، فثار على بغداد وأعلن انفصاله عنها، ولم تفلح جهود المقتدر فى القضاء على هذه الحركة، وتمكن ابن أبى الساج من القـضاء على جيش الخليفة، فأرسل هذا الأخير جيشا آخر،ومع ذلك تمكن ابن أبى الساج من فرض إرادته، وتقوية نفوذه فى أرمينية، وأذربيجـان، والـرى واستمر حكم هذه الأسرة على بلاد أذربيجان إلى سنة 318هـ.

7- الدولة الهبارية (240-416هـ):

هى دولة عربية قامت فى المنصورة ببلاد السند، فى الفترة من سنة 240 إلى سنة 416 هـ وتنتسب إلى صحابى جليل هو هبار بن أسود أحد قبيلة بنى أسد المتفرعة من قبيلة قريش الذائعة الصيت، وقد أسلم هبار فى سنة 8 للهجرة، وقدم حفيده المنذر بن زبير إلى بلاد السند فى معية الحكم بن عوانة الكلبى الوالى الأموى على بلاد السند فى سنة 112هـ (كما سبقت الإشارة).

ويعتبر عمر بن عبد العزيز الهبارى مؤسس الدولة الهبارية[30] العربية وقد شغل مناصب مرموقة فى الدولة الأموية ثم فى الدولة العباسية وقد استفاد من الخلافات القبلية بين العرب المقيمين فى السند حتى تزعم الحجازية، واستولى على حكم المنصورة بالقوة بعد نجاحه فى قمع الاضطرابات القبلية (أحداث مقتل عمران البرمكى سنة 226هـ، أحداث قتل هارون المروزى سنة 240هـ) وقد كان تابعا اسميا للدولة العباسية واستمرت معها العلاقات الطيبة فى المجالات السياسية والثقافية والتجارية حتى أن الخليفة المعتمد (256- 279هـ) قد وافق على ولاية عمر بن عبد العزيز الهبارى كأمر واقع فى بلاد السند لقوة نفوذه هناك، وبالمثل حينما تم تعيين أخيه حاكما عاما على الولايات الشرقية سنة 261هـ.

وتذكر المصادر التاريخية الشيء الكثير عن ولاية عمر الهباري لبلاد السند سوى دخول أحد الهند ملوك الإسلام وإهدائه جواهر نادرة له حيث قام بدوره بإهدائها للخليفة العباسى، كذلك فقد وحد عمر الهبارى بلاد السند برمتها ونشر فيها الأمن والاستقرار حتى توفى سنة 270هـ.

وبوفاته أصبح الحكم وراثيا فى الأسرة الهبارية،وكان الخليفة يوافق مضطرا، وبذلك انقطعت سلسلة مجيء الولاة من العراق إلى بلاد السند[31]. فقد تولى عبد الله بن عمر الهبارى (270- 310هـ) أمور بلاد

السند ووقعت في فترة ولايته حادثتان كبيرتان، الأولى أن ملكا سنديا (مهروك بن رائك) بعث إليه مستفسرا عن تعاليم الإسلام، فأرسل إليه عبد الله عالما عراقى الأصل أقام عنده ثلاث سنوات يلقنه تعاليم الإسلام وتفسير القرآن الكريم باللغة السندية حتى أسلم الملك وأمر بكتابة التفسير باللغة السندية وهو ما يعتبر أول تفسير للقرآن الكريم باللغة السندية فى بلاد السند، أما الحادثة المروعة الثانية فقد حدثت بمدينة الديبل التى كانت لها أهميتها الاستراتيجية عند العرب باعتبارها قلعة الاتصال بين بلاد السند والبلاد العربية، ففى سنة 280هـ خسفت الشمس وانتشر الظلام منذ النهار، وفى نفس الوقت حدث زلزال عنيف دمر منازل الديبل كلها، وبلغ عدد الموتى مائة وخمسين ألفا مما أفقد المدينة نشاطها التجارى، وأمر الخليفة المعتضد (279- 289هـ) بمساعدة[32] سكان المدينة. وقد ظل عبد الله ابن عمر الهبارى يحكم بلاد السند نحو ثلاثين عاما استطاع خلالها أن يقر الأمن وينشر الرخاء ويقوم بتبليغ واسع للإسلام.

وبعد وفاة عبد الله الهبارى فى سنة 300 هـ، تولى الحكم ابنه عمر الثانى ابن عبد الله الهبارى (302- 330هـ) وقد كتب المؤرخ الإسلامى الذائع الصيت أبو الحسن على المسعودى فى مؤلفه القيم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" يصف أحوال الوزراء والاستقرار والأخبار المختلفة عن المنصورة وأن عائلات عربية تنتمى إلى على بن أبى طالب تقيم هناك، وأن عمر الثانى قد فتح من جديد بعض المدن الكبيرة حول المنصورة مثل مدينة الور، وفى سنة 375هـ كتب المقدس البشارى يصف الناحية المذهبية للسكان وأنهم سنيون يتبعون مذهب أبى حنيفة، وأن المذهب الظاهرى الداودى بدأ ينتشر بين بعض العلماء هناك[33]. ويفسر الطرازى[34] ذلك قائلا:" ومعنى ذلك أنه لم يكن قد ظهر بعد أ ثر واضح للشيعة فى المنصورة حين زارها المقدسى...".

غير أنه وصل رجل شيعى من طرف الإمام عبيد الله المهدى وكان بمثابة أول داع شيعى يصل إلى بلاد السند وأجرى اتصالات مع علماء السند المسلمين لنشر المذهب الشيعى، ومن الأرجح أنه لم ينجح، فانتقل إلى إقليم الملتان ونجح هناك وبدأ الدعاة الشيعيون يفدون إلى المنطقة حتى استطاعوا بعد قرن من إقامة دولتهم فى الملتان ثم فى المنصورة فيما بعد، واختار الخليفة العباسى عالما سنيا كبيرا وأسرته بهدف الوقوف على التيارات الفكرية والسياسية الجديدة للشيعة فى بلاد السند واستطاعت هذه الأسرة خدمة الدين الإسلامى، وفى أحداث سنة 416هـ ذكر ابن[35] الأثير أن سكان المنصورة قد دخلوا فى المذهب الشيعى منذ سنوات قليلة،ويؤكد الطرازى أن الشيعة لم يستولوا على الحكم بالمنصورة في الفترة من 375إلى 401 هـ حيث طرد السلطان محمود الغزنوى حكام الشيعة من الملتان، ومن الأرجح – والرأى للطرازى[36] بأن الشيعة الذين طردوا من الملتان أو هربوا منها، قد جمعوا شتاتهم واستولوا على المنصورة سنة 401هـ حيث كانت الدولة الهبارية قد ضعفت وظهرت تيارات سياسية عديدة فى بلاد السند.

وفى الفترة التى برز فيها محمود الغزنوى، فإنه حاول القضاء على سلطة الشيعة التى استمرت فى الفترة من سنة 402 إلى سنة 416هـ وذلك عند عودته من بلاد الهند بعد أن فتح سومنات وعاد إلى غزنه حين سار فى طريقه إلى الملتان ومنها إلى المنصورة، غير أن جيشه تعرض لغارات حكام المنصورة ومع ذلك تمكن السلطان محمود الغزنوى من إسقاط دولة الشيعة بعد أن قتل الكثيرين منهم وغرق آخرون فى نهر السند، وانتقل الحكم منذ سنة 416هـ إلى أيدى الحكام الغزنويين التابعين للدولة الغزنوية وخرجت بلاد السند والملتان من أيدى الحكام العرب لتنتقل إلى الحكام الغزنويين فى أوائل القرن الخامس الهجرى.

8- الدولة الملتانية "151-401 هـ":

نسبة الى مدينة الملتان بإقليم البنجاب، وقد سبقت الإشارة إلى أن أول من فتح الملتان من العرب هو القائد الشاب محمد بن القاسم الثقفى فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموى وكان والى العراق هو الحجاج ابن يوسف الثقفى فى سنة 94هـ بعد فتحه لبلاد السند سنة 92هـ.

وكان أول حاكم مسلم لإقليم الملتان هو داود بن وليد العمانى من محمد بن القاسم الثقفى، ولا تذكر المصادر التاريخية اسم إقليم الملتان لمدة خمسة وخمسين عاما بعد ذلك لكون هذا الإقليم إقليما كبيرا منفصلا عن إقليم السند، ومن الأرجح أن داود العمانى قد استقل بحكم إقليم الملتان لنفسه إثر الاضطرابات السياسية التى قامت بعد مقتل محمد بن القاسم الثقفى، وبذلك انقطع الاتصال المباشر بين العرب فى إقليم السند، وبين العرب فى إقليم الملتان، وظلت حكومة الملتان فى أيدى الحكام العرب حتى أواخر العصر العباسى، ولكنها لم تكن تابعة لحكم والى المنصورة ببلاد السند وإن كانت تظهر ولاءها- اسميا- للخلافة الأموية ثم العباسية وتدعو لها فى الخطب.

شهدت الفترة من سنة 151 إلى 335هـ تولى عدد من الولاة على الملتان ففى سنة 151هـ أشار بعض رجال الدولة على هشام بن عمرو التغلبى بإعادة الوحدة بين السند والملتان وقد سبقت الإشارة أن هشام عاد إلى منطقة قندهار[37] للقضاء على الاضطرابات بدلا من مواصلة السير نحو بلاد الهند، ولا يتحدث المؤرخون لمدة ثلاثين عاما من هذا الحدث عن الملتان ويبدو أن الحالة فيها كانت مستقرة.

خاف أهل الملتان من إقامة محمد بن عدى التغلبى فى مدينتهم نظرا لاحتمال اشتعال العصبية القبلية هناك مثل المنصورة، ويذكر الطرازى[38] أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا لمدة تسعين عاما أخرى،

ثم اهتم المؤرخون والجغرافيون العرب بأخبار الملتان فى أواخر القرن الثالث الهجرى عند انتقال الحكم من أسرة داود العمانى إلى حكام جدد يقال لهم "بنو سامة" وتوالت زيارات المؤرخين العرب لهذه المدينة وكتبوا عن حكامها وتطورات الأوضاع فيها مثل المسعودى الذى زارها سنة 303هـ، والاصطخرى الذى زارها سنة 340هـ، وابن حوقل الذى زارها سنة 367هـ وكتب أن حكامها هم بنو منبه وأهلها على مذهب أهل السنة، ثم البشارى المقدسى الذى زارها سنة 375هـ وذكر أن حكام الملتان أصبحوا من الشيعة[39].

تضطرب المصادر التاريخية حول ذكر الفترة الزمنية التى استولى الشيعة فيها على الحكم فى الملتان، ويرجع الطرازى[40] من خلال الإشارات السريعة التى وردت فى المصادر التاريخية أن الخليفة الفاطمى الثانى بمصر العزيز بالله (375- 386م) هو الذى أسقط الدولة العربية السنية هناك بواسطة جام بن شيبان الذى حكم الملتان فى سنة 375هـ وأسس الدولة الشيعية فى الملتان وقام بتنظيم شئون الدولة إداريا وسياسيا والدعوة للمذهب الشيعى، ثم تولى الحكم من بعده الشيخ حميد الذى عقد صلحا مع السلطان سبكتكين سلطان غزنة سنة 381هـ.

وكان السلطان سبكتكين قد قام بحملة على لاهور فى سنة 380 هـ فهزم أميرها وتم الصلح بين الطرفين، لكن أمير لاهور خالف شروط الصلح، وتعقبته جيوش سبكتكين حتى نهر السند وهزمته.

وقد سبقت الإشارة إلى أن السلطان محمود الغزنوى الذى خلف السلطان سبكتكين انشغل فور توليه الحكم بمشاكل خراسان، ثم بدأ الحملة على بلاد الهند سنة 392هـ وفتح منطقة مجاورة لقندهار وكانت تابعة لأمير لاهور.

تولى أبو الفتوح داود بن نصر بن حميد الشيعى حكم الملتان سنة 396هـ، وحدثت مناوشات على حدوده بين حاكم لاهور والسلطان محمود الغزنوى الذى انتظر مساعدة حاكم الملتان حسب نصوص معاهدة الصلح التى كانت بين الدولة الغزنوية ودولة الملتان، غير أن حاكم الملتان أساء التصرف تجاه السلطان محمود الغزنوى وجيشه فى الخفاء، مما أضطره إلى مفاجأة حاكم الملتان والقضاء على الشيعة الذين أصبحوا خطرا على الدولة الغزنوية ذاتها، وأصبحت حدود المناطق التابعة لحكم السلطان وحدود الملتان متصلة ببعضها، وأصبحت الملتان تابعة للدولة الغزنوية.

غير أن الشيعة فى الملتان سرعان ما تمردوا على السلطان محمود الغزنوى، الذى قام بحملة عنيفة على داود بن نصر بن حميد حاكم الملتان وقضى عليه وعلى الدولة الشيعية هناك وعين عليها حاكما سنيا سنة 401هـ وهكذا سقطت الدولة العربية السنية فى الملتان بإقليم البنجاب فى سنة 375هـ لتقوم مكانها الدولة العربية الشيعية، وفى سنة 401هـ زالت الدولة الشيعية على أيدى الغزنويين، وصارت الملتان جزءا من الدولة الغزنوية.

وقد حدث تطور آخر فقد استولى الشيعة الذين طردوا من الملتان بواسطة الغزنويين على المنصورة ببلاد السند 402هـ، ومنها زحف الغزنويون إلى المنصورة واستولوا عليها وخرجت بلاد السند والبنجاب من أيدى الحكام العرب.

مراجع الفصل الثالث من الباب الثالث

(1) راجع على سبيل المثال: دكتور حسن على إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسى، القاهرة 1973، دكتور على حسنى الخربوطلى، الدولة العربية الإسلامية، البابى الحلبى القاهرة 1960..

(2) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، الجزء السادس، عصر الانحلال، مرجع سابق ص 8 وما بعدها حيث اعتمدنا على تحليلاته القيمة.

(3) راجع: ابن طباطبا، صفى الدين محمد بن على، المتوفى سنة 660هـ الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت 1386هـ/ 1966م.

(4) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، الجزء السادس، المجلد الثانى، مرجع سابق ص 10 نقلا عن كارل بروكلمان، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت 1965 ص 55.

(5) ابن خلدون، أبو الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة 597 هـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار المعارف العثمانية، الجزء الخامس، حيدر آباد، الهند 1358هـ ص 146- 148.

(6) القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على على المتوفى سنة 821هـ، صبح الأعشى فى صياغة الإنشا، الجزء الثالث ص 256- 258 .

(7) قارن: المسعودى، مروج الذهب، الجزء الرابع ص 203- 205 ومن المراجع الحديثة، دكتور محمد أسعد طلس ص 28،دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور ص 186.

(8) كما سيأتى تفصيل دولة الطاهرية فى موضع لاحق من الدراسة.

(9) سوف يأتى تفصيل الدولة السامانية فى موضع لاحق من الدراسة.

(10) ابن الأثير، الجزء السادس ص 255.

(11) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص 198- 200.

(12) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء العاشر ص 146- 148.

(13) عاصمة الإقليم الشمالى الغربى من باكستان وتقع على الحدود الأفغانية وتبتعد عن كابول عاصمة أفغانستان بحوالى 90 كيلو مترا، وكانت بيشاور تابعة لأفغانستان حتى القرن التاسع عشر كما سيأتى تفصيل ذلك فى موضع لاحق من الدراسة، راجع القرمانى، أبو العباسى أحمد بن يوسف الدمشقى، المتوفى سنة 685هـ، أخبار الدول وآثار الأول، مكتبة المثنى القاهرة..

(14) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، منير البعلبكى دار العلم للملايين، بيروت 1965.

(15) راجع: أبن الأثير ، الجزئين الثامن ص 225- 228، التاسع ص 45.

(16) ونسبهم بعض المؤرخين إلى بهدام جور أو سابور الملك الساسانى، راجع: ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ص 270، وراجع أيضا: ابن حلكان شمس الدين، أبو العباس أحمد بن حلكان الشافعى، المتوفى سنة 681هـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ابن الأثير، الجزء الثامن ص 197.

(17) راجع : العينى، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى، المتوفى سنة 855هـ، عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، أو تاريخ العينى " محظوط" دار الكتب المصرية، القاهرة ص 281- 284.

- البهيتمى، الإمام أحمد بن محمد المعروف بابن حجر الهيتمى، المتوفى سنة 974 كتاب إخوان الصفا بنبذ أخبار الحلفاء، مخطوط، دار الكتب المصرية، القاهرة ص 91- 93.

(18) ابن الجوزى، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الجزء السادس ص 268.

(19) الصولى، أبو بكر محمد بن يحيى، المتوفى سنة 335هـ، أخبار الراضى بالله والمتقى بالله، دار المسيرة، بيروت 1979ص 30.

(20) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب ص 97- 99.

(21) راجع : الخطيب البغدادى، أبو بكر أحمد بن علـى، المتوفى سنة 463هـ، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة 1931 ص 104- 106.

(22) ابن النديم، محمد بن إسحق أبو الفرج، المتوفى سنة 235هـ الفهرست، دار المعرفة ، بيروت 1978ص 138- 140.

(23) أبو الفداء، عماد إسماعيل بن محمد عمر، المتوفى سنة 732هـ المختصر فى أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت 1956 ص 458.

(24) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ص 64-66.

(25) ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الجزء الخامس ص 147.

(26) الدكتور أحمد قاعور، الدكتور شحادة الناطور، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى، مرجع سابق ص 191.

(27) أبو الفداء، الجزء الثانى ص 102- 103.

(28) وهو يختلف عن طباطبا، صفى الدين محمد بن علـى، المتوفى سنة 660هـ ومؤلف الكتاب الشهير الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية والذى أشرنا إليه فى العديد من الحواشى.

(29) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثاني، مرجع سابق ص 27، حيث استعرض تفصيلا أيضا ظهور العديد من الدويلات الجديدة في المغرب العربى وتونس ومصر وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة.

(30) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الثانى ص 327.

(31) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ص 298.

(32) السيوطى(المتوفى سنة 911هـ) جلال الدين عبد الرحمن بن أ بى بكر السيوطى تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الطاعة، القاهرة 1351 هـ ص 379- 384.

(33) البشارى (ا لمتوفى سنة 388هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدس البشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص 479.

(34) الدكتور عبد الله مبشر الطرازى،موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول ص 301.

(35) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء التاسع ص 241- 244.

(36) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول ص 302- 303.

(37) راجع ص.

(38) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الجزء الأول ص 305- 306.

(39) راجع: ابن حوقل (المتوفى سنة 337هـ)- أبو القاسم محمد بن على بن حوقل النصيبى البغدادى، المسالك والممالك ، ليدن 1800م (باب السند)

- المسعودى، مروج الذهب، الجزء الأول ص 376.

- البشارى (المقدس)، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، مصدر ســابق ص 480- 482
- الأصطخرى (المتوفى سنة 346هـ) أبو اسحاق إبراهيم بـن محمـد الفارسى الأصطخرى مسالك الممالك، ليدن 1870م.

(40) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحـضارة الإسلامية الجزء الأول ص 309- 311، نقلا عن: أبـى ظفـر نـدوى، تاريخ السند، أعظم كدة الهند 1947 ص 256 (بالأردية).

الفصل الرابع
عصر الانحلال الثانى
وتعاظم دور الفرق الإسلامية

❁ الخلفاء .

❁ الفرق الإسلامية وتأثيراتها :

1- الخوارج.

2- تجمع الفرق فى حركات معقدة.

3- الشيعة.

4- المرجئة.

5- القدرية والجبرية.

6- المعتزلة.

7- الإسماعيلية.

8- القرامطة.

❁ الفرق الإسلامية فى بلاد السند والبنجاب .

الخلفاء:

سبقت الإشارة إلى ما أفرزه عصر الانحلال الأول من حركات انفصالية استقلت عن الخلافة العباسية بشكل أو بآخر، والواقع أنه سواء تعلق الأمر بهذا العصر أو بالعصر الذى يليه فإن هذه الحركات الانفصالية – بالرغم من اختلافها سواء فى قياداتها أو فى دوافعها– قد ارتبطت فيما بينها بتسلسل الفترة الزمنية والتى جعلت الدولة العباسية تتآكل حتى فنائها، وتأسيسا على ذلك فقد عالجنا ظهور وبروز العديد من هذه الدويلات وكأنما هناك علاقة وثيقة بينها على نحو ما سبقت الإشارة إليه حيث تداخل الفترات الزمنية: آل بوية (334– 447هـ)، ودولة الحمدانيين (293– 402هـ)، والدولة الغزنوية[1](351– 582هـ)، والدولة الهبارية (240– 416هـ) ثم الدولة الملتانية (151– 401هـ).

وفيما يتعلق بخلفاء هذا العصر، فإن تصاعد موجة الفتن التى طغت على جسد الدولة أصبحت بمثابة جرح لم يلتئم أودى بالعباسيين إلى الانهيار تماما، فقد سبقت الإشارة إلى تضعضع شأن الخلافة بمقتل المقتدر، واستخلاف أخيه أبى منصور محمد القاهر بالله، وكان محبا لسفك الدماء، وعم الفساد، وساءات أحوال الدولة أكثر، وخلعه الأتراك وحبسوه إلى أن مات فى سنة 337هـ، وخلفه أبو العباس محمد الراضى بالله بن المقتدر، وكان سياسيا حازما، وأراد إعادة مجد الخلافة العباسية، وقد وصفه ابن طباطبا قائلا[2]:" ختم الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة انفرد بتدبير الملك.... وآخر خليفة وصل إليه العلماء، وآخر خليفة كانت مراتبه، وخدمه، وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين" ومع ذلك فقد كان جوهر السلطة فى أيدى القادة والوزراء، ولم يستطع منفردا تدبير أمور الدولة، فتقسمت البلاد، واسترجع الروم عامة الثغور فأفسدوا دولته، وفرقوا كلمته، ويؤكد طلس[3] أن أمور الدولة قد فسدت فى عهده،

وقد تجلت مظاهر هذا الفساد فى أمور منها، أن ابن قيلة وزيره كتب إلى يحكم التركى بطمعه[4] فى الاستيلاء على بغداد، ومنها أنه فى سنة 322هـ استفحلت خطورة مرداويج صاحب أصفهان، فعزم على إزالة الدولة العباسية، غير أنه قتل، ومنها أن أمراء الأقاليم قد قطعوا كل صلة لهم بالعاصمة، فبلاد فارس كانت تحت سيطرة على ابن بويه، فى حين سيطر الحمدانيون على الموصل، وديار بكر، وديار ابن بويه، فى حين سيطر الحمدانيون على الوصل، وديار بكر، وديار ربيعه، ومضر، أما مصر والشام فقد كانت تحت سلطان ابن طغج، وبلاد خراسان والمشرق تحت سيطرة نصر بن أحمد السامانى، وقد سبقت[5] الإشارة تفصيلا إلى هذه الحركات الانفصالية عن الدولة العباسية.

خلف اسحاق إبراهيم المتقى بالله أخاه الراضى الذى توفى سنة 328، وكان عازفا عن أمور السياسية والحكم، فازدادت البلاد اضطرابا وفوضى وقوى نفوذ الأتراك، والديالمة، واستولى توزون الديلمى على العاصمة فهرب الخليفة إلى الموصل، غير أن توزون تمكن منه وخلعه وكان الحمدانيون قد سيطروا على الجزيرة والشام ومصر، وخلفه أبو القاسم عبيد الله المستكفى بن المكتفى سنة 333هـ، وكان الديالمة مسيطرين على الدولة، بل أن ابن بويه قدم لاحتلال بغداد، واستقبله الخليفة الذى لقب بمعز الدولة وأخوه المطيع بعماد الدولة، وانتشر نفوذ الديالمة البويهيين فى بغداد حيث عانى سكانها من ظلمهم،وقد تم خلع الخليفة ليحل محلة عماد الدولة، مع أن السلطة الفعلية كانت بيد أخيه معز الدولة، وفى أيام عماد الدولة رد القرامطة الحجر الأسود إلى الكعبة- كما سوف يرد تفصيلا فى موضع لاحق- كما استقل كافور الأخشيدى بالشام ومصر، وفى سنة 363هـ بويع ابن عماد الدولة بالخلافة حيث زاد امتهان البويهيين للخليفة وخلعوه مستخلفين أبا العباس أحمد القادر بالله، وظلت

السلطة على ما هى عليه بأيدى البويهيين، ومع ذلك فقد رجع للخلافة العباسية بعض رونقها، وارتفع قدر العلم، وتصفه[6] المصادر بأنه آخر خليفة من بنى العباس صحب العلماء، ورفض الدنيا، وظهرت العرب فى عهده، وقام الإسلام أكثر إشراقا، وكذلك فتحت السند والهند فى عهده على يد آل سبكتكين- كما سبقت الإشارة- غير أن السلاجقة قد استولوا على الخلافة، وكانت أيام هذا الخليفة بمثابة صحوة ما قبل "موت" الدولة العباسية، هذا الموت الذى سبقته العديد من مظاهر الوهن، والضعف الذى أنهك جسد هذه الدولة لفترة طويلة من الزمن ثم الفساد الذى استشرى فى رأس هذا الجسد، ونعنى به الخلافة ذاتها والتى كان من الطبيعى أن تنهار انهيارا مزريا وخاصة فى أيام البويهيين.

ويلاحظ طلس ظهور وانتشار ظاهرة سمل عيون الخلفاء وتكحيلهم، ويفسر سر ذلك أن من شروط الخلافة عدم النقص البدنى، والعمى نقص بدنى، فمتى سمل الخليفة أصبح غير صالح لخلافة المسلمين، ويجب خلعه وكان بنى بويه، شيعة، زيدية، لا يعترفون بحكم العباسيين الغاصبين من وجهة نظرهم، فألغوا منصب الوزير، واكتفوا بتسميته" كاتب الخليفة" وصار لهم اتخاذ القرار فى بيت المال، وسواء تعلق الأمر بجوهر الخلافة أو شكلها، فقد استأثر آل بويه بجميع الصلاحيات والسلطات، بل طمعوا فى الخلافة ذاتها وقد سبقت الإشارة إلى ظهور دولتهم وبروزها فى الفترة من 334- 447هـ (945- 1055)، بالإضافة إلى دولة الحمدانيين 293- 402هـ، ودولة الغزنويين فى الفترة 351هـ- 1186م بما شملته فلسفة هذه الدولة بعناصرها المتباينة، وقوة أمر أصحاب العقائد المناهضة لمذهب الخلافة بدءا بالفترة بعد قتل عثمان وتولية على بن أبى طالب ومرورا بالدولة الأموية والدولة العباسية

فى عهدها الأول وانتهاءا بأفول هذه الدولة وتمثلت هذه الحركات فيما عكسته الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها وتوجهاتها حول الخلافة وهو ما يقتضى التعرض لها فى تفصيل غير قليل.

الفرق الإسلامية وتأثيراتها:

اشتد الخلاف بين المسلمين حول مسألة الخلافة، وتعددت وجهات النظر عقب وفاة الرسول ﷺ حيث لم يعين من يخلفه أو يبين كيفية اختياره، وأسرع الأنصار قبل وفاته إلى عقد اجتماع فى سقيفة بنى ساعدة للتشاور فى الأمر، وحضر هذا الاجتماع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح وغيره، واختلفت الآراء، رأى يقول أن تكون الخلافة من الأنصار لأن النبى ﷺ عندما هاجر إلى المدينة آمن به الأنصار ونصروه فى حين أن قوم مكة قد آذوه، فى حين رأى فريق المهاجرين أن تكون الخلافة فيهم لأنهم من قريش، والعرب لا تدين إلا لهم، واقترح فريق ثالث التوفيق بين الرأيين بمعنى أن يكون منهم أمير، ومن المهاجرين أمير، ورفض المهاجرون هذا الاقتراح وتمت بيعة أبى بكر الصديق التيمى القرشى.

لم يوافق على بن أبى طالب- الذى لم يكن حاضرا للاجتماع - حيث كان مشغولا بإعداد العدة لدفن الرسول ﷺ - لم يوافق أبى بكر، ولم يرضى عنها، ومنذ تلك اللحظة وقد تكون رأى رابع وهو أن تكون الخلافة فى بيت النبى وأن عمه العباس بن عبد المطلب، وابن عمه ابن أبى طالب هما أولى الناس، وأن كفة على بن أبى طالب ترجح، فهو أول الناس إسلاما، وزوج فاطمة بنت النبى ﷺ وأنه لا يمكن إنكار جهاده وعلمه، ويفسر ابن أبى الحديد فى نهج(7) البلاغة هذا الموقف قائلا: "إن عليا سأل عما حدث فى سقيفة بنى ساعدة قائلا فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول ﷺ، فقال على: "احتجوا بالشجرة(8)"،

و"أضاعوا الثمرة!"- يعنى أن يحتج بأنه وأهل بيتــه، الثمــرة، وقــريش الشجرة، والثمرة غير ما فى الشجرة.

ويرى أحمد أمين[9] فى هذا التعبير صدقا عما فى نفس على ابــن أبى طالب، وقد أيده بعض بنى هاشم والزبير بن العوام وبعض الأنصار، وكانت محصلة ذلك أن عليا[10] لم يبايع أبا بكــر الــصديق واســتمرت النظرية بأولوية على فى عهد أبى بكر وعمر، غير أنها خمــدت نتيجــة لعدل أبى بكر وعمر وعدم إثارتهما للعصبية القبلية فضلا عــن انــشغال المسلمين بالفتوحات الإسلامية- على نحو ما سبقت الإشارة إليه وما سوف يتم التعرض له تفصيلا- مما جعل الناس لا يثيرون الفتن.

زاد تبرم أنصار على عندما تولى عثمان بن عفان- وهو أموى- وتشجيعه للعصبية القبلية حيث بث الشعور بأنه العــرب وحــدة وحــرك عوامل العداء القديم الجاهلى بين بنى هاشم وبنى أمية، وانتشرت الحركات السرية فى آخر عهده تدعو إلى خلعــه، ومــن أشــهر هــذه الحركــات أو الجمعيات السرية عبد الله بن سبأ- وكان من يهود اليمن وأسلم والــذى تنقل بين البصرة والكوفة والشام ومصر قائلا:" إنه كان لكل نبى وصــى، وعلى وصى محمد، فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ووثب على وصيه!" وكان عبد الله بن سبأ من أكبر الذين ألبوا عليا على عثمان حتى قتل عثمان.

بايع كثير من المسلمين عليا، وأيده كبار المهاجرين، وخرج عليه طلحة والزبير ومعاوية يلصقون به أن له ضلعا فى قتل عثمان، أو علــى أقل تقدير أن كان فى استطاعته رد الناس عنــه، واحــتج بعــضهم أنــه – وقد بويع – فقد لزم عليه الاقتصاص من قتلة عثمان، ولم تبايع طائفــة من كبار الصحابة عليا كما لم تبايع غيره ولم تشترك فى الجــدل المثــار وفضلت العزلة ومن أشهر هؤلاء الــصحابة: عبــد الله بــن عمــر بــن

الخطاب، وأسامة ابن زيد، وسعد بن أبى وقاص، الذى قال:" إن رسول الله ﷺ أمرنى إذا اختلف الناس أن أخرج بسيفى فأضرب به عرض أحد، فإذا تقطع أتيت منزلى فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتينى يد خاطبة أو منية قاضية.

قتل الطلحة والزبير بعد انهزامهما فى وقعة الجمل، أما معاوية فكان أصعب مراسا إذ كان لديه جند الشام- كما سيأتى تفصيل ذلك- وكانت وقعة صفين، ولما أحس معاوية بأن الدائرة كادت تدور عليه أوعز إلى جنوده برفع المصاحف على رءوس الرماح، وطلب التحكيم إلى كتاب الله – وبالرغم من هذه المقدمة التاريخية الموجزة لا ترتبط بمجال هذه الدراسة- إلا أن هذه الظروف التاريخية قد رافقها تأسيس أكبر الفرق الإسلامية وهى الخوارج والشيعة والمرجئة.

1- الخوارج:

تعرض على بن أبى طالب لكثير من مضايقات الناس بعبارة: "لا حكم إلا لله" التى سرت سير البرق من خلال تشجيع معاوية، وكان على كلما خطب فى المسجد وجد من يقاطعه قائلا:" لا حكم إلا لله"، وخرج أناس خطب أحدهم قائلا:" أما بعد، فوالله ما ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن، أن تكون هذه الدنيا... آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والقول بالحق، وأن من وضر... فأخرجوا بنا أخواننا، من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كبور الجبال...."، ثم خرجوا إلى قرية قريبة من الكوفة وسموا بـ " المحكمة"- أى الذين يقولون لا حكم إلا الله- وهما اسمان يطلقان على الخوارج الذين أمروا عليهم رجلا منه اسمه عبد الله بن وهب الراسبى، أما اسم الخوارج فقد جاء نتيجة لخروجهم على على وصحبه، وسموا أيضا" الشراة"- بمعنى الذين باعوا أنفسهم لله"، وقد حاربهم على فى وقعة النهروان وهزمهم

ولكنه لم يتمكن من القضاء على فكرتهم، وزادتهم الهزيمة كرها فى على حتى قلته أحدهم[11].

ظلت الخوارج شوكة أيضا فى جنب الدولة الأموية، قاموا بتهديدها ومحاربتها باستمرار في شجاعة حتى كادوا فى بعض مواقفهم القضاء على الدولة، وانقسموا فريقين: فريق بالعراق وما حولها قرب البصرة وكانت لهم إسهاماتهم فى الفتوحات الإسلامية باستيلائهم على كرمان وبلاد فارس، واشتهر منهم نافع بن الأزرق، أما الفريق الثانى فكان بجزيرة العرب وهؤلاء كانت لهم أيضا إسهاماتهم فى الفتوحات الإسلامية باستيلائهم على اليمامة وحضرموت واليمن ومن أشهرهم أبو طالوت، ولم يتمكن الأمويون من التغلب على هذين الفريقين إلا بعد حروب طويلة استمرت طوال حكم الدولة الأموية.

تتلخص تعاليم الخوارج وآراؤهم فى صحة خلافة أبى بكر وعمر، وبصحة خلافة عثمان فى سنواته الأولى، فلماتغير وجب عزله، كما أقرت الخوارج بصحة خلافة على ولكنه أخطأ بقبوله التحكيم، فحكموا بكفره لما حكم، وطعنت الخوارج فى أصحاب الجمل: طلحة والزبير وعائشة، كما حكموا بكفر أبى موسى الأشعرى، وعمرو بن العاص، وبحث الخوارج فيمن يستحق أن يكون خليفة ومن لا يستحق، ومن يكون مؤمنا ومن لا يكون وقاموا بتشريح أعمال[12] الخلفاء وأنصارهم، وتفسير نظرية الخلافة عندهم هو وجوب أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين، وإذا اختير الخليفة فلا يصح أن يتنازل، وليس بالضرورة أن يكون قرشيا، بل يصح أن يكون من غير قريش ولو كان عبدا حبشيا، فإذا تم اختياره صار رئيس المسلمين، ويجب أن يخضع الخليفة تماما لأمر الله سبحانه وتعالى وإلا وجب عزله.

ويختلف الخوارج عن الشيعة الذين يرون بانحصار الخلافة في بيت النبي: علي وآله، وأهل السنة القائلين إن الخلافة في قريش، وقد جعلتهم هذه النظرية- أي الخوارج- خارجين عن خلفاء بني أمية ثم العباسيين لاعتقادهم أنهم ظالمون وغير عادلين ولا تنطبق عليهم شروط الخلافة، واصطبغت نظرية الخوارج بالصبغة السياسية في أول عهدهم، وفي عهد عبد الملك بن مروان مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية، حيث قرروا أن العمل بأوامر الدين- من صلاة وصيام وصدق وعدل- جزء من الإيمان، وليس الإيمان هو الاعتقاد وحده، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر.

اتسم الخوارج بالطبيعة البدوية العربية ولم يكونوا كتلة واحدة، وكعادة البدو فسرعان ما يختلفون وينضمون تحت ولاءات مختلفة يضرب بعضهم بعضا وهي سمة ظلت لاصقة بالبدو طوال فترات التاريخ، ولو كان الخوارج قد توحدوا لكانوا قوة لا يستهان بها ضد الدولة الأموية، وإذا ما عدنا إلى نظريتهم في الخلافة وتفسيرها، نلاحظ أن بعضهم يرى أنه لا حاجة للأمة إلى إمام، وإنما يجب على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم، وينقل عن علي ﷺ قوله عندما سمعهم يقولون: " لا حكم إلا لله"، قال: كلمة حق يراد بها باطل. وتفرقت فرقهم إلى نحو عشرين[13] فرقة كل منها تخالف الأخرى، ومن أشهرهم الأزارقة اتباع نافع بن الأزرق وكان من أكبر فقهائهم وقد كفر جميع المسلمين ما عداهم قائلا: "أنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحدا من غيرهم إلى الصلاة إذا دعاهم إليها ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يتزوجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفار العرب وعبدة الأوثان لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ودارهم دار حرب ويحل قتل أطفالهم ونسائهم.

ومن فرق الخوارج الأخرى النجدات، أتباع نجدة بن عامر الذى يرى أن الدين أمران: معرفة الله ومعرفة رسوله، ثم الأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمى ولا يزال أتباعه فى المغرب وهم غير مغالين ويختلفون عن الأزارقة المتشددين، وقالوا إن التزاوج يحل من غيرهم، ويتوارث الخارجى وهم يميلون إلى المسالمة، ثم فرقة " الصفرية" أتباع زياد بن الأصفر وهم يتشابهون مع الأزارقة فى آرائهم، والفرق الأربعة السابقة هى أشهر فرق الخوارج.

وكان الحسن البصرى يوافق الخوارج فى آرائهم بخطأ على فى قبول التحكيم، غير أنه لا يعتنق مذهبهم. وأكثر من اعتنق آراء الخوارج كانوا عربا بدوا، ثم انضم إليهم بعض الموالى إعجابا بآرائهم بشأن الخلافة وخاصة أنه ليس بضرورى أن يكون الخليفة من قريش ولا من العرب، ويصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة، ويرى المبرد بأنهم فى جميع أصنافهم يبرأون من الكذب، غير أن إقدامهم على سفك دماء معارضيهم هو أكبر ما شوه حركتهم.

أخلص الخوارج لآرائهم وقاتلوا دفاعا عنها، وربما يفسر هذا نظرة الناس إليهم بعطف، وروى عن على بن أبى طالب قوله:" لا تقاتلوا الخوارج بعدى، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه". وروى عن عمر بن عبد العزيز قوله لبعض الخوارج: "إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب دنيا أومتاع، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها" أما ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد فيقول: "ليس فى الأفراق – جمع الجمع لفرقه– كلها أشد بصائر من الخوارج، ولا أشهد اجتهادا ولا أوطن أنفسا على الموت....".

وللخوارج أدبهم الخاص الذى يمتاز بالقوة شعرا ونثرا، وفصاحة فى الإسلوب، واشتهر منهم الخطباء كأبى حمزة،وقطرى بن الفجاءة، ومنأشهر علمائهم فى الأدب أبو عبيدة معمر بن المثنى من البصرة، وهو أحد الأفراد القلائل من الموالى الذين اعتنقوا مذهب الخوارج رغم كونه من أصل يهودى فارسى وكان يكره العرب.

وفيما يتعلق بالثورة من وجهة نظر الخوارج، فإن الواجب عندهم هو" أنصاء أحكام الشرع" فإذا تواطات الأمة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج إلى إمام ولا يجب نصبه إذ لا حكم إلا لله[14]. واتفق الخوارج على اختلاف فرقهم بوجوب الخروج على السلطان الجائر، وهذا ليس مجرد حق للفرد عندهم، وإنما هو واجب يكلف به السلطان، ويتحتم على المسلم مقاومة الإمام الجائر بالخروج عليه جهارا ولو كان هلاك الجماعة الخارجة محققا لقوة السلطان، فواجب النهى عن المنكر الذى يكلف به المسلم يقتضى ذلك، وربما ترجع آراء الخوارج هذه إلى أنهم لم يتأثروا – كما تأثر غيرهم من العرب- بفلسفة الإغريق وثقافة الفرس- وقد حافظوا على شجاعة البداوة فردا كآحاد الناس يخطئ ويصيب، فإن أصاب فبها ولا وجبت مقاومته بحد السيف[15].

2- تجمع الفرق فى حركات معقدة:

تجمعت بعض الفرق بهدف تعقيد عقيدة الإسلام، والواقع أن الخلفاء الأمويين كانوا سنيين، يتسمون بالبساطة، والفطرة العربية الخلصة، ويفسر هذا مقاومتهم بشدة لأصحاب الحركات العقائدية المعقدة كالمعتزلة الذين عارضوا الأمويين باستمرار، وكانت وجهة نظرهم تتلخص فى أحقية على بن أبى طالب فى الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، غير أن المعتزلة اعترفوا بشرعية الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول، وقلدهم فى ذلك المعتدلون من الشيعة، وبعض الخوارج، وقد سبقت الإشارة إلى تغيير

فلسفة الحكم فى الدولة الأموية عن الدولة العباسية، ففى حين عمل المعتزلة على إسقاط الدولة الأموية وإحلال ذرية على بن أبى طالب مكانها، فقد شجعت قيام الخلافة العباسية ومؤازرتها حتى عهد المتوكل، وأيد الخلفاء العباسيون من جانبهم أفكار المعتزلة، بل أنهم بالغوا فى مناصرة آرائهم ومعتقداتهم، التى أجبروا الناس على اعتناقها[16].

كما ظهرت العديد من الحركات المعقدة والميول المنحرفة ليس عن مذهب السنة فحسب، وإنما عن الإسلام ذاته وجوهره، ففى (راوند) بالقرب من أصفهان ظهرت الحركة الراوندية فى عهد المنصور،وكانت تهدف إلى إحياء التقاليد الفارسية من دينية، ودنيوية بشأن تقديس الملوك بل أنهم زعموا أن المنصور هو إلههم وهناك حركة أخرى مشابهة هى "المقنعة" نسبة إلى " المقنع الخراسانى" الذى اتخذ لوجهه قناعا من ذهب، وادعى الألوهية، وأسقط الصوم، والزكاة، والحج، ودعا إلى تعاليم "مزدك" الأباحية ومبادئه التى انبثقت عنها أيضا الحركة "الخرمية" واسمها مأخوذ من "خرم.... دينان"، الفارسية، ومعناها الدين المفرح وقد مزج أصحاب هذه الحركة بين تعاليم الإسلام، والمزدكية، بشأن تناسخ، واشتراكية المال والنساء،ولعل أخطر هذه الحركات العقائدية هى البابكية التى قامت فى إيران أيام الدولة العباسية، باعتبارها استمرارا للخرمية، وهذه الحركات المستمدة أصلا من الديانات القديمة بأفكارها الغريبة عن البيئة الإسلامية والنفس العربية كانت خراسان مهدا، وحقلا خصبا لها، لأنه كثيرا من سكانها أسلموا رغبة فى منافع أو إيثارا للسلامة من البطش، وكانت نفوسهم مشبعة بدياناتهم القديمة المتوارثة عن أسلافهم.

وقد سبقت الإشارة إلى تمكن العباسيين بدهائهم من الوصول إلى هدفهم السياسى، وهو خلع العلويين، وأن دعوتهم تهدف إلى تسليم الأمر للرضا من (آل بيت محمد)، والواقع أن كلمة (الرضا)، كلمة غامضة

وقد خدع بها العباسيون العلويين، وربما يرجع أصلها إلى عهد الفتنة الكبرى التى وقعت بين يزيد بن معاوية، وعبد الله بن الزبير، فلما مات يزيد وعظم أمر ابن الزبير فى الحجاز، ومصر، والعراق،وبايعه الناس فقد امتنع زعيما الهاشميين، وهما محمد بن الحنفية،وعبد الله بن العباس عن مبايعته، فاضطهدهما، وسجنهما، وعادت الفتنة من جديد فى الكوفة بظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى الملقب بكيسان، والذى أخذ يدعو لآل على، فالتف حوله رؤساء الشيعة، وجمع مؤيديه لقتال ابن الزبير، الذى استطاع الفتك به، لكنه لم يتمكن من القضاء على حركته التى ستظهر مستقلا بشكل أو بآخر حيث اضطربت فى هذه الفترة أفكار الشيعة بموت ابن الحنيفة، فمنهم من قال بغيبته مؤقتا، ومنهم من تبع ابنه أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذى اضطر إلى اللجوء إلى بنى عمه من آل العباس المقيمين فى "الحميمة" بفلسطين.

إن المتعمق فى دراسة تاريخ الدولة العباسية- ابتداءا من ظهورها وبروزها ومرورا بانحلالها وانتهاءا بسقوطها وانهيارها- يلمس استفحال هذه الأفكار[17] الغريبة عن الإسلام، وخاصة إبان الحركات الانفصالية والتى سبقت الإشارة إليها تفصيلا، فالدولة الزيدية (250- 355هـ) أعلنت ثورتها على العباسيين حيث ثار محمد بن القاسم بن على بن عمر ابن على بن الحسين بن على فى الكوفة، واستقطب سكان خراسان،وهو يدعو إلى ("الرضا" من آل محمد) غير أن محمدا بن القاسم قد حبس بسامراء سنة 219هـ ثم تمكن من الهرب، ولا يزال الاعتقاد السائد فى أنه حى غائب، وسوف يعود ليملأ الأرض عدلا، ونورا.

3- الشيعة:

والواقع أن هذه الأفكار الشيعية كانت سابقة على هذه الفترة، القرنين الثالث والرابع للهجرة، وتختلف المصادر حول بداية التشيع، ومن الثابت أن رسول الله ﷺ قد ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين دون أن ينص عليها، أو يعهد لأحد أن يخلفه، فرأى الأنصار أنهم أولى بها، وكذلك المهاجرين، فى حين رأى أصحاب على بن أبى طالب أن الخلافة ميراث أدبى، ولو كان النبى ﷺ يورث فى ماله لكان أولى به قرابته، ويرى البعض أن عليا قد تباطأ فى مبايعة أبى بكر، وعمر، وعثمان، غير أن هذا الرأى يجب أن يؤخذ بتحفظ، لأن عليا ابن أبى طالب كان زاهدا فى الخلافة وفى الأمور الدنيوية برمتها، فلم يكن على بن ابى طالب محبا للسلطة، ومع ذلك فإن هذه الآراء تستطرد فتذكر أن جمعا من الصحابة كان يرى أن عليًا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما، ومن هؤلاء الصحابة عمار، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، والعباس، وابن كعب وغيرهم.

ثم تطورت الفكرة، فأصبح على وبنوه يعرفون بأنهم شيعة، ثم تبع ذلك ظهور فكرة الوصية، ولقب على بالوصى، وتفسير ذلك- طبقا لهذه الآراء- أن الرسول ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده، فعلى بن أبى طالب ليس الإمام بطريق الانتخاب، وإنما هو بطريق النص من الرسول ﷺ، وعلى أوصى لمن بعده، وهكذا كل نبى وصى من قبله، ثم انتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها دائما[18]. ثم تطور الشيعة فى تعلقهم بعلى وحبهم له، فقالوا بعصمة الأئمة بدءا بعلى، ومن جاء بعده، حيث لا يصدر عنهم إلا الصواب.

ويرى الشيعة خطأ أبي بكر وعمر وعثمان بقبولهم الخلافة مع علمهم بأفضلية علي، بل إن من الشيعة من وصلت بهم المغالاة إلى تفسير حوادث التاريخ حسب مذهبهم، حتى وصلوا إلى القول: "هل في علي جزء إلهي، واتحد بجسده، وبه كان يعلم الغيب إذ أخبر عن الملاحم وصح الخبر، وبه كان يحارب الكفار، وله النصر والظفر، وبه اقتلع خيبر"، وقوله: "والله ما قلعت به خيبر بقوة جسدانية، ولا بحركة فدائية، ولكن قلعته بقوة ملكوتية..." وتنقل المصادر[19] الحديثة قول الشيعة:" يظهر علي في بعض الأزمان، والرعد في صوته والبرق بسمته"، وكان عبد الله ابن سبأ أول من دعا إلى تأليه علي في حياة النبي ﷺ، وهو الذي نقل إلى أبي ذر الغفاري الدعاية للإشتراكية، وهو الذي حرض الناس على عثمان بن عفان، ووضع تعاليم لهدم الإسلام، فتم طرده من الكوفة ومن البصرة، غير أنه ذهب إلى مصر، وأعلن آراءه الهدامة من هناك، ومنها الوصاية والرجعة، وتعني هذه الأخيرة أن محمدا ﷺ سيرجع، وكان مما قاله: "العجب من يصدق أن عيسى يرجع، ويكذب أن محمدا يرجع[20]."

يروى البخاري عن ابن عباس أن عليا ﷺ خرج من عند النبي ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن! كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس ﷺ وقال:" أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا. فقال علي ﷺ: أما والله لئن سألناه فمعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لاأسالها.

وهكذا رأى جمع من الصحابة أن عليا أفضل من أبى بكر وعمر وغيرهما، وتطورت هذه الأفكار فيما بعد، فقال شيعة على: "إن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بتعيينهم بل هى ركن الدين،وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبى إغفالها، ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر.

يرى ابن خلدون أن عليا ﷺ هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤلونها بمقتضى المذهب الشيعى، لا يعرفها أهل السنة، بل إن أكثرها موضوع أو مطعون فيه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة، وتأسيسا على ذلك نشأت فكرة الوصية، ولقب على بالوصى، ومن وجهة نظرهم فإن النبى ﷺ قد أوصى لعلى بالخلافة من بعده، فأصبح على وصى رسول الله، فهو – أى على– ليس إماما بطريق الإنتخاب، بل بطريق من رسول الله، وعلى أوصى لمن بعده وهكذا كل إمام وصى من قبله، وانتشرت كلمة الوصى بين الشيعة واستعملوها، واستقرت أمور منها القول بعصمة الأئمة على ومن بعده، فلا يجوز الخطأ عليهم، ولا يصدر منهم إلا ما كان صوابا، ومنها رفع مقام على عن غيره من الصحابة حتى أبى بكر وعمر.

وظهر من الشيعة من يغالى، ومنهم من يقتصد، فمنهم من اقتصر على القول بأن أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم أخطأوا إذ رضوا أن يكونوا خلفاء مع علمهم بفضل على، وأنه خير منهم، ومنهم من تغالى فكفرهم، وكفر من شايعهم لأنهم جحدوا" وصية" النبى ﷺ ومنعوا الخلافة مستحقها، وقام أنصار المذهب الشيعى بتأويل الوقائع تأويلا غريبا، فلم يقنعوا بأن عليا أفضل الخلق بعد النبى ﷺ، بل قاموا بتأليهه، فمنهم من

قال: "حل فى على ضوء إلهى، واتحد بجسده فيه، وبه كان يعلم الغيب... ويحارب الكفار، و له النصرة والظفر، وبه قلع باب خيبر".

وبهذا الخصوص قال: والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية، ولا بحركة غذائية، ولكن قلعته بقوة ملكوتية...".

وقال الذين "ألهوا" عليا أقوالا غريبة(21).

ويحلل الأديب الإسلامى الدائع الصيت أحمد أمين هذه الوقائع متعجبا ومتسائلا ومستنكرا الأسباب التى دعت إلى الاعتقاد بألوهية على مع أن أحدا لم يقل بألوهية محمد ﷺ، وأن عليا نفسه يصرح بالإسلام وبتبعيته لمحمد ﷺ، ويعزى أحمد أمين المبررات السابقة فى أن شيعة على قد ردوا له من المعجزات والعلم بالمغيبات الشىء الكثير، وقالوا أنه كان يعلم كل شىء، ووضعوا على لسانه قوله: "أسألونى قبل أن تفقدونى، فوالذى نفسى بيده لا تسألوننى عن شىء فيما بينمكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة ألا أنبأتكم بناعقها وقائدها، وسائقها...(22)". وروا له أنه أخبر بقتل الحسين، وأخير بكربلاء، وأخبر بالحجاج، وأخبر بالخوارج ومصيرهم، وبنى أمية وملكهم وأخبر ببنى بويه وأيام دولتهم.

انتشرت هذه الأخبار وأمثالها بين الشيعة حتى ليكادون يذكرون أنه أخبر بما سيكون إلى يوم الدين، وتجدر الإشارة أن أكثرية شيعة على كانوا فى العراق الذى كان منبع الديانات المختلفة، والمذاهب الغريبة وسادت فيهم من قبل تعاليم مانى ومزدك وابن ريصان، ومعهم يهود ونصارى سمعوا المذاهب المختلفة فى حلول الله فى بعض الناس، وهذه الأمور جعلت منهم من يؤله عليا، هذا فى الوقت الذى كان العرب فيه أبعد الناس عن المذاهب الدينية، حياتهم بسيطة، عقليتهم التى على الفطرة ترفض لصق الألوهية بمحمد ﷺ مؤمنين بما حدء فى القرآن الكريم :"إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد".

يتضح من هذا العرض السريع أن "الإمام" هو عقيدة الشيعة فـي الخلافة، وأن عليا بن أبى طالب هو الإمام بعد الرسول ﷺ، ثـم يتسلسل الأئمة بترتيب من عند الله، وطاعة الإمام، والاعتراف بـه جـزء مـن الإيمان، والإمام فى المفهوم الشيعى هو أكبر معلم، فالإمام الأول على قد ورث علوم النبى ﷺ، وهو ليس شخصا عاديا، بل هو فوق النـاس لأنـه معصوم من الخطأ، وقد علم النبى ﷺ عليا علم الظاهر، وعلم البـاطن، فكان يعلم باطن القرآن وظاهره، وأطلعه على اسـرار الكـون، وخفايـا المغيبات، وكل إمام ورث هذه العلوم من بعده، وكل إمام يعلم الناس مـا يستطيعون فهمه من أسرار فى وقته، ولا يؤمنون بالعلم ولا الحديث إلا إذا روى عن هؤلاء الأئمة.

وتعتبر فرقتنا الزيدية والإمامية أهم فرق الشيعة، فالزيدية هم أتباع زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب، وكان زيد يـرى جـواز إمامـة المفضول مع وجود الأفضل، وقال بأن إمامة أبى بكر وعمـر صـحيحة على الرغم من أفضلية على بن أبى طالب، ورأت عقيدة الزيديـة بعـدم وجود إمامه بالنص، وأنه لم ينزل وصى يعين الأئمة، بل إن كل واحد من أبناء فاطمة يجوز له أن يكون إماما بشرط أن يكون عالما زاهدا شـجاعا كريما، وقد سبقت الإشارة إلى أن زيدا ظهر فى فترة حكم الخليفة هـشام ابن عبد الملك، وبويع بالخلافة ، فقاتل الأمويين حتى قتل سنة 121هـ ولا يزال الزيدية فى اليمن حتى الوقت الحاضر، حيث يعتبر هذا المذهب أقرب إلى أهل السنة وأكثر المذاهب الشيعية اعتدالا، أما الإماميـة فـإن أصحابها يقولون بأن النبى محمد ﷺ قد نص على خلافة على، وأن أبا بكر وعمر قد "اغتصبا" الخلافة غير أن الإمامية فرق تتعدد، لا تتفـق علـى أشخاص الإئمة، فمنهم الإثنا عشرية، وسموا كذلك لإيمانهم بتتـابع اثنـى عشر إماما بدءا بعلى بن أبى طالـب، "المرتـضى" ومـرورا بالحـسن

"المجتبى" والحسين "الشهيد"، وعلى زين العابدين "السجاد"، ومحمد بن على "الباقر" ، وجعفر بن محمد " الصادق"، وموسى بن جعفر" الكاظم"، وعلى بن موسى" الرضا"، ومحمد بن على " الجواد"، وعلى بن محمد "الهادى" ، والحسن بن على "العسكرى"، وانتهاءاً بمحمد بن الحسن "المهدى المنتظر"، ويطلق الباحثون على هذه الفرقة أيضا الجعفرية، وهذه الفرقة هى الأخرى ليست من الفرق المغالية إلى التعقل فى أمور الدين الإسلامى، وهى أقربها بالتالى إلى أهل السنة.

وسواء تعلق الأمر بتعاليم الخوارج أو الشيعة، فقد اتفقت الفرقتان – على اختلاف توجهاتهما- على محاربة الخلفاء الأمويين، وكان الخوارج ظاهرين فى حروبهم فى حين كان الشيعة يحاربونهم سرا وجهرا حيث قال أكثرهم بالتقيد أى المداراة- ويعتنقها أكثر الشيعة – والعمل سرا. ونتيجة للاضطهادات التى تعرض لها الشيعة فقد كتموا عملهم فى سرية تامة استلزمت الخداع والالتجاء إلى الرموز والتأويل، ووضع الشيعة أحاديث كثيرة فى فضائل على وفى المهدى المنتظر، وقد سبقت الإشارة إلى اشتغال بعض علمائهم بعلم الحديث وأطلق عليهم "الثقات"، وحفظوا الأسانيد الصبحيحة.

والواقع أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية، وقد تستر الفرس- أو على الأقل بعضهم- بالتشيع، ويقول المقريزى:" واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت سمة الملك وعلو اليد ... وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرا..."، وقد ذهب ولهوسن" Wenhausin إلى أن العقيدة الشيعية نبعث من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية مستدلا بدور عبد الله بن سبأ وهو يهودى، فى حين يرى" دوزى Dozy" أن التشيع أساسه فارسى

لأن العرب تدين بالحرية فى حين يدين الفرس بالوراثة فى البيت المالك ولا يعرفون معنى لانتصاب الخليفة، واعتاد الفرس أن ينظروا للملك "كاله" وقالوا: إن طاعة الإمام أول واجب، وأن طاعته إطاعة الله"، وعموما فإن أكبر الأثر فى التشيع جاء من الفرس.

وفيما يتعلق بالثورة على الحاكم فقد اختلف الشيعة جذريا مع غيرهم من الفرق فى شأن مشروعية الثورة على الخليفة، وقد سبقت الإشارة إلى قول بعضهم أنه قد حل فى على جزء إلهى واتحد بجسده فيه وبه كان يعلم الغيب... وبه كان يحارب.

وإذا كان الإمام قد أصبح لدى الشيعة فوق البشر، تحتم أن يطاع طاعة عمياء، فليس لأحد أن يناقش ما يفعل، أو يعترض على ما يشاء، بل أن مجرد التفكير فى هذا يعد انكارا لعصمة الإمام، وتعديا على قداسته، وخير مثال على ذلك قول ابن هانىء الأندلسى الشيعى موجها قوله للمعز لدين الله الفاطمى:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

وتأسيسا على ذلك فإن القاموس الفكرى الشيعى يخلو من عبارة مقاومة الإمام، لأنه معصوم ومن ثم فلا وجود لعبارة مقاومة الإمام فى فقه الشيعة.

4- المرجئة:

شكلت المرجئة فى بداية تكوينها جزيا سياسيا محايدا، ويروى ابن عساكر فى توضيح رأيهم" أنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى، فلما قدموا المدينة بعد قتل عثمان... قالوا: تركناكم وأمركم واحد، ليس بينكم اختلاف، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوما، وكان أولى بالعدل أصحابه، وبعضكم يقول: كان على

أولى بالحق وأصحابه، كلهم ثقة وعندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما [23].

وتأسيسا على ما ذكره ابن عساكر فقد سموا المرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء إلى يوم القيامة، فى حين اشتق بعضهم اسمهم من أرجأ بمعنى بعث الرجاء لقولهم: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

وعندما كفر الخوارج عليا وقالوا بالتحكيم ، ورأت الشيعة من يكفر أبا بكر وعمر وعثمان، وكل طائفة تدعى أنها على حق وأن من عداها كافر وضال، فى هذه الظروف نشأت المرجئة كى تسالم الجميع قائلة أن الخوارج والشيعة والأمويين مؤمنون، فبعضهم مخطئ وبعضهم مصيب، وليترك أرهم جميعا إلى الله، ومنهم بنو أمية حيث يشهدون أن لا اله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهم ليسوا كفارا، بل مسلمين نرجئ أمرهم إلى الله، وربما يفسر ذلك بأن المرجئة كان موقفهم مؤيدا للأمويين، غير أنه تأييد سلبى وليس إيجابى.

وكانت نواة هذه الجماعة بين الصحابة، فجماعة منهم امتنعوا عن التورط فى النزاع فى أواخر عهد عثمان بن عفان مثل أبى بكرة، وعبد الله ابن عمر، وعمران بن الحصين، وروى أبو بكرة أن رسول الله ﷺ قال: "ستكون فتن القاعد فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كان له أرض فليلحق بأرضه، قال: فقال رجل: يا رسول الله من لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاة".

تغير أسلوب المرجئة من حزب سياسى إلى البحث فى أمور لاهوتية منها تحديد "الإيمان" و"الكفر" و"المؤمن" و"الكافر" وقد دعاهم إلى البحث فى هذه الأمور أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم، ومثلهم الشيعة، وتغالى كل من الخوارج والشيعة، حيث عدت الخوارج كل كبيرة كفرا، وعدت الشيعة الإمام ركنا أساسيا من أركان الإيمان، وكان تساؤل المرجئة: ما الكفر وما الإيمان؟، ورأى كثير منهم أن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله، فمن عرف أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فهو مؤمن، وهذا رد من المرجئة على قول الخوارج: أن من آمن بالله ورسله،وترك الفرائض وارتكب شيئا من الكبائر فإنه كافر، فى حين أنه مؤمن عند المرجئة، ورد أيضا على الشيعة الذين يعتقدون أن الإيمان بالإمام والطاعة له جزء من الإيمان، هنا فإن بعض المرجئة قد تغالوا أكثر من ذلك قائلين: "إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية فى دار الإسلام، وعبد الصلب وأعلن التثليث فى دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، ولى لله عز وجل، من أهل الجنة[24].

لاحظ أحد المستشرقين أن هناك شيء من الغموض قد أحاط بطائفة المرجئة، وعلل ذلك بأن الدولة العباسية قد دمرت هذه الطائفة، وكان أبرز شعراء بنى أمية من قالوا بالإرجاء ويتسم شعرهم[25] فى معظمة بقولهم: أنهم لا يحكمون على أحد من المسلمين بالكفر مهما أذنب، وأن الذنب مهما عظم لا يذهب بالإيمان، وأنه لا يسفك دم أحد من المسلمين إلا دفاعا عن نفسه، وأنه إذا اشتبهت الأمور وكفرت كل طائفة الأخرى فيما فعلت فإنه يرجأ أمرهم جميعا إلى الله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، فى حين أن الجور البين والعناد الواضح والأعمال الظاهره لابد أن تصدر الأحكام عليها صراحة لإيضاح الخطأ من

الصواب، فالخوارج أخطأوا إذ حكموا على عثمان وعلى بـالكفر، فهمـا عبدان لله، لم يشركا به منذ عرفاه، وما بينهما لم يخرج بهما عن الإيمان، فليترك أمرهما لله سبحانه وتعالى يقدر عملهما،ويكافئ عليه.

5- القدرية والجبرية:

عندما تعمق الفلاسفة فى العصور المختلفة للبحث فى مسألة العقل، فقد واجهتهم مشكلة الجبرية والاختيار: هل إرادة الإنسان حرة تعمل مـا تشاء وتترك ما تشاء أم أن الإنسان مجبر على عمل ما يعمل فلا يستطيع عمل غيره؟ وبمعنى أبسط: هل الإنسان مخير أو مجبر؟ وقد برزت هـذه المشكلة فى الفكر الإسلامى عندما انتهى المسلمون من فتوحاتهم وظهـر قوم يقولون بحرية الإرادة معارضين فى ذلك الأفكار الشائعة بأن الإنسان مسير وليس مخير، روى عن نافع قوله:" جاء رجل إلى ابن عمر، فقـال: إن فلانا يقرأ عليك السلام، فقال ابن عمر: إنه قد بلغنى أنـه قـد أحـدث التكذيب بالقدر، فإن كان قد أحدث فلا تقرأ منى عليه السلام".

سمى هؤلاء الذين يقولون بأن الإنسان حر الإرادة- أى له قـدرة علي أعماله- بـ " القدرية"، وسماهم خصومهم بذلك لحديث ورد: "القدرية مجوس هذه الأمة" وكان الذين يقولون بحرية الإرادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الإنسان من خير وشر. قال ابن نباته فى " سرح العيون": "قيـل أن أول من تكلم فى القدر رجل من أهل العراق كان نصرانيا فأسلم ثم تنصر وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى"، وكان غيلان الدمشقى يسكن دمشق، وأبوه كان مولى لعثمان بن عفان، قال الأوزاعى: "قدم علينا غلام القدرى فى خلافة هشام بن عبد الملك، فتكلم غيلان وكان رجلا مفوها ثـم أكثـر الناس الوقيعة فيه والسعاية بسبب رأيه فى القدر، وأثاروا عليه هشام بـن عبد الملك فأمر بقطع يديه ورجليه وقتله وصلبه".

انتشرت الأقوال فى القضاء والقدر فى عصر هشام بن عبد الملك، واشتد الجدل، واختلف الباحثون فى منبع هذه الحركة: هل هــو العــراق أو الشام؟ وذهب فريق إلى أن العراق منبع ذلك واستدلوا على ذلك بــأن هذه الحركة تكونت حول الحسن البصرى وكان يسكن البصرة، ويؤيد ذلك ما رواه ابن نباته فى "سرح العيون" من أن منشأ القول فى ذلك نــصرانى من العراق وأخذ عنه معبد الجنى وغيلان الدمشقى فى حين يذهب آخرون إلى أن الحركة ظهرت فى دمشق متأثرة بمن كان يخدم مــن النــصارى فى بيت الخلفاء كيحيى الدمشقى، ويؤيد الأديب والمفكر الإسلامى أحمــد أمين القول بأن القضاء والقدر انتشر فى كل من العــراق والــشام معــا، كان بالبصرة والشام وبعضه فى المدينة المنورة".

انبثقت فرقة أخرى من القدرية حــسمت الخــلاف حــول هــذا الموضوع هى طائفة "الجبرية"، وكان منهم ابن صفوان رئيسها، ومن هنا تسمى هذه الفرقة "الجهيمة" حيث يقول: إن الإنسان مجبور لا اختيار لــه، و لا قدرة، أنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل، وأن الله قدر عليه أعمالا لابد أن تصدر منه، وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق فى الجماد، فكمــا يجرى الماء، ويتحرك الهواء، ويسقط الحجر، فكذلك تصدر الأفعال عــن الإنسان يصدرها الله فيه، وتنسب إلى الإنسان مجازا كمــا تنــسب إلــى الجماد، فكان يقال: كتب محمد، و قضى القاضى، وأطاع فلان، وعــصى فلان– وكلها من فعل واحد– عن طريق المجاز، والثواب والعقاب جبــر، كما أن الأفعال جبر،والله قدر لفلان فعل كذا، وقدر له أن يثاب، وقدر على الآخر المعصية، وقدر أن يعاقب.

اشتهرت بهذا القول جهم بن صفوان، وهو من أهل خراسان، من الموالى، وأقام بالكوفة، وكان خطيبا جذابا، ظهر مذهبه فى ترند، وكــان وزيرا للحارث بن سريح الذى كان قد خرج على بنى أمية فى خراســان

واتبعه كثير من أهلها،وكان يدعو إلى العمل بكتاب الله وسنة رسوله وقد هزم الحارث وأسر جهم بن صفوان فقتل، ثم قتل الحارث سنة 128هـ.

قتل الجهم لأمر سياسى لا علاقة له بالدين الإسلامى، لكنه مع ذلك قد اشتهر بأمر لا يقل خطورة عن مسألة الجبر، حيث نفى أن يكون لله سبحانة وتعالى صفات غير ذاته- وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة على صفات الله سبحانه وتعالى من سمع وبصر...- ويقول الجهم أن ما ورد فى القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره، بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوق وهو مستحيل على الله، فيجب تأويل ذلك قائلا: لا يصح وصف الله سبحانه وتعالى بصفة يوصف بها خلقة لأن ذلك يقتضى التشبيه، وأضاف: أن القرآن الكريم "مخلوق" خلقه الله، وكان ذلك نتيجة طبيعية لنفيه الصفات، فإذا كان الله لا يتكلم فليس القرآن كلام الله القديم إلا على التأويل، وإنما خلقه الله، كما أنكر الجهم أن الله يرى يوم القيامة قائلا: "إن الجنة والنار تغنيان بعد دخول أهلهما فيهما، وتلذذ أهل الجنة بنصيمها، وتألم أهل النار بجحيمها..." وبالطبع فقد قاوم كثير من علماء الملسمين حركتى الجبرية.. والمغالاة من جانب الجهم وردوا بأن مسألة الجبر تدعو إلى التعطيل وترك العمل والركون إلى القدر، وفى مسألة المغالاة فى تأويل الآيات التى تثبت له صفات- خطر على القرآن الكريم وتفهم معانيه.

6- المعتزلة:

ذابت القدرية والجهمية فى المذاهب الأخرى، وانبثق أثر ذلك مذهب المعتزلة، وكثيرا ما يطلق عليها القدرية لأن أصحابها وافقوا القدرية فى قولهم:" أن للإنسان قدرة توجد الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى"، ونفوا أن تكون الإشياء بقدر الله تعالى وقضائه، وأحيانا يلقب المعتزلة بالجهمية فى نفى الصفات عن الله، وفى خلق القرآن، وقولهم: أن

الله لا يرى (بضم الياء الأولى) وقد ألف البخارى والأمام أحمد بن حنبل كتابين فى الرد على الجهمية وعنيا بهم المعتزلة، والمعتزلة يبرأون من هذين الاسمين، فلا يرضون أن يسموا بالقدرية، ويقولون أن مثبت القدر أولى بالانتساب إليه من نافيه.

لقب المعتزلة بهذا الاسم لأن واصلا، وعمرو بن عبيد اعتزلا حلقة الحسن البصرى واستقلا بأنفسهما على تأكيد الرأى القائل أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلقا، ولا هو كافر مطلقا. بل هو وسط بين الاثنين، غير أن هذا الرأى فى تسمية المعتزلة- على حد قول أحمد أمين- يتسم بالعنف، لأن انتقال واصل أو عمرو بن عبيد من حلقة مسجد إلى أخرى ليس بالأمر الهام لتغيير أفكار فرقة إسلامية كلية، فضلا عن أن الرواة اختلفوا، فبعضهم ينسب حادثة الانفصال إلى عمرو بن عبيد، فى حين ينسبها آخرون إلى واصل، وهناك فريق ثالث ينسب هذه التسمية إلى الحسن البصرى، أما الفريق الرابع حينما يتكلم عن شخص فإنه يقول: "كان يقول بالاعتزال، أو هو من أهل الاعتزال"، وهذا يدل على أن اسم الاعتزال مذهب ذو مبادئ وليس مجرد انفصال مجلس إلى آخر، وأنه - أى الاعتزال- معنى من المعانى.

هناك رأى آخر يرى أن المعتزلة سميت كذلك " لاعتزالهم كل الأقوال المحدثة" بشأن مرتكب الكبائر، ذلك أن المرجئة كانت ترى أنه مؤمن، والأزارقة من الخوارج كانت تقول أنه كافر، فى حين وصفه الحسن البصرى بأنه منافق وخالف واصل بن عطاء هذه الأقوال كلها قائلا: إن مرتكب الكبائر ليس مؤمنا وليس كافرا، وذهب عبد القادر البغدادى فى كتابه " الفرق بين الفرق"، أن الحسن البصرى لما طرد واصلا من مجلسه، واعتزل عند سارية من سوارى مسجد البصرة وانضم

إلى صديقة عمرو بن عبيد، فقد قال الناس إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمى أتباعهما بالمعتزلة.

يقول السمعاني في كتابه "الإنسان": "المعتزل نسبة إلى الاعتزال وهو الاجتناب، والجماعة المعروفة بهذه العقيدة قد سموا بهذا الاسم لأن أبا عثمان عمرو بن عبيد أحدث ما حدث من البدع، واعتزل مجلس الحسن البصرى ومعه جماعة فأطلق عليهم " المعتزلة".

أما المسعودى[26] فيقول:" أنهم سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين، فالمعتزلة- فى رأيه- هم القائلون باعتزال صاحب الكبير، وتذكر المصادر التاريخية أن كلمة اعتزال ومعتزلة واعتزل استعملت كثيرا فى صدر الإسلام بمعنى خاص هو أن يرى الرجل فئتين متقاتلتين أو متنازعتين ثم هو لا يقتنع برأى إحداهما، ولا يريد أن يتورط فى النزاع بينهما سواء تعلق ذلك بعدم تكوين رأى أو أن كلا الطرفين المتنازعين غير محق، وهناك من المؤرخين من يربط ذلك بالقتال بين على وعائشة فى حرب الجمل، وأيضا على الذين لم يتدخلوا فى النزاع بين على ومعاوية. وجاء فى تاريخ الطبرى[27] ذكر كلمة المعتزلين، ومثله فى ابن الأثير وأبى الفداء الذى يقول:".... وسموا هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة على" ويعنى هذا أن كلمة "المعتزلة" أطلقت على فئة خاصة قبل مدرسة الحسن البصرى بنحو مائة عام، وأن إطلاقها على مدرسة واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد كان إحياءا للإسم القديم وليس ابتكارا، ويتردد أحمد أمين فى هذا الرأى.

وكذلك الحال بالنسبة للذين لم ينغمسوا فى حرب الجمل ولم يشتركوا في وقعة صفين، حيث دار القتال حول مسائل سياسية هى القصاص من قتلة عثمان واستحقاق على للخلافة وعما إذا كان معاوية هو أولى بالخلافة من على.. فهذا الانقسام أدى إلى وجود أحزاب سياسية

متنافرة ولكنها مصبوغة بالصبغة الدينية، وتأسيسا على ذلك يمكن القول أن الطائفة أو الحزب الذى أطلق عليه اسم "معتزلة" كان يمثل فى هذه الفترة فكرة سياسية مصبوغة بالدين.

والواقع أن فرقة المعتزلة كانت أجرأ الفرق على تحليل أعمال الصحابة ونقدهم، بل والحكم عليهم، ففرقة المرجئة تحاشت الحكم بتاتا، فى حين كانت أحكام الخوارج قاصرة على مسائل محدودة كالتحكيم وعلى ومعاوية، أما المعتزلة فلهم أحكامهم على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية وعمرو بن العاص، وكانوا يتسمون بالصراحة فى إبداء آرائهم، فواصل ابن عطاء، كما يذكر الشهر ستانى:" لم يجوز قبول شهادة على وطلحة والزبير، وجوز أن يكون عثمان وعلى على الخطأ" وقد اعتبرت الدولة الأموية آراء المعتزلة بمثابة تأييد لها لأن نقد الخصوم ووضعهم موضع التحليل وتحكيم العقل فى الحكم لهم أو عليهم قد أزال فكرة التقديس التى كانت شائعة ومع ذلك فإن المعتزلة وضعوا معاوية وأصحابه موضع النقد أيضا، بل إن أكثرهم قد تبرأ من معاوية وعمرو بن العاص.

ويصل أحمد أمين إلى نتيجة مفادها وجود شبه كبير بين فئة المعتزلة الأولى- على وعائشة وطلحة والزبير، ثم على ومعاوية- وبين فئة المعتزلة الثانية التى رأت أن الخوارج ليسوا على حق بشأن آرائهم فى التكفير والحرب والقتال، وكذلك موقف المرجئة الذى يتسم باللين والتسامح، فالمعتزلة- من وجهة نظره- سموا كذلك لاعتزالهم قول الأمة ومع ذلك فلم يرض كثير منهم عن هذه التسمية، و إنما كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ويمكن تلخيص آرائهم فى قولهم أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا بمؤمن لكنه فاسق يستحق النار، وهم يقولون بالقدر وأن الله سبحانه وتعالى لا يخلق أفعال الناس، وإنما هم الذين يخلقون أعمالهم ونفى المعتزلة أن يكون لله سبحانه وتعالى صفات أزلية من علم

وقدرة وحياة وسمع وبصر، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته وليست هناك صفات زائدة على ذاته، وقولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح، كما تعوضوا للأمور السياسية التى سبقت عصرهم قائلين إن الصحابة أنفسهم كان يخطئ بعضهم بعضا ويحارب بعضهم بعضا.

وعموما فقد نشأ الاعتزال فى البصرة- كما سبقت الإشارة- وانتشر بسرعة فى العراق، واعتنق تعاليمها خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد ومروان بن محمد، وفى العصر العباسى تكونت مدرستان للاعتزال هما مدرسة البصرة ومدرسة بغداد، وكان المعتزلة أسرع الفرق الإسلامية التى استفادت من الفلسفة اليونانية وصبغتها صبغة سياسية، وهم الذين ابتكروا علم الكلم فى الإسلام – علوم السياسة فيما بعد- من تنشيط حركة الجدال فى المذاهب الدينية والآراء السياسية التى لها صيغة دينية بصفة خاصة وكان لها تأثير كبير فى الأدب والسياسة بأبحاثهم ومذاهبهم العميقة.

7- الإسماعيلية:

تعتبر الإسماعيلية من الفرق الشيعية، وهى الفرقة التي قالت بامامة إسماعيل بن جعفر (الصادق)- كما سترد الإشارة تفصيلا- وفى اعتقاد أصحاب هذه الفرقة- فشأنها شأن الشيعة- أن وصاية النبى ﷺ كانت لعلى بن أبى طالب فى غدير خم- مكان بين مكة المكرمة والمدينة المنورة- بهدف بقاء الإمامة فى بيت على إلى يوم القيامة، وعقيدتها تتلخص فى عبارة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولى الله"، غير أن الفرق بينها وبين غيرها من الفرق الأخرى: الشيعة والزيدية والإمامية، أن الأمامة تكون بالنص، أى وجوب تعيين الإمام لخلفه، وأن الأمامة فى الأعقاب، فموت إسماعيل سنة 145هـ- 762م فى حياة أبيه جعفر (الصادق) 148هـ- 765م يجعل النص ينتقل إلى ابنه محمد، وليس

لأخيه موسى (الكاظم)، لذلك عرفت الإسماعيلية إسماعيل، والفرق بينها وبين الإمامية الإثنا عشرية من حيث ترتيب الأئمة فالإثنا عشرية لم تعترف بإمامة إسماعيل وانتقلوا بالإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم إلى آخر الأئمة الإثنا عشرية على الترتيب فى حين جنحت الإسماعيلية إلى المغالاة بسبب ما تعرض له الشيعة من اضطهاد الأمويين، والتنكيل بهم وتعذيبهم، فالأمويون سجنوا كل من عرفوا بالتشيع، ونهبوا أموالهم، وخاصة أيام عبيد الله بن زياد ومن بعده الحجاج بن يوسف الثقفى، ويفسر هذا سبب محاربة الشيعة أيضا للأمويين بمثل ما حوربوا به وخاصة على الصعيد الفكرى، فكلما وضع الأمويون الحديث فى فضائل الصحابة عدا عليا والهاشميين وخاصة عثمان فإن الشيعة بدورهم يضعون أحاديث كثيرة فى فضائل على وفى المهدى المنتظر.

وسواء تعلق الأمر بالدولة الأموية أو الدولة العباسية فإن تبلور الأفكار الشيعية وتطورها تقتضى وقفة للتفسير.

ففى عهد الدولة العباسية فإن ظهور الحركة الشيعية الإسماعيلية قد جاء نتيجة للانهيار الذى لحق بهذه الدولة فى الفترة من 232- 320هـ بعد أن أصابها الضعف والانحلال على نحو ما سبقت الإشارة إليه تفصيلا، وكانت من نتيجته أيضا ظهور العديد من الدويلات التى انفصلت عن الخلافة المركزية أو كادت، بالإضافة – وهذا هو الأهم- إلى "العقائد" المخالفة لمذهب الخلافة، ومن أهمها الإسماعيلية التى كانت قد بدأت فى الظهور فى أوائل القرن الثانى للهجرة، ثم تعاظمت فى القرنين الثالث والرابع للهجرة.

لم يعط العباسيون الفرصة- لآل على- للوصول إلى حقوقهم بشأن الخلافة بعد أن انهارت الدولة الأموية، وفشلت العناصر غير العربية فى عهد الدولة العباسية فى إعادة نفوذها التاريخى بالرغم من مؤازرتها للدولة

الجديدة التى خيبت ظنونها بشأن استعادة تقاليدها، وأعرافهـا منـذ قبيـل الإسلام، وقد أدى هذا الشعور من جانب العناصر غير العربية إلى نتيجة عكسية تماما، فبدلا من استعادها لنفوذها بوسائل القوة والعنف، فإنها قويت أكثر فى مجالات الترجمة، والتدوين، وإحياء الحضارات والعقائد القديمة، وبذلك فقد أشبعت من غرورها القومى لا سيما تلك الحركة الفكرية التـى سادت– مخالفة بذلك روح الإسلام الحقيقية– بانتشار مناقشات الفلـسفتين اليونانية، والسريانية، والأعراف الفارسية وغيرها مما كـان لـه تـأثيره السلبى على العامة من الشعوب الإسلامية، الأمر الـذى جعـل الخلافـة تحاسبهم، وتتدخل عمليا لتمد من الانحرافات، والزندقة من مـذهب أهـل السنة والجماعة.

كذلك كان للعوامل الاقتصادية والاجتماعية هى الأخرى تأثيراتها فى ظهور حركة الإسماعيلية حيث تحول المجتمع الإسلامى من البدائيـة فى أسلوب الزراعة وعلاقات الإنتاج، إلى مرحلة متقدمـة ومعقـدة فـى الزراعة والتجارة، ووجود طبقة أرستقراطية غنية من العرب أو الموالى، الأمر الذى خلق شعورا بالمرارة بين الطبقات الفقيرة،وعرفت لأول مـرة فى التاريخ الإسلامى ما اصطلح على تسميته بجماعات المـصالح التـى كونها الأغنياء لحماية مصالحهم، وفى مواجهتهم تكونت جماعات الضغط من طبقات الفقراء والمتذمرين من البؤس المحـيط بهـم تجـاه تكـتلات الأغنياء، وكان هذا سببا فى تعقد الحياة الاقتصادية، والاجتماعيـة، بـل وظهور المغالاة بمظاهرها التى فاقت كل القيم الإسلامية، وانعكست بشدة على البيئة الإسلامية. فبرزت فئة تذرعت بقيام حركـة سـترتها بمقولـة "الانتصار لحق على"، واتخذت من الكوفة مقرا لها، باعتبارهـا مركـز فكرى وسياسى للثقافات القديمة فضلا عن كونها مقر أئمة علويين بارزين التصقت بأسمائهم هذه الحركات منذ فترة والذين انقسموا فى الأعـم إلـى فريق الحنفية وفريق الحسن والحسين.

تنسب "الحنفية" إلى الأمام محمد بن الأمام على ﷺ وقد عرف الأمام محمد بابن الحنفية، وتذكر بعض المصادر أن المختار الثقفى حين قام بحركته الثورية فى الكوفة سنة 66 هـ (685م) ادعى أن ابن الحنفية هو"المهدى المنتظر"، وبالرغم من القضاء على المختار الثقفى وموت ابن الحنفية ، فقد انتشرت الحركة الشيعية المهدية الحنفية، وانقسم أنصارها إلى فرقتين، ورأت الفرقة الأولى أن الإمام محمد لم يمت، بل اختفى، وأنه سيعود ويملأ الأرض عدلا، كما ملئت جورا، فى حين قالت لافرقة الثانية أنه قد عهد إلى ابنه أبى هاشم للأمر من بعده. وانقسم هؤلاء بدورهم إلى فريقين، الأول يقول أن أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى أخيه على ابن محمد، وأن عليا هذا أوصى إلى عبد الله بن معاوية من آل على وفى تقويم الحركة الحنفية عموما، فيمكن القول أنها اختفت وكذا أنصارها بعد سيطرة العباسيين على مقاليد الأمور وقيدوا تماما على الحركة وأنصارها على نحو ما سبقت الإشارة إليه.

أما فريق الأمامين الحسن، والحسين ابنا الإمام على بن أبى طالب فقد لقبا بالحسنية – الحسينية، وقد ثار من ذرتيهما جماعات على الخلافة منهم: زيد بن على المعروف بزين العابدين، وولداه يحيى وعيسى من أئمة الفرقة الزيدية فى اليمن، ومنهم محمد بن على بن زين العابدين، الذى نادى بنفسه إماما، وتبعته جماعات منهم أبو منصور العجلى زعيم الفرقة المنصورية الذى قتله يوسف ابن عمر الثقفى سنة 125هـ ولما مات الباقر انتشر أتباعه، وذاع صيتهم، ومنهم محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على المعروف بذى النفس الذكية وقد سبقت الإشارة أنه أعلن عن نفسه أنه المهدى، ولما مات ادعى أنصاره أنه قد غاب وسيعود، وقد كذب الإمام جعفر الصادق هذه الأدعاءات وأن الإمامة له وحده، وكان من أبرز أتباعه محمد بن أبى الخطاب، مؤسس الفرقة الخطابية،

والتى تعتبر أبرز الحركات الباطنية، حيث كان المغالاة فى الدعوة سمة قوية فى هذه الفرقة التى وصل الأمر بها أن اعتبرت جعفر جعفر الصادق إله، ونبى ، فأحل المحارم، وقال بالتقية، وأن الجنة والنار، والصوم والصلاة ما هى إلا أسماء رجال بأعينهم، وهو صاحب نظرية "النور" و"التناسخ" ولما قتل محمد ابن أبى الخطاب سنة 138هـ، تحول أصحابه إلى محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق، ويذكر الشهر ستانى [28]. أن جعفر الصادق تبرأ من أبى الخطاب ومن ابنه، ويموت جعفر الصادق سنة 148هـ انقسم أصحابه إلى ثلاث فرق: الأولى فرقة النادوسية التى زعمت أنه لم يمت وسوف يرجع، أما الفرقة الثانية فهى الإثنا عشرية وهم أتباع ابنه موسى الكاظم، وهم المعتدلون من هذه الفرقة، فى حين شكلت فرقة الإسماعيلية الفرقة الثالثة وأصحابها هم القائلون بإمامة إسماعيل بن موسى الكاظم ثم ابنه محمد من بعده.

غير أن المصادر السنية والإثنا عشرية قد نظرت باستخفاف إلى إسماعيل لأنه لم يكن من وجهة نظرهم على جانب من الاستقامة[29]. فى حين رفعته الباطنية إلى مرتبة الألوهية وقالت إن خليفته من بعده هو ميمون القداح، ثم اختلفت المصادر السنية، والشيعية، والباطنية أيضا فى أمر خليفته ميمون وابنه عبد الله[30].

فقد قالت المصادر السنية أن ميمون القداح من أصحاب العقائد التى تكيد للإسلام، وأنه استخلف ابنه عبد الله ، وكان واسع الاطلاع على الأديان، بارعاً فى الدسائس، وقد ادعى النبوة، واستعمل كافة الذرائع والمبررات لتحقيق غاياته الهدامة، والبعيدة عن جوهر الإسلام بهدف هدمه، وإن كان ظاهريا يدعو إلى مذهب محمد بن إسماعيل، أما المصادر الشيعية فنفت عن ميمون هذه الصفات وذكرت أنه سواء تعلق به، أو بابنه فقد كانا سويا من المحدثين الثقات، والمجتهدين، فى حين لم تفصح

المصادر الشيعية عن حقيقة أوضاع ميمون أو رواية جعفر، وإن كان الباحث[31] قد يمكنه الحصول من ثنايا الكتب السنية، والدرزية أن محمد بن إسماعيل هو الناطق السابع، وأن ميمون القداح هو أساسه: وأن الروايات – مع ذلك- قد اختلفت فى أمر هذا الأخير.

وربما يفسر ذلك قلة العارفين عن العقيدة الإسماعيلية المستورة، والخفية، ومع ذلك يمكن القول بقدر معقول من الثقة أنها مذهب شمولى فى العقيدة، يتسم بالتسامح، لا يعادى ولا يحارب العقائد الأخرى المناهضة للإسلام من مزدكية، وما نوية، وصابئية، ونصرانية، ويهودية، كذلك فإن مذهب الإسماعيلية يعتبر مذهبا اشتراكيا فى الأموال، لكنه مذهب باطنى بمعنى أن لكل ظاهر عند أصحابه باطنا مستورا، ولكل تنزيل تأويلاً، وأنه توجد معاني باطنية مستورة فى الكتاب والسنة قياسا على جميع ما استعبد الله به عباده، غير أن هذا الباطن لا يعرفه إلا الأئمة المعصومون، وهم يقسمون تاريخ البشرية إلى حلقات بنوة سبعة، وتفسير ذلك أن العقل الكلى يتجسد بين حين وآخر فى شخص معين يعرف بالنبى الناطق ويخلفه سبعة أئمة يعرف كل منهم بالصامت، وأن نظام التطور الكوني بهذا المعنى يستلزم أن كل نبى هو الذى يعلم الناس الحقائق الروحية، وأن آخر حلقة نبوة هى حلقة محمد بن إسماعيل وهو خاتم الأنبياء.

والأئمة عند الإسماعيلية لا يكونون ظاهرين، فهم مستترون غير أن منهم من يظهر، وتقع سلسلة الأئمة المستترين بين "محمد بن إسماعيل" وبين "الأئمة الفاطميين"، ولكن لابد من وجود دعاة ظاهرين يدعون ويبشرون بظهور الإمام المستور، والأئمة المستورون صنفان، الأول ينتمون جسمانيا إلى أبناء على، فى حين أن الصنف الثانى هم الروحانيون، وقد قسم المستشرق البريطانى برنارد لويس[32] شجرة الإسماعيلية بين الغلويين (المستقرين)، والقداحين (المستودعين)، ويبدأ

العلويون بمحمد بن إسماعيل، فأحمد ، فالحسين، فعلى (المعــل) فمحمــد (القائم) فى حين يبدأ القداحون (المستودعون) بميمون، فعبد الله ، فمحمد ، فالحسين، فأحمد، فسعيد، غير ان مستشرقا آخر يفند هذه الأفكار فى حين يناقشها باستفاضة أحد المؤرخين(33) المسلمين المحدثين.

أما المؤرخ الإسلامى الذائع الصيت عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى البغدادى، فإنه يذكر فى مؤلفه القيم الفرق بين الفرق أن زعمــاء الباطنية يرون أن الإله قد خلق النفس، فالإلة هــى الأول، والــنفس هــو الثانى، والإله والنفس هما مدبرا هذا العالم، وربما يمكن تسميتهما بالعقــل والنفس، ويضيف البغدادى قائلا: أن هذا القول بعينه هو قول المجــوس، وأن الباطنية قد عبرت عن الصانعين بالأول، والثانى، وعبــر المجــوس عنهما بيزدان واهرمن.

ويرى إخوان الصفا- وهم شيعيون بــاطنيون- طبقــا لمــا رواه البغدادى أن الفلاسفة هو ما يعولون عليه، فى حين يقول الــشهرستانى أن الباطنية القديمة خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم علــى هذا المنهاج، ويقــول دوزى: "أن ميمــون مؤســس التعــاليم الباطنيــة والإسماعيلية، كان يبحث فى أنصاره بين الثنويــة والــوثنيين، وتلاميــذ الفلسفة اليونانية وأن الإئمة، والأديان، والأخلاق ليست ســوى ضــلالا، وأن العامة ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ، إلا أنــه كــان يــستعين بهــم، ولا يصدمهم، وكان دعاته يظهرون فى أثواب مختلفة، ويحادثون كل طبقة باللغة التى يفهمونها(34).

ومن الثابت أن إخوان الصفا قد ظهروا فى القرن الرابع للهجرة، وكان منهم- كما حدث أبو حيان التوحيدى- زيد بن رفاعة وأبو ســليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى، والعوفى،وغيرهم، وكانت هذه الجماعة قد تــصافت بالــصداقة

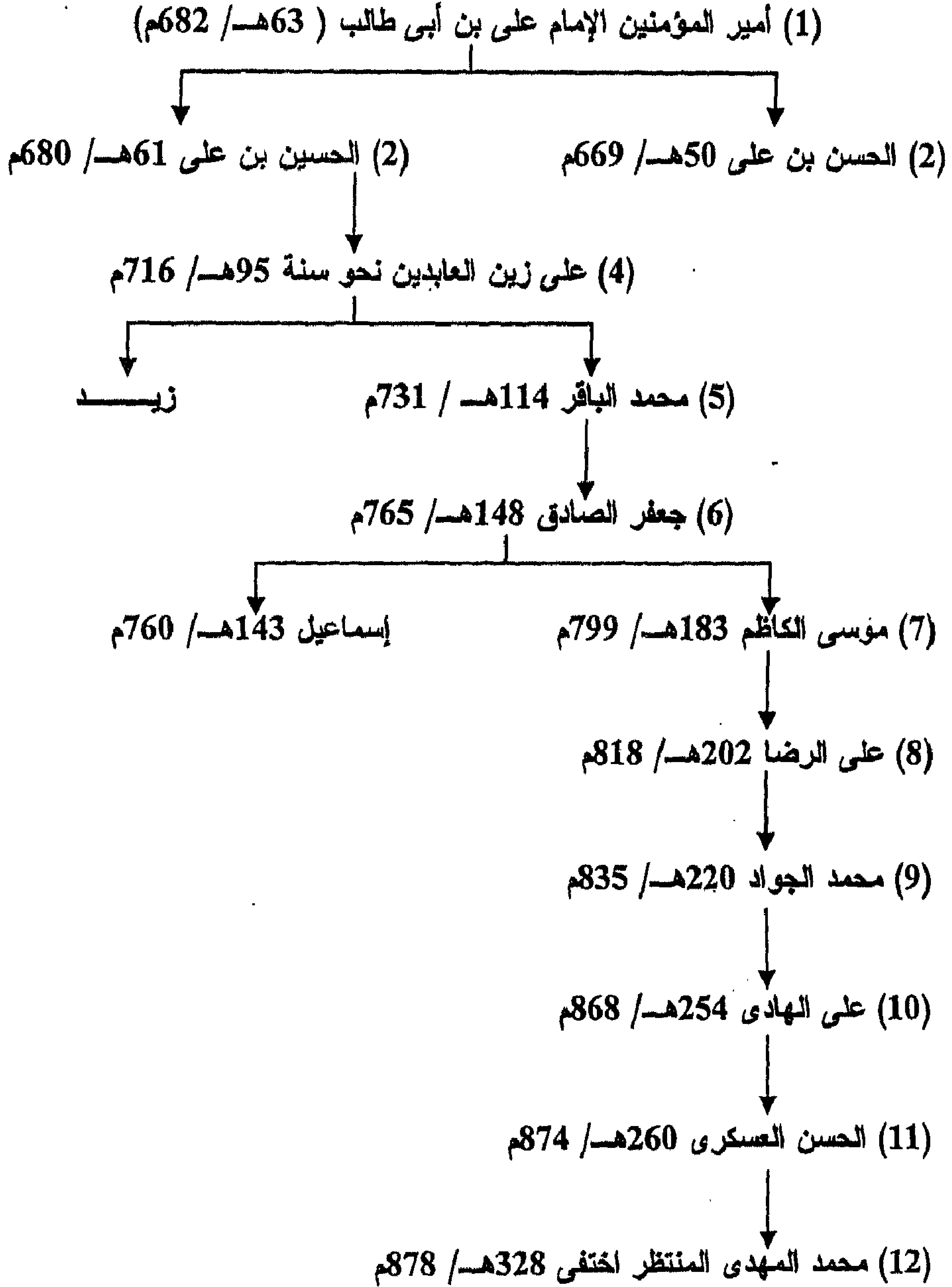
ووضعوا مذهبا زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله، ذلك أنهم قالوا أن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلال ولا سبيل إلى غسلها إلا بالفلسفة، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال- وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها، وأفردوا لها فهرستا، وسموها رسائل إخوان الصفا، وكتموا فيها أسماءهم، وبثوها فى الوراقين، ووهبوها للناس.

والواقع أن المصادر تختلف عند التعرض لفكر إخوان الصفا، فبعض هذه المصادر ترى أنهم شيعة إسماعيلية، وبعضها الآخر، ترى أنهم ليسوا شيعة إسماعيلية.

وعموما فإن المتتبع لحركة الإسماعيلية، وتطورها، ليلمس حسن تنظيمها، وقوة الدعاية لها، وقد تظاهر دعاتها بانتمائهم إلى إحدى المهن، فإذا ما شعروا بالطمأنينة والطاعة والزهد فى الدنيا والتقوى فيمن أمامهم فإنهم يحدثونهم عن آل الرسول وما تعرضوا إليه من مظالم مستغلين عواطفهم الجياشة حتى يعتنقوا عقيدتهم، ويشمل ذلك أيضا النصارى والصابئين واليهود،و يذكر ابن النديم[35]. فى الفهرست أن دعاة الإسماعيلية قد قسموا كتبهم درجات، فكتاب البلاغ الأول للعامة، وكتاب البلاغ الثانى لنفر أفضل من العامة قليلا، والبلاغ الثالث لمن دخل المذهب سنة، والرابع لمن دخل المذهب سنتين، والخامس لمن دخله ثلاث سنوات، والسادس لمن دخله أربع سنوات، أما الكتاب السابع فيحتوى على نتيجة مذهب الإسماعيلية والكشف الأكبر، ويضيف البغدادى[36] فى الفرق بين الفرق قائلا: أنهم – أى الإسماعيلية- قد اضطروا بمرور الزمن إلى جعل درجاتهم تسعا بدلا من سبعة، تسهيلا للدعوة، وتقريبا للأذهان.

الشجرة العلوية

الأئمة الأثنى عشر



8- القرامطة:

تختلف المصادر حول نشأة حركة القرامطة وتطورها، فهناك رواية تذكر أنه بعد وفاة عبد الله بن ميمون، فقد قام ابنه أحمد بالأمر من بعده، وبعث بالحسين الأهوازى إلى الكوفة، وفى طريقه شخصا اسمه حمدان "قرمط" لمذهبه، فاستجاب، وأنزل الحسين فى داره، وأخذ الحسين يدعو الناس، فاستجاب له أهل المنطقة، ولما حضرته الوفاة عهد بالأمر من بعده إلى حمدان، أما الرواية الأخرى فتذكر أن رجلا متعبدا من أهل الأهواز قدم الكوفة، وأخذ يدعو لآل على، فأجابه كثيرون، ورتب للدعوة اثنى عشر نقيبا، وفرض على أتباعه خمسين صلاة بدل خمس ثم رحل إلى الشام، ونزل فى سلمية، واستخلف حمدان قرمط، وفى الروايتين السابقتين يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أن الأهوازى قد تمكن من نشر دعوته فى الكوفة، وعند وفاته، عهد بالأمر إلى حمدان الملقب بقرمط.

وكلمة قرمط وإليها ترجع كلمة القرامطة، هى كلمة اختلفت الأقوال[37] فيها، فالباحثون العرب يرون أن هذه الكلمة عربية فى حين يراها المستشرقون غير عربية بل ويختلفون فى مصدرها، ولعل فى اختلاف آراء الباحثين حول حقيقة هذه الكلمة ونسب القرامطة ما يوضح غموض نشأة هذه الفرقة، وهو ما يكاد يجمع عليه الشهرستانى، والبغدادى وابن حزم، أما المؤرخ المسلم أو عبد الله بن رزام (أو زرام)، وهو مؤلفن سنى عاش فى أوائل القرن الرابع للهجرة، فقد نقل عنه فى مؤلفاته عن العقائد الإسلامية أن حركة القرامطة وحركة الإسماعيلية هما من معدن واحد وأن ميمونا القداح، وابنه عبد الله اللذين سبقت الإشارة لهما عند استعراض حركة الإسماعيلية، هما اللذان أديا دورا هاما فى خلق مذهب القرامطة، فعندما سار عبد الله بن ميمون القداح إلى البصرة قادما من الأهواز أخذ يدعو لمحمد بن إسماعيل، وكان معه رجل يدعى حسين

الأهوازى، ولما طارده العباسيون، فر إلى "سلمية"، واتخذها مقـرا لـه، وبعث بدعاته إلى العراق، فأجابه رجل من سكان "الطالقـان" فـى سـنة 261هـ يدعى حمدان بن الأشعث، ويلقب بقرمط، حيث قوى أمر قرمط، وذاع صيته، واستقطب الكثيرين حوله، ومنهم سعيد الحسن ابـن بهـرام الخبابى بالبحرين والذى قام مذهب القرامطة على يديه وصارت البحرين مقر الدعوة ومركزها.

أما الطبرى وابن النديم فيصفان أسلوب حمدان قـرمط بالمهـارة والذكاء والفطنة فى دعوته لحركته، كما وفق إلى معاونين يتسمون بالنشاط ساعدوا كثيرا فى نشر هذه "الدعوة" بل أن منهم من ألف كتبا فقهية مثـل الفقية عبدان[38]. وأبو سعيد الخبابى الذى أشرف على الحركة فى إيران، ونجح فى استقطاب سكان إيران وعبدان إلى جانبه حينما طالب بحقـوق الحسين، ثم وضع الأسس المنظمة للدعوة وخاصة من ناحيـة التمويـل، ففرض ضريبة أطلق عليها ضريبة " الفطر"، ثم ضريبة "الهجرة" وضريبة "البلغة" ومن الغريب أن أتباعه قد زاد عـددهم وخاصـة مـن الأنبـاط، والفلاحين، والصناع، والبدو، ولما قوى سلطانهم أخذ يبـث فـيهم روح الثورة على جميع من يخالفهم فى العقيدة، وأباح الحرمات، وأسقط عـنهم الفروض الشرعية، واستطاع بدعوته إلى الاشتراكية فى المال أن يستميل أتباعا أكثر من الفقراء الين خدعوا وحملوا السلاح فى وجه الدولة العباسية سنة 284هـ حيث فشلت جهود الخليفة العباسى فى قمعها لأنها كانت قـد استقطبت الكثيرين فى بغداد ذاتها وأصبحوا من أنصار الحركة ومؤيـديها كما يقول[39] ابن الأثير، وفى سنة 287هـ قام القرامطة بتمرد مسلح فى المنطقة الواقعة بين واسط والكوفة، ويذكر الطبرى[40] أن القرامطة قتلوا الكثيرين من المسلمين، وأحرقوا منازلهم، وجاء رد فعل الخليفة العباسـى المعتضد عنيفا، حيث بعث إليهم سنة 288هـ بجيش تغلب على القرامطة

وأسر قادتهم وقد شرح كل من ابن الأثير والمسعودى هذه الوقعات وصولا إلى سنة 316هـ حيث سار جيش القرامطة بقيادة أبو طاهر سليمان بن أبى سعد الخبابى إلى البصرة وفتك بأهلها، ونهب المدينة، وسار فى طرق الحج فأسر عددا كبيرا من الحجاج، ثم توجه إلى البصرة، والكوفة وفتك بأهلها، وقهر جيش الخليفة، وبلغت أخباره بغداد حيث خشى أهلها قسوة القرامطة وفظاعة جرائمهم لكن أبا طاهر سيطر على الأنبار والجزيرة ودخل قسم كبير من سكانها فى نحلته[41].

وفى سنة 317هـ سار أبو طاهر بجيشه إلى مكة فنهب الحجاج واقتلع الحجر الأسود وملأ المسجد الحرام بالقتلى، و غضب العالم الإسلامى، غير أن أبا طاهر لم يعبأ بهذه الاحتجاجات وصيحات الاستنكار، وظل على فساده حتى مات ودفن بالكوفة، وبقى الحجر الأسود بعيدا عن مكة قرابة ثلاثين سنة فى عاصمة القرامطة بالإحساء.

وفى الشام ، يذكر المؤرخون اسم القرامطة لأول مرة سنة 291هـ حيث تمكن زكريا بن المهدى الكوفى- وهو أحد دعاة قرمط- من أغواء بنى كله، فأجابه بعض بطونها إلى اعتناق المذهب، وبايعوا يحيى بن زكريا ابن المهدى الكوفى الذى زعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق، وسار بأصحابة إلى الرصافة فأحرقوا مسجدها وفتكوا بمعظم أهلها، ثم دخلوا الشام وهزموا جيش أحمد بن طولون، وحاصروا دمشق، ويذكر الطبرى[42]. أن أمرهم قد اشتد فى الشام فى حين أخذ نفوذهم ينحسر عن العراق، حيث أعلن حمدان قرمط انفصاله عن حركة القداحى فى سليمة لأن ابن القداحى وهو حسين لا يدعوا لمحمد بن إسماعيل ابن جعفر صاحب الزمان، وإنما يدعو لأبيه عبد الله القداح، وأدرك حمدان قرمط أن القداحين قد خدعوه، فقطع صلته بهم، وانفصل عنهم وتلى ذلك اختفاء حمدان ذاته كما تذكر المصادر[43].

ترتب على الخلاف الذى وقع بين قيادات حركة القرامطة، أن فقدت الحركة كثيرا من حيويتها ونشاطها، وانتقلت زعامتها إلى الشام بقيادة زكريا بن المهدى، الذى تلقبه المصادر بزكرويه، وبموته خلفه أبناؤه يحى، وأبو القاسم محمد، وأبو العباس الحسين، وأبو الفضل محمد الأصفر، وكانت الزعامة ليحيى الذى ادعى أنه من نسل الإمام محمد .ابن إسماعيل، وأنه صاحب المعجزات ، ويذكر الطبرى[44]. أنه استغوى الأعراب بحيله وأن أمر القرامطة قد قوى فى عهده، ولما مات خلفه أخوه الحسين الذى ادعى هو الآخر أنه المهدى المنتظر، واشتدت سيطرته على الشام، فبعث إليه الخليفة العباسى المكتفى سنة 290هـ بجيش ودارت وقعات قرب حلب، توجه بعدها الحسين إلى دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه له، ثم دخل حمص، وحماة، والمعرة، وسلمية التى كانت مقر القداحين وفتك بأهلها، ولما ضاق أهل الشام به استنجدوا بالخليفة العباسى فى بغداد، فبعث إليهم بجيش كبير التقى بجيش القرامطة فى المنطقة الواقعة بين حماة وسليمة، فتفرق القرامطة وقتل قائد جيشهم، غير أن الجيش تجمع ثانية وأغار على مدن الشام، وعاث فى فلسطين فسادا ثم دخل الصحراء[45]. بعد اضمحلال نفوذه فى الشام، وأخذت الحركة تضعف شيئا فشيئا، ويجمل طلس[46] أفكار هذه الحركة وتطبيقاتها فى تنظيمها لأحوال الفلاحين، وأرباب الصناعات الصغيرة، وتآمرها على الدين الإسلامى وتقاليده والانعتاق من فكرة النبوات، ونشر الفلسفة المانوية، واليونانية وما إليها، والاكتفاء بفكرة الإمام المستتر وهو ما يمكن استخلاصه مما سبقت دراسته في رسائل إخوان الصفا، وبإيجاز فإن حركة القرامطة قد قامت فى بيئة معينة، لها ظروفها الخاصة، كذلك كان للدوافع الاقتصادية، والاجتماعية أثرها فى قيام هذه الحركة وانتشارها ويمكن تلمس ذلك من خلال المبادئ "الاشتراكية" التى طبقتها على الفقراء مما جعل الكثيرين منهم ينضوون تحتها بتأثير دعاياتها.

- **الفرق الإسلامية فى بلاد السند والبنجاب:**

سبقت الإشارة لتطور نشأة الفرق الإسلامية حيث كان الخلاف بين المسلمين حول الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وانقسامهم إلى رأيين: الأنصار يرون أن يكون الخليفة منهم فى حين رأى المهاجرين أنهم أولى بالخلافة وتمت البيعة أخيرا لأبى بكر الصديق فى عدم حضور على بن أبى طالب الذى تأثر فى عدم اشتراكه فى المناقشة، وتكون رأى ثالث هو أن تكون الخلافة فى بيت النبى ﷺ، وظلت هذه النظريات تتعارض فيما بينها فى العصور المختلفة، ولكن عدل أبى بكر وعمر جعلها تخمد ولم تثر العصبية القبلية فى عهدهما وصولا إلى عهد عثمان بن عفان وهو أموى استعان بالأمويين وكان أكثر معاونية منهم، وبعد قتله بايع كثير من المسلمين عليا غير أن بعض الصحابة الكبار خرج عن هذه المبايعة مثل طلحة والزبير ومعاوية بن أبى سفيان وألصقوا تهمة أن لعلى بن أبى طالب ضلعا فى قتل عثمان، وشهدت العصور التالية تأسيس فرق إسلامية كبرى هى الشيعة والخوارج والمرجئة على نحو ما سبقت الإشارة إليه تفصيلا.

انقسم الخوارج إلى فرعين: فرع بالعراق بالقرب من البصرة وقد استولوا على كرمان وبلاد فارس، والفرع الثانى بجزيرة العرب وقد استولوا علي اليمامة وحضرموت واليمن، وقد حاربت الدولة الأموية الفريقين معا مما جعلهم- أى الخوارج يخرجون فى مجموعات كبيرة إلى البلاد المفتوحة كبلاد السند، وقد ضعفت قوة الخوارج فى عهد الدولة العباسية التى قضت عليهم تدريجيا.

وفى بلاد السند والبنجاب فإن المصادر التاريخية تضطرب حين تتعرض لتاريخ الخوارج هنا، وتذكر إحدى الروايات أن جماعة من العرب هم " العلافون" قد فروا هاربين من الحجاج بن يوسف الثقفى ولجأوا إلى الملك(47) داهر ملك بلاد السند الذى رحب بهم حيث كانوا

خمسمائة فارس مقاتل ورأى أن يتخذ منهم قوة لمحاربة العرب فى إقليم مكران ببلاد السند حيث حارب حكام السند الولاة العرب نحو نصف قرن منذ عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، ولم يمض وقت قصير حتى قام العلافون بالفتن السياسية ضد الولاة الأمويين للقضاء على الولاية العربية الأموية بتأييد عسكرى من الملك داهر السندى حتى استولوا على الحكم فى مكران وظلوا يحكمونها بضع سنوات هربوا بعدها- خوفا من جيوش الحجاج بن يوسف الثقفى- إلى داخل بلاد السند ثم ساعدوا الملك داهر سنة 87هـ- 706م فى إحدى معاركه الهامة لمهارتهم القتالية، وكونوا فرقة مستقلة فى جيش السند وكان محمد بن الحارث العلافى أكبر قادتهم أحد كبار المستشارين العسكريين للملك داهر حتى مقتل الملك داهر سنة 92هـ إثر استيلاء محمد بن القاسم الثقفى على بلاد السند.

وتذكر المصادر أن كثيرا من زعماء الخوارج كانوا يلجأون إلى بلاد السند هروبا من الأمويين، وقد عمل الخوارج فى السند على أضعاف الحكم الأموى باستمرار للقضاء عليه، وصولاً إلى العصر العباسى حيث كانت الخوارج معروفة عند العباسيين لأنهم عملوا معهم ضد الدولة الأموية، وكان بعض الخوارج من عمان يحضرون إلى بلاد السند لكونها بعيدة عن نفوذ العباسيين ومنهم- على سبيل المثال- حسان بن مجاهد الهمذانى الذى حضر إلى بلاد السند عن طريق البحر سنة 142هـ، لكنه اضطر للعودة إلي الموصل لأن الوالى العباسى عمر بن حفص لم يعط له الفرصة لتحقيق مهمته فى وجود مؤيدين لدعوته فى بلاد السند.

بعث عمر بن حفص الوالى العباسى فى السند بعبد الله الأشتر ابن محمد الأموى[48] إلى البصرة لشراء خيول والتوجه بها إلى بلاد السند بحرا على أنهم تجار خيل، غير أن الغرض الحقيقى كان القيام بالدعوى للشيعة فى بلاد السند[49]. ولما وصلوا للمنصورة أكرمهم واليها عمر ابن

حفص ، ولما أخبره أحدهم بالحقيقة، فقد خاف عبد الله الأشتر عند سماعة بمقتل أبيه محمد العلوى وقال لعمر بن حفص: "إن أمرى قد ظهر ودمى فى عنقك"، فبعث به عمر بن حفص إلى أحد ملوك السند واجتمع حوله ما يقرب من خمسمائه شخص من علماء الزيدية، ولما علم الخليفة المنصور بذلك عزل عمر بن حفص عن ولاية بلاد السند.

ومن الأرجح أن عبد الله بن الأشتر قد قدم إلى بلاد السند فى سنة 145هـ وهو ما يعتبر بداية الحركة الشيعية فى هذه البلاد وبعد مقتله انتشر أصحابه وأتباعه البالغ عددهم أربعمائه من علماء الزيدية فى مختلف المناطق ببلاد السند، ثم ظهر عبد الله المهدى يدعو للخلافة فى بلاد الشام بعد ذلك بحوالى قرن، وقد قويت سلطته الروحية والسياسية والمادية فبعث بأحد دعاته إلى بلاد السند فى سنة 270 هـ وكان هذا هو أول داع للشيعة فى بلاد السند حيث مركز الشيعة بالشام هو الذى يصدر تعليماته إلى الدعاة وبعد استيلاء عبد الله المهدى على أفريقيا صارت مدينة القيروان مركزا لدعوته حتى بنى مدينة المهدية التى صارت عاصمة للدولة الفاطمية، وكان دعاة الشيعة يأتون إلى بلاد السند والملتان ويعودون بعد آداء مهمتهم فى الدعوة إلى المذهب الشيعى.

نجح الشيعة فى تكوين دولتهم فى شمال أفريقيا، وامتدت دعوتهم لمذهبهم فى الولايات التابعة للخلافة العباسية مثل إيران وتركستان والسند وغيرها، ويرى الطرازى[50] أن الشيعة يبدو أنهم لو ينجحوا فى الدعوى لمذهبهم فى المنصورة ببلاد السند لسنوات طويلة بسبب وجود العلماء والقواد من أهل السنة المخالفين لآراء الشيعة، ومن ثم وجه الشيعة اهتمامهم إلى مناطق أخرى أهمها إقليم الملتان حيث تكونت قوة كبيرة هناك فى أواخر القرن الرابع الهجرى، وتجدر الإشارة أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قد أرسل داعيا باسم حلم بن شيبان متنقلا بين

مصر والملتان لمدة ثمانية عشر عاما دعوة الشيعة، وهو قائد حملة الخليفة الفاطمى إلى الملتان للاستيلاء عليها وإسقاط الدولة العربية السنية بـإقليم البنجاب سنة 375هـ حيث كان جلم بن شيبان أول حاكم شيعى فى الملتان.

وفى سنة 396هـ قام السلطان محمود الغزنوى بالحملة على الملتان وقضى على دولة الشيعة فيها بعد أن خالف الحاكم الشيعى هناك عهده معه سنة 396هـ حيث زالت الدولة الشيعية فى الملتان سنة 402هـ لتحل محلها الدولة السنية التابعة للدولة الغزنوية، أما المنصورة فقد سبقت الإشارة أنها كانت فى أيدى الحكام السنيين من العرب وهم من الأسرة الهبارية حتى سنة 402هـ غير أن الشيعة الذين طردوا من الملتان سنة 402هـ قد جمعوا شتاتهم ونجحوا فى الاستيلاء على المنصورة حتى قام السلطان محمود الغزنوى بحملته على بلاد السند سنة 416هـ وقضى على الحكومة الشيعية فى المنصورة وقامت محلها دولة سنية تابعة هى الأخرى للدولة الغزنوية، وعموما فقد قامت للشيعة دولتان فى إقليم البنجاب الأولى فى أواخر القرن الرابع الهجرى فى الملتان واستمرت نحو سبعة وعشرين عاما، والثانية فى المنصورة ببلاد السند ودامت نحو أربعة عشر عاما، وبالرغم من زوال هاتين الدولتين فإن دعوة الشيعة استمرت فى بلاد السند والبنجاب وزاد نفوذهم هناك.

مراجع الفصل الرابع من الباب الثالث

(1) لاحظ تداخل القنوات الزمنية فى هذه الدويلات وهو ما سبقت الإشارة إليه تفصيلا ص.

(2) ابن طباطبا، تاريخ الفخرى ص 245- 246.

(3) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى، ص 88 نقلا عن آراء ابن دحية، النبراس فى تاريخ بنى العباس.

(4) وقد علم الخليفة الراضى لذلك فقطع يده، ثم قطع لسانه.

(5) راجع ص 184- 206.

(6) ابن طباطبا الفخرى ص 254.

(7) ابن أبى الحديد، نهج البلاغة، الجزء الثانى.

(8) يعنى أن المهاجرين احتجوا بأنهم من شجرى النبى ﷺ فأولى بالاحتجاج من يجمعهم والنبى بأنهم من ثمرة قريش، راجع: أحمد أمين، فجر الإسلام- دار الكتاب العربى ، بيروت 1979.

(9) المرجع نفسه ص 253.

(10) غير أن واقع الأحداث التاريخية يدل على ان عليا قد بايع أبا بكر، ولكن بعد تلكؤ، كما بايع على عمر وعثمان من بعده،ومع ذلك فإن عليا كان يرى أنه كان أولى بالأمر منهم.

(11) وهو عبد الرحمن بن ماعجم الخارجى، وكان زوجا لامرأة قتل كثير من أفراد أسرتها فى موقعة النهروان.

(12) راجع الشهرستانى، الملل والنحل، الجزء الأول ص 160- 161.

(13) راجع : الشهرستانى، الجزء الأول ص 210- 218.

- البغدادى، الفرق بين الفرق.

(14) مقدمة ابن خلدون، الفصل السادس والعشرون.

(15) راجع: دكتور محمد نصر مهنا، علوم السياسة، دراسة فى الأصول والنظريات دار الفكر العربى، القاهرة 1988 ص 86- 87.

(16) اعتمدنا فى صياغة أفكار أصحاب هذه العقائد على التحليل القيم للدكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى، مرجع سابق ص 41- 64.

(17) إن هذه الحركات العقائدية فى معظمها والتى بدأت فى الظهور من عصر الدولة الأموية وتصاعدت تأثيراتها فى عهد الدولة العباسية، لم تكن فى الواقع سوى هدم للإسلام وإرجاع الملك إلى الفرس وهو ما يستدل عليه مما سبق عرضه عن الروائدية والمقنعة والحرمية.

(18) أحمد أمين، فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1975 ص235- 270.

(19) المرجع نفسه ص 269.

(20) الدكتور أحمد قاعور " الدكتور شحادة الناطور" مرجع سابق نقلا عن ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الثانى ص 154.

(21) وقد سبقت الإشارة أن اليهودى عبد الله بن سبا هو الذى دعا إلى تأليه على وكان ذلك فى حياته، وفى حين يذهب بعض الباحثين إلى أن عبد الله بن سبأ خرافة لا وجود لها، فإن آخرين ينفون ذلك ويضيفون أن عبد الله بن سبأ هو الذى حرك أبا ذر الغفارى للدعوة للأشتراكية، وهو من حرض الأنصار على عثمان، وهو الذى وضع تعاليم لهدم الإسلام، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه واتخذ الإسلام ستارا يتستر به نواياه الخبيثة، وتنقل بين البصرة إلى الكوفة إلى القاهرة حيث التف الناس حوله ونشر تعاليمه فى القاهرة حول الوصاية لتحريض أهل مصر على عثمان، ثم الرجعة حيث زعم أن محمدا ﷺ يرجع وقد سبقت الإشارة إلى ذلك فى المتن.

(22) المبرد، الكامل.

(23) ابن عساكر.

(24) ابن حزم، الجزء الرابع ص 203- 205.

(25) مثال ذلك قصيدة أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى وجاء فيها:

يا هذا فاستمعى لى أن سيرتنا	أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة	ونصدق القول فيمن جار أو غدا
المسلمون على الإسلام كلهم	والمشركون استووا فى دينهم قددا

ومن ذلك ما قاله عمرو بن عبد الله بن عليقة بن مسعود:

فأول ما أفارق غير شك   أفارق ما يقول المرجئونا

وقالوا مؤمن دمه حلال   وقد حرمت دماء المؤمنينا

(26) المسعودى، مروج الذهب.

(27) الطبرى، الجزء الأول.

(28) الشهرستانى، مصدر سابق 136، راجع أيضا: ابن حزم، أبو محمد على بن سعيد بن حزم الأندلسى، المتوفى سنة 456 ، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة 1491هـ/ 1971، الجزء الثانى ص 112.

(29) أعتمدنا فى هذا الجزء من الدراسة على دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب المجلد الثانى 2ص 44- 55 والذى اعتمد بدوره على: الطبرى، الجزء الثالث ص 154 والجزء التاسع ص 250.

(30) ابن النديم، الفهرست ص 185- 187

- البغدادى، الفرق بين الفرق ، مصدر سابق.

(31) دكتور محمد أسعد طلس، م س ذص 49.

(32) المرجع نفسن عن برنارد لويس**Lewis Bernard The Origine of**. **Ismailism, Combridge, 1940** الإسماعيلة، الترجمة العربية، ص162.

(33) راجع فى تفصيل ذلك:

Ivanov: A Gide to Ismaili Culterative . London 1933.
Ivanov: The Rise of The Fatimide, Calecutta, 1942.

(34) المرجع نفسه نقلا عن الدكتور عبد العزيز الدورى، دراسات عن العصور العباسية المتأخرة، بغداد، بدون تاريخ إصدار ص 141- 144.

(35) ابن النديم، الفهرست ص 265- 268.

(36) البغدادى، الفرق بين الفرق ص 8484 وراجع بتفصيل آراء هؤلاء الدعاة فى دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى ص 53- 55.

(37) يفسر البغدادى فى الفرق بين الفرق قول العرب قرمط الرجل فى مشية إذا قارب الخطوات، ويتفق معه النديم فى الفهرست ص 117 فى حين يرى

المستشرق ايفانوف أن كلمة القرامطة كلمة عراقية جنوبية، وأنها مأخوذة من "كرامته" أو " كرموته" وأنها عربت فقيل قرمط ومعناها الفلاح أو القروى، أما بروكلمان فيرى أنها كلمة آرامية، ومعناها "بعلم" سرى، فى حين يذكر دى ساس فى مقدمة كتابة عن الدروز وعلتهم أن لفظ "قرامطة" هى لفظة نبطية، وأن "كرميتة" معناها الأحمر الأعنين لأن حمران قرمط كان نبطيا من أهل السواد، راجع : دكتور محمد أسعد طلس ، م . س. د.

Ivanov: A Gide to Ismaili Culterative, op. cit. pp. 68- 70.

- كارل بروكلمان، ترجمة نتبه فارس ومنير البعلبكى، تاريخ الشعوب الإسلامية، الجزء الثانى ص 730.

(38) ابن النديم، الفهرست ص 264- 269.

(39) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الثامن ص 135- 136.

(40) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الحادى عشر ص 335- 368.

(41) دكتور محمد أسعد طلس ص 59- 61.

(42) الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، الجزء الحادى عشر ص 377- 378.

(43) دكتور محمد أسعد طلس ص 62نقلا عن:

De Goge, Memoire sur les Garnathes de Bahrain Leiden 1882 pp. 66- 68.

(44) الطبرى، الجزء الحادى عشر ص 380.

(45) دكتور محمد أسعد طلس ص 62.

(46) المرجع نفسه ص 63.

(47) البلاذرى، فتوح البلدان، الجزء الثالث، ص 530- 535.

- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الرابع.

(48) حول نشأة الشيعة عموما راجع:

- السيوطى، التفسير والمفسرون، الجزء الثانى ص 2- 7.

(49) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء الخامس ص 28- 32.

(50) دكتور عبد الله مبشر الطرازى، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، الجزء الأول، مرجع سابق ص 983.

الفصل الخامس
سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة

- ما قبل السقوط.
- شئون الخلافة والحركات الباطنية.

1- السلاجقة.
2- الأتابكية.
3- الخوارزم.

ما قبل السقوط:

انصرف الخلفاء العباسيون عن تصريف أمور الحكم، وانشغلوا بتوافه الأمور، فى حين قوى شأن سلاطين السلاجقة كما سبقت الإشارة، فلما ضعف هؤلاء، فقد انعكس ذلك على كافة شئون الدولة، داخليا وخارجيا، فذلت (بضم الذال) الخلافة ذلا واضحا، وتسلط المماليك على خلفائهم، فأنزوى الخلفاء فى قصورهم يعيشون فى ترف، ولم يستطع الخلفاء مواجهة رغبات السلاجقة أو وزرائهم،وجاء انحلال الدولة السلجوقية ذاتها إيذانا بسقوط الخلافة العباسية.

وكان من نتائج ضعف الخلافة، أن قويت الحركات الباطنية عموما وأهمها الإسماعيلية- على نحو ما سبقت الإشارة إليه- وفرضت هذه الحركات أفكارها التى لا تتواءم والقيم الإسلامية الحقيقية، ونجحت فى تقويض أركان الدولة العباسية ذاتها، وتذكر المصادر أن الخلفاء الفاطميين فى مصر قدأدوا دورا كبيرا فى نشر الإسماعيلية، وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة إلا بالقدر الذى أدى إلى سقوط الدولة، وسوف نرى فى موضع لاحق كيف أثر ضعف الخلافة على تقوية الصليبين وسيطرتهم على بلاد الشام، حتى تمكن صلاح الدين الأيوبى- بشكل أو بآخر- من القضاء على الفاطميين واستعادة الخلافة الإسلامية لبعض هيبتها.

وشهدت الفترة السابقة على سقوط الدولة العباسية سيطرة العناصر غير العربية وخاصة الأعاجم على زمام الأمور، ويصف المؤرخ الذائع الصيت ابن خلدون هذه الفترة قائلا[1]: "وهذا ما وقع لبنى العباس، فإن عصبية العرب، كانت قد فسدت بعد دولة المعتصم وابنه الواثق، واستظهارهم بعد ذلك، إنما كان بالموالى من العجم والترك والديلم والسلجوقية وغيرهم، ثم تغلب العجم الأولياء على النواحى، وتقلص ظل

الدولة ، فلم تكن تعدو أعمال بغداد،حتى زحف إليها الديلم وملكوها، ثم صار حكمهم، ثم انقرض أمرهم، وزحف أخيرا التتار، فقتلوا الخليفة ومحوا اسم الدولة".

ويقارن طلس[2] الأوضاع المخزية التى انتهت إليها الدولة العباسية يوم سقوط بغداد ، بالإوضاع الكريمة التى كانت عليها الدولة الإسلامية حينما سار الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدون والأمويون لغزو العالم وفتحه، حيث يتضح مدى الذل الذى حاق بهؤلاء الخلفاء العباسيين والسقوط الاجتماعى والخلقى الذى انحدروا إليه. أما صاحب الفخرى فيصف أحوال بغداد، وتحذير ابن العلقمى للمستعصم من الاستمرار فى غيه قائلا: "كان المستعصم رجلا متدينا، لين الجانب، عفيف اللسان، إلا أنه كان مستضعف الرأى، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، غير مهيب فى النفوس، غير مطلع على حقائق الأمور.... وكان أصحابه جهالا ومن أرذال القوم إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى، فإنه كان من أعيان الناس، وعقلاء الرجال..... وفى أواخر أيامه،.... وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شىء، ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال، ولم يكن يتصور حقيقة الحال فى ذلك، ولا يعرف هذه الدولة".

أما أحوال الأمة الإسلامية وخاصة فى آسيا، فقد سادها الانقسام والتجزئه، واختلاف وجهات النظر بين العرب، والترك، والديلم، والروم، والفرس، واليهود، والنصارى، وساءت معاملة الخلفاء لأهل الذمة، وفقدوا القيم الإسلامية والأخلاقية، فإذا أضفنا إلى ذلك دور الفرق العقائدية الهدامة من قرامطة وباطنية فإن ذلك يفسر تردى الأوضاع لهذه الدولة إلى الدرك الأسفل خاصة بعد اضطراب الأحوال الاقتصادية وانتشار الفقر وفساد الخلفاء وعائلاتهم مما كان له تأثير سيىء على المقومات الخلقية.

شئون الخلافة والحركات الباطنية:

لما مات الخليفة القادر سنة 422هـ بويع ابنه عبد الله أبو جعفر الذى لقب بالقائم بأمر الله، واستمرت فترة خلافته ثلاث وأربعين عاما، وكان والى العراق فى عهده من بنى بويه- جلال الدولة- غير حازم فاضطربت أحوال الخلافة، وساد الفساد، وبموت جلال الدولة، تولى ابن أخيه سلطان الدولة ولاية العراق ولقبه الخليفة بمحيى الدولة واستمر الفساد فى عهده حتى موته، فخلفه ابن خسرو فيروز إلى أن طرد بواسطة طغرل بك السجوقى، وقضى على دولة آل بويه[3] – كما سبقت الإشارة- وابتدأت الدولة السجلوقية التى اتخذت مرد عاصمة لها، ثم توسعت حدودها فشملت معظم شرق الدولة العباسية.

وكانت بغداد هى الأخرى من الدولة الفاطمية الشيعية، فأسرع الخليفة القائم، واستنجد بالسلاجقة السنيين لحمايته من أعدائه الفاطميين وأمر الخطباء فى المساجد بالدعاء لطغرل بك سنة 447هـ، وأصبحت بغداد بذلك ممهدة لدخول طغرل بك، فسار إليها، واستقبله الخليفة فى نفس العام حيث توثقت العلاقة بين العباسيين والسلاجقة، حيث ترتبط هذه الفترة بالفريقين معا، وبموت طغرل بك خلفه عضد الدولة أبو شجاع ألب أرسلان محمد بن داود بن سلجوق، وكان حازما، فتحسنت أحوال الدولة فى عهده، ولما مات ألب أرسلان خلفه جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه وفى فترة حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله سنة 467هـ وخلفه حفيده أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة أبى العباس محمد بن الخليفة القائم، وفى عهده توسعت رقعة البلاد وامتدت من الصين إلى اليمن، وشملت سمر قند والمشرق وخلفه ابنه أحمد المستظهر بالله، وكانت أيامه أيام هدوء وسكينة لولا أن ابن ألب أرسلان صاحب دمشق قد طمع بالسلطنة، وتوالت الوقعات والفتنة داخل آل البيت السلجوقى ذاته فى الفترة من سنة 492إلى

سنة 497هـ، وشهدت هذه الفترة أحداثا هامة على صعيد العلاقات السياسية والإسلامية حيث أغار الفرنج على المملكة الإسلامية، وجاءت فترتا خلافة المستظهر بالله، فالمسترشد بالله لتشهدا أحداثا خطيرة فى آسيا الإسلامية برمتها، وتمثلت هذه الأحداث- داخليا- فى تصاعد نفوذ الباطنية، وخارجيا فى تحدى العالم المسيحى الغربى الذى ظهرت بوادره فى الحروب الصليبية.

شهدت الفترة من سنة 512هـ إلى سنة 640هـ تعاقب حكم العباسيين السلاجقة معا، بدءا بالمسترشد بالله ومرورا بالراشد بالله منذ سنة 529هـ والمقتفى لأمر الله سنة 530هـ.

ويورد الفخرى تفصيل أحداث هذه الفترة التى انتهت بأفوال نجم السلاجقة، و تولى أمراء الخليفة العباسى أقاليم أملاكهم فى حصن كيفا، وماردين، ودمشق، والموصل، وحلب، وسنجار، والجزيرة، وأربل، وأذربيجان، وفارس، ولورستان حيث قامت فى هذه المدن دويلات متعددة من أسلاب الدولة السلجوقية التى كان قد أسسها طغرل بك وألب أرسلان، ويلاحظ أن المقتفى بالله استمر مستقلا بالعراق حتى وفاته وعلى صعيد الخلفاء العباسيين فقد خلفه ابنه المستنجد، ولم يكن له نفوذ فى العراق، وخلفه ابنه المستضىء بالله أبو محمد الحسن، ثم الإمام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد ابن المستضىء بالله الذى يعتبر أطول الخلفاء العباسيين عهدا فقد حكم ما يقرب من سبعة وأربعين سنة، وخلفه ولده أبو نصر، ثم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله سنة 623هـ وفى عهده تم للمغول السيطرة على بلاد إيران إلى حدود العراق، ثم خلفه ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله آخر الخلفاء العباسيين على يد هولاكو المغولى فى 20 محرم سنة 656هـ، حيث حل الخراب والدمار، وجرائم القتل الفظيعة والتى قدرها السيوطى بما يقرب من مليون نسمة(4).

ولم يترك هولاكو أحدا من العلماء أو الأمراء أو كبار الموظفين أو التجار أو الأشراف على قيد الحياة وأرسلت نفائس بغداد إلى أذربيجان كما كان لسقوط بغداد تأثير كبير فى خضوع أمراء آسيا الغربية مثل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، والأتابك أبو بكر شن سعد صاحب فارس وسلاجقة الروم.

وكان رد فعل العالم الإسلامى على سقوط بغداد هو الوجوم التام والإحساس بالمرارة، حتى اعتقد فريق بدنو يوم القيامة، وأن هذه الأحداث الرهيبة سخط من الله سبحانه وتعالى نظرا لخلو العالم الإسلامى من خليفة يحمى الإسلام حتى تولى الملك الظاهر بيبرس سلطة مصر سنة 658هـ، فاستقدم الإمام أحمد بن الإمام الظاهر بالله العباسى أحد القلائل الذين نجوا من مذابح المغول، وبايعه هو والعلماء والأمراء بالخلافة، وتلقب بالمستنصر بالله، واستمرت الخلافة العباسية فى مصر إلى أن قضى عليها السلطان سليم العثمانى.

وعلى الصعيد الداخلى شهدت الفترة السابقة على سقوط بغداد تعاظم دور الحركات الباطنية وخاصة الإسماعيلية التى نشطت فى أرجاء العالم الإسلامى معتمدة على كثير من الأسرار والأمور المحجوبة، وتفسير القرآن الكريم تفسيرات لا تعتمد على ظواهر النصوص، بل على الباطن، والمجازات، والاستعارات، والكفايات، وبأفكار مغايرة تماما لما أجمع عليه أهل السنة والجماعة مثل حلول الألوهية فى "إسماعيل"، وانتظار رجعته مهديا، وفكرة تناسخ الأرواح، وفكرة نشوء الكون متجليا عن ذات الله سبحانه، وفكرة المراتب السبعة أو التسعة التى يندرج فيها المريد حتى يصل إلى درجة الكمال المطلق، وغير ذلك من الأفكار التى لايطلع

أسرارها إلا من يؤتمن جانبهم، وقد سبقت الإشارة إلى اتخاذ مدينتى سلمية والكوفة مقرين لهذه الحركة، وقد وجدت الفاطمية هى الأخرى – كحركة باطنية مشابهة للإسماعيلية– وجدت من يبث أفكارها فى العراق وإيران لأن أهلها يميلون إلى آل على، وكان هدف الفاطميين نشر (عقيدتهم) ثم القضاء على الدولة العباسية وهو ما يقتضى التعرض فى تفصيل غير قليل " للدعوة" الفاطمية فى نشأتها وتطورها باعتبارها هى الأخرى من الحركات الباطنية التى أثرت بشدة على حركة ا لتاريخ الإسلامى من حيث ارتباطها ردحا من الزمن بالحكم.

والواقع أن الفاطمين (297– 567هـ) كانوا قد ظهروا فى شمال أفريقيا سنة 297هـ. ورغم أن ما يتعلق بأفريقيا لا يرتبط بمجال هذه الدراسة– إلا أنه يجب التنويه– كما سبقت الإشارة– أن الفاطميين هم من الشيعة الإسماعيلية، وكان عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب ابن جعفر الصادق قد قضى على دولة الأغالبة، والأدارسة وسيطر على المغرب العربى، ومن أشهر حكام الفاطميين المعز لدين الله بن المنصور بن القائم ابن عبيد الله المهدى الذى أرسل قائده جوهر الصقلى لفتح مصر، وأسس مدينة القاهرة، وشرع فى عمارة الجامع الأزهر، وقد استولى جوهر الصقلى على دمشق سنة 358هـ– 968م وأصبحت الدولة الفاطمية تشمل أيضا الجزء الجنوبى من بلاد الشام، وفى عهد العزيز والحاكم بأمر الله تمت السيطرة على الحجاز وبلاد الشام، واستمر حكم الفاطميين حتى سنة 567هـ حينما قضى على دولتهم صلاح الدين الأيوبى فى عهد الخليفة العباسى المستضىء.

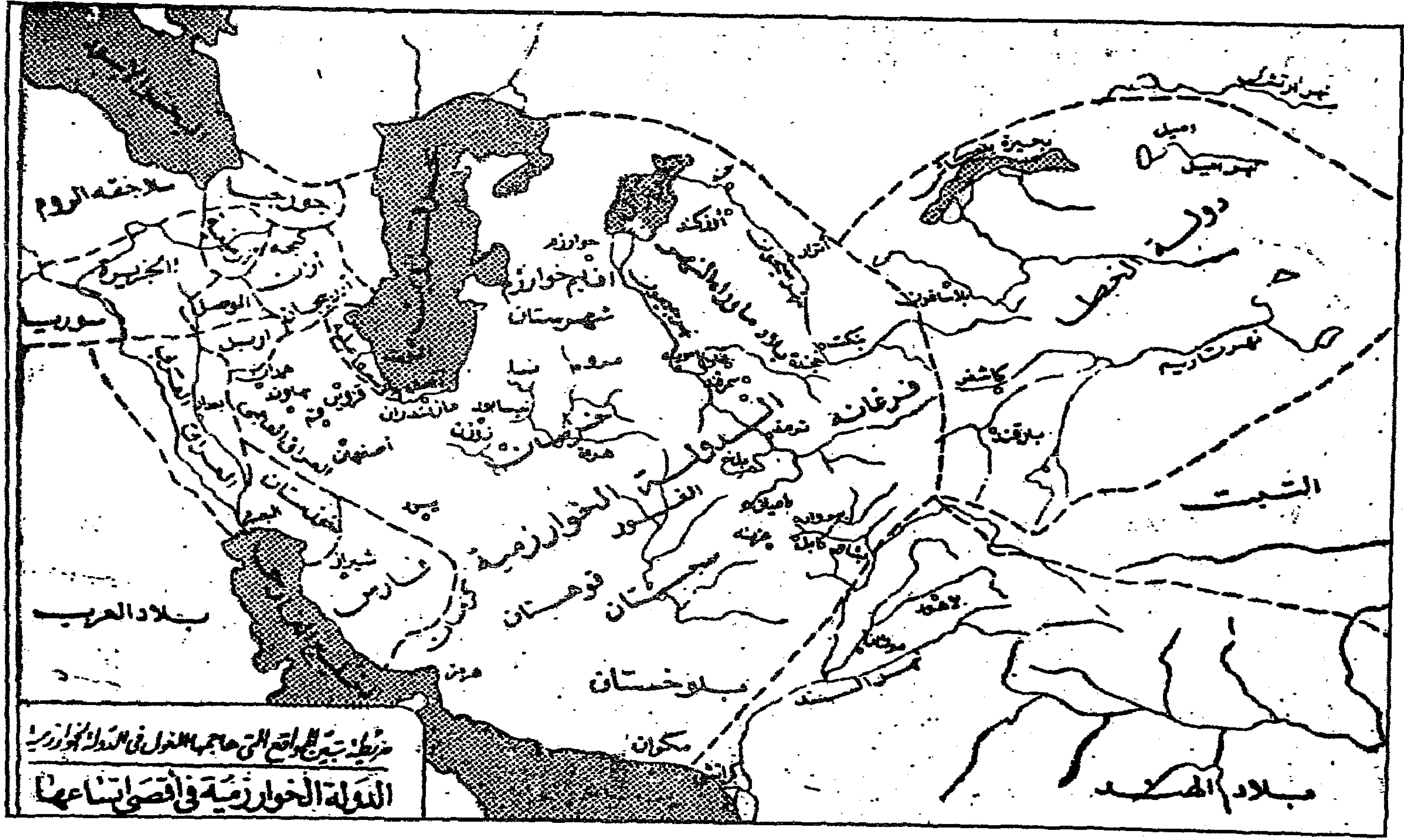
وفيما يتعلق بالدعوة الفاطمية فقد انقسم أصحابها فى فترة خلافة المستنصر بالله خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) إلى قسمين:

رأى القسم الأول أن المستنصر أوصى بالخلافة من بعده لابنه نزار، فى حين قال القسم الثانى أنه أوصى بها لابنه المستعلى، واتخذت الفرقة الأولى بلاد المشرق مركزا لها برعاية الحسن بن الصباح، وبقيت الثانية فى مصر والمغرب، وكان الحسن بن الصباح قد نشأ، وذاع صيته كشيعى متحمس خلال فترة ألف أرسلان، وتذكر المصادر أنه كتم أفكاره لتعصب السلاجقة السنيين، غير أنهم اكتشفوا أمره، وطردوه من خدمتهم فأعلن اعتناقه المذهب الإسماعيلى، وبعثه عبد الملك بن عطاش رئيس "الدعوة" الإسماعيلية فى العراق إلى أصفهان، ثم سافر[5] إلى مصر لدراسة "العقيدة" الفاطمية من خلال فلاسفتها بالقاهرة، ولما ارتفع شأنه فى مصر فقد انشق على المذهب الفاطمى المصرى وأسس حركته الباطنية الجديدة، التى أصبحت- بعد قوتها[6]- تهدد السلاجقة، غير أن الحسن استطاع أن يستولى على بعض الحصون سنة 483هـ المحيطة بقزوين والتى كان يتم الانطلاق منها فى الماضى للاستيلاء على بلاد خوزستان وقوهستان[7].

استطاع الحسن بن الصباح إعادة تنظيم المذهب الفاطمى، فسمى نفسه "داعى الدعاه" أو رئيس الدعوة وهو أكبر منصب فى الهيكل التنظيمى ويليه كبار الدعاة حيث يختص كل منهم بإقليم من أقاليم "الدعوة" الثلاثة وهى: العراق، وقوهستان، والشام، ويليهم طبقة الدعاة الذين تم تدريبهم وتلقينهم مبادئ "الدعوة" وأصولها والتفقه فى المذهب الإسماعيلى،

ويليهم طبقة الرفاق وهم الذين يطلعون على الأسرار، ولا يطلب إليهم نشرها، ثم طبقة اللاصقين، وهم الذين لم يتعمقوا فى معرفة أسرار الدعوة وأصولها، و لكنهم ممن يتعهدون تنفيذ كل ما يطلب منهم، أما الطبقة السادسة فهم طبقة الفدائيين وهم الشبان المتحمسون الذين استعان بهم الحسن لتنفيذ خططه السرية فى القضاء على خصومه ولهم وسائلهم فى الاحتيال، والتخفى، واستعمال الأسلحة المتعددة، ومعرفة اللغات، وكان هؤلاء يقتلون خصوم الحسن أيام الجمع والآحاد(8).

وبموت الحسن بن الصباح سنة 518هـ- 1124م ضعف أنصاره وفشلوا فى الاستيلاء على البلاد الإسلامية، غير أنهم مروا أيضا بفترات قوة تمكنوا خلالها من محاربة الصليبيين عدة مرات، واستمالة أمير حلب السلجوقى لمذهبهم، والاستيلاء على عدة حصون وقلاع، وعندما تولى جلال الدين حسن زعامة الإسماعيلية فى الفترة 607- 618هـ، 1210- 1221م، فقد طلب منهم إظهار شعائر الإسلام وإعلامهم الرجوع إلى الحق بل أن جلال الدين حسن طلب من بعض فقهاء المسلمين أن يفقهوا جماعة الإسماعيلية بتعاليم الحنيفية وأحرق كتب الإسماعيلية، وقد سبقت الإشارة إلى أوجه الشبه بين المذهبين الإسماعيلى والفاطمى، وشهدت الفترة اللاحقة الفتك بالإسماعيلية من كل من منكوبرتى سنة 624هـ، ثم هولاكو سنة 654هـ- 1256م، ومن ذلك الحين تشتت الباقون ما بين شمالى سوريا، وفارس، وعمان، والهند(9) بصفة خاصة.


الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها
خريطة تبين المواقع التي هاجمها المغول في الدولة الخوارزمية
سلاجقة الروم
جورجيا
الجزيرة
سورية
الموصل
أربيل
أرزن
إقليم خوارزم
خوارزم
شهرستان
أصفهان
قزوين
همذان
مازندران
نيسابور
هراة
طوس
الدولة الخوارزمية
فرغانة
بلخ
ترمذ
سمرقند
بخارى
كاشغر
بلاساغون
الغور
قوهستان
سجستان
فارس
شيراز
كرمان
بلوخستان
مكران
غزنة
كابل
لاهور
ملتان
نهر السند
التبت
نهر تاريم
دولة الخطا
بحيرة بلخاش
بلاد العرب
بلاد الهند

ظهور دويلات جديدة:

1- السلاجقة:

ينتسب السلاجقة إلى سلجوق بن تقاق (دقاق) أو أديقاق،أحد رؤساء التركمان، وموطنه الأصلى سهول تركستان فيما وراء النهر، وأخذ نجمه يلمع حتى هابه الأتراك، وقربه السامانيون، أما طغرل بك فهو أحد أحفاده الذى برز هو الآخر بانقراض الدولة السامانية، وطمع فى الاستيلاء على أراضيها، وتمكن بالفعل من الاستيلاء على خراسان، وفى سنة 429هـ استولى على مرو، ونيسابور، وبلخ، وجرجان، وطبرستان، وخوارزم، وهمذان، والرى، وأصفهان، وازداد السلاجقة تألقا فى العالم الإسلامى بدخولهم بغداد حيث خطب طغرل بك الجمعة، وقبض على الملك الرحيم البويهى، وانقضت دولة بنى بويه كما سبقت الإشارة تفصيلا.

وبموت طغرل بك، فقد خلفه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن طغرل بك، واستطاع ألب أرسلان توسيع حدود الدولة الإسلامية على حساب الدولة الرومانية الشرقية، من أقصى الشرق إلى جزيرة العرب وإلى بحر مرمرة بعد أن هزم الإمبراطور البيزنطى رمانوس وأسره فى موقعة ملازدكرد سنة 463هـ- 1071م وذلك بالرغم من التفوق العددى للجيش البيزنطى على جيش السلاجقة الإسلامى، وقد تجلت الروح الإسلامية الحقة فى معاملة ألب أرسلان لأسيره الإمبراطور البيزنطى، حيث أرسله إلى بلاده فى حراسة الجنود المسلمين ومعه راية مكتوب عليها، "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، ومن الدروس المستفادة فى هذه المعركة، أو بالأحرى نتائجها، أن تأسست دولة الروم السلجوقية فى آسيا الصغرى، وأصبحت دولة إسلامية يتزعمها سليمان بن قتلمش ابن عم ألب أرسلان وبقيت هذه الدولة أكثر من قرنين حتى قضى عليها المغول سنة 655هـ- 1257م.

وبعد وفاة ألب أرسلان خلف ابنه أبو الفتح ملك شاه واستمر حكمه عشرين عاما (465- 485هـ)، وكان وزيره نظام الملك يدير الدولة، وفي عهده تمت فتوحات إسلامية للعديد من الأقاليم، وبلغت الدولة أقصى حدود الصين في الشرق، وبلاد الشام والجزيرة العربية وبلاد الروم إلى بلاد جورجيا، ولما مات ملك شاه اضطربت الأمور بعض الشيء، وتعاظمت فتن الباطنية وأدى ذلك إلى انقسام دولة السلاجقة إلى دويلات عديدة عرفت بدول الأتابكة والشاهات.

ودول الأتابكة هي عدة دول أو بالأحرى دويلات زاحمت الدولة السلجلوقية. وكلمة " أتابك" هي لفظ تركي يطلق على الوصي، أو المربي الذي يتولى إدارة البلاد، والإشراف على ولي العهد، وسميت دول الأتابكة بهذا الإسم ليس لنسبتها إلى بيت واحد، أو إلى أتابك واحد، ولكنها كلمة متصلة بالبيت السلجوقي، فكلما برز شخص عظيم من مربي رجالات البيت السلجوقي سموه "أتابكا"، وتمكن هؤلاء الأتابكة أن يصلوا إلى الولايات والإمارات، ثم استقلوا بها، وأورثوها أبناءهم من بعدهم.

وإذا ما عدنا للسلاجقة، نجد أنه بعد موت ملك شاه فقد تجزأت الدولة السلجوقية إلى فروع أربعة تضمنت سلاجقة العراق وفارس، وسلاجقة سوريا في حلب ودمشق، وسلاجقة كرمان، وسلاجقة الروم في آسيا الصغرى،وظل السلجوقيون يحكمون معظم أملاك الخلافة الإسلامية في أسيا أكثر من قرنين، ثم امتد نفوذهم إلى جبال الأناضول من خلال عهود ثلاثة: الأول عقب موت ملك شاه حيث دامت الفتنة بين أبنائه فترة طويلة ضعف فيها الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في الخارج والإسماعيليين في الداخل، أما العهد الثاني فقد تمكن الصليبيون فيه من انتزاع بلاد الشام من أيدي السلاجقة، وكونوا فيها إمارات صليبية أربع في بيت المقدس، وأنطاكية، وطرابلس، والرها، ولم يبق تحت سلطة المسلمين

سوى دمشق ومصر، فى حين انفصلت آسيا الصغرى تماما، وتكونت فيها أسرة مستقلة، وكذلك حال الجزيرة، وفـــارس، وأذربيجـــان، وديـــاربكر، وانقسم السلاجقة فى العهد الثالث إلى ثلاثة أقسام وقعت فيها عدة معـــارك واستمر هذا العهد فـــى الفتـــرة مـــن 525-547هـــ، 1130- 1153م انهارت بعدها هذه الدولة.

2- الأتابكية:

أما الدولة الأتابكية، فقد سبقت الإشارة إلى التسمية التـــى أطلقهـــا السلاجقة على المربين من رجالات البيت السلجوقى، الذين أطلق علـــيهم أيضا" الشاهات" وقد حكم هؤلاء الأتابكية والشاهات مناطق مختلفة وأسسوا دويلات متعددة انفصلت عن الدولة السلجوقية، وكان الأمير السلجوقى إذا تولى الإمارة استصحب معه مربيه، وكان ذلك المربى هو صاحب النفوذ الفعلى فى الدولة، بل إنه عمل لحسابه الخاص وانفصل عن سياسة سلاجقة بغداد، ولما مات ملك شاه، استقل كل أمير بما تحت يده سواء كان أقليمـــا أو مدينة، وتسابقوا فى الإغارة على جيرانهم، الأمر الذى انتهزته القبائـــل التركية فأخذت تغير هى الأخرى على سهول آسيا العربية، وعموما فقـــد شملت هذه الدويلات الأتابكية دويلة الشاهات الأرتقية التى ضمت مدينـــة ماردين وحصن كيف، وكان وجود هذه الدولة فى حيز جغرافـــى اتـــسم بالحساسية وهو ما كان عامل ضعف فى وحدة المسلمين حيث وقوع الكثير من المنازعات، وانتهت دولة ماردين سنة 811 هـــ، بعد ظهور الدولـــة العثمانية، وهناك دويلة أتابكية دمشق فى الفترة مـــن 497- 549هـــــ، 1103- 1154م.

ويذكر ابن الأثير أنه عندما توفى ملك شاه فقد أســـسها طغتكـــين مملوك تتش بن ألب أرسلان الذى امتد نفوذه إلى حلب،والجزيرة، وديـــار بكر، وأذربيجان، وهمذان، واستمرت هذه الدويلة إلى أن قضى عليها نور

الدين محمود بن زنكى سنة 549هـ، ثم انتقلت إلى الأيوبيين فوليها الملك الأفضل في حياة صلاح الدين ثم الملك العادل.

أما أعظم دول الأتابكية فكانت دولة أتابكية الموصل التي امتد سلطانها في المنطقة الواقعة من بين النهرين إلى بلاد الشام،وأسسها عماد الدين زنكى بن قسنقر، وكان أبوه أحد مماليك ملك شاه، وقد سيطر عماد الدين زنكى على واسط البصرة بالإضافة إلى مملكته في الموصل، والجزيرة، ونصيبين، ولما اشتد خطر الصليبيين في سوريا، ولم يبق بأيدى المسلمين فيها سوى حمص، وحماه، ودمشق، فقد تطلع المسلمون إلى عماد الدين لإنقاذهم من براثن الصليبيين، فتكمن من استرداد حلب في سنة 522هـ، وظلت الحروب بينه وبين الصليبيين إلى أن قتل سنة 541هـ- 1146م بعد أن استولى على الرها وأنقذها من الصليبيين، وهو ما يعتبره المؤرخون(10) فوزا كبيرا للملسمين لأن سقوطها كان بداية نهاية النفوذ الصليبي، وتجدر الإشارة أيضا إلى محاولات عماد الدين للاستيلاء على دمشق، ويذكر ابن الأثير(11) أنه تمكن فعلا من الاستيلاء عليها، وبموته خلفه ابنه سيف الدين غازى على القسم الشرقى من المملكة واتخذ الموصل مقرا له، في حين تولى نور الدين محمود القسم الغربي، واتخذ مدينة حلب مقرا له، واشتراك الأخوان في محاربة الصليبيين إلى أن تمكن صلاح الدين الأيوبى من الاستيلاء على الدولة الأتابكية، وضمها إلى دولته.

أما دولة أتابكية سنجار، فقد شمل حكمها الفترة من 566- 617هـ، 1120- 1770م وكان قد أسسها عماد الدين زنكى الثاني، وتوالى عليها ولداه من بعده حتى استولى عليها الأيوبيون.

وشملت دول الأتابكية أو بالأحرى دويلاتها التالية دولة أتابكية الجزيرة (576- 648هـ، 1180- 1250م) ودولة أتابكية الأربل (539- 630هـ، 1144- 1232م)، ودولة أتابكية أرمينية (493- 604هـ، 1100- 1207م) ، ودولة أتابكية أذربيجان (531- 622هـ) ودولة أتابكية فارس (543- 686هـ،1148- 1287م) ويلاحظ أن هذه الدويلات والتي أطلقنا عليها مجاز لفظ دول، أنها قد أخضعت للأيوبيين[12] أو المغول.

أما الخريطة السياسية للأحداث في هذه الفترة فقد شهدت قيام الدولة الخوارزمية بجوار أراضي الخلافة الإسلامية، ثم صراع أمراء البيت الأيوبي بالإضافة إلى بقايا الصليبيين ثم مصر- رغم أن موضوع الدراسة لا يرتبط بها- والتي انتهت دولة الأيوبيين فيها وصولا إلى الخوارزم.

3- الخوارزم (523- 628هـ):

تنسي هذه الدولة إلى القائد التركي توشتكين أحد رجال ملك شاه السلجوقي، وكان له ولد اسمه قطب الدين محمود، وعهد إليه بإقليم خوارزم ولقب بخوارزم شاه، ولما انهارت الدولة السلجوقية، فقد طمع خوارزم شاه في الاستقلال بولايته، وتوسيع رقعتها، ويذكر ابن الأثير عدة أحداث وقعت في الفترة من 533إلى 593هـ تدور حول العديد من الغزورات بين السلاجقة والخوارزميين كان النصر حليف هذه الفئة أو تلك، غير أن التقويم النهائي لهذه الفترة كان في جانب الخوارزميين حيث سيطروا على همذان، وأصفهان، والري، وبخاري، وحاربوا الإسماعيلية واستولوا على قلعتهم، وفتحوا بلاد ما وراء النهر وسيطروا أيضا على كرمان، ومكران، وسواحل المحيط الهندي، والبلاد الواقعة غربي نهر السند، وكان جلال منكوبرتي آخر من تولي أمور هذه الدولة

حتى حاربه التتار وقضوا على الدولة الخوارزمية سنة 628هـ وهو ما يقتضى وقفة للتفسير.

فقد حكم جلال الدين منكبرتى إقليم غزنة عن أبيه، فلما تعرضت الدولة الخوارزمية لهجوم المغول الشامل استطاع منكوبرتى تكونى جيش قوى هزم به المغول. وقد أسرد ابن الأثير[13] أحداث هذل الفترة وصولا إلى اغتيال منكوبرتى على يد أحد الأكراد، وزال بذلك خصم عنيد للمغول.

وعموما فإن هذه القوى الإسلامية الجديدة كان لها دورها فى تغيير ميزان القوى ونقل الثقل السياسى إلى المشرق حيث أعلن الجهاد العام فى مواجهة كل من المغول الوثنيين- فى هذه الفترة- والصليبيين وكان على العالم الإسلامى مواجهتهم والصمود أمامهم وهو ما يستلزم العودة لأحداث القرن السادس الهجرى- الثانى عشر الميلادى- والفترة السابقة على الغزو الصليبى للعالم الإسلامى فى محاولة لعرض الأوضاع والعلاقات السياسية والإسلامية فى آسيا بصفة خاصة.

مراجع الفصل الخامس من الباب الرابع

(1) ابن خلدون، المقدمة، دار الشعب، القاهرة، بدون تاريخ إصدار ص182- 184.

(2) دكتور محمد أسعد طلس، مرجع سابق ص 156- 157.

(3) أرجع فى تفصيل ذلك: الماردينى، عبد السلام بن عمر بن محمد المتوفى سنة 1259هـ، تاريخ ماردين (مخطوط)، دار الكتب المصرية، القاهرة.

(4) السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن السيوطى الشافعى، المتوفى سنة 911هـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، بدون تاريخ إصدار ص 362- 264.

(5) دكتور محمد أسعد طلس، تاريخ العرب، المجلد الثانى ص 176.

(6) المرجع نفسه، وتجدر الإشارة إلى ارتباط العالم الإسلامى فى آسيا بمصر ارتباطا وثيقا فى هذه الفترة، وكانت "العقيدة" الفاطمية قد استقرت من خلال الخلافة الفاطمية فى مصر التى سافر إليها الحسن بن الصباح عن طريق أذربيجان وميافارقين وعكا.

(7) راجع تفصيلا- ابن الأثير، الجزء العاشر ص 97- 99.

-القلقشندى، صبح الأعشى فى صياغة "الإنشا"،الجزء الثالث عشر ص236-238.

(8) وكان من دعاة طبقة الفدائيين عند اغتيال أحد خصوم الحسن، أن يكونوا ثلاثة حتى إذا ما فشل أحدهم فى الخطة أو قتل، فإن الآخرين يقومان بإتمام العمل، وهكذا تمكن للحسن قتل الكثير من خصومه، وكان منهم على قمة السلطة مثل الخليفتين المسترشد والراشد، والوزير نظام الملك وغيرهم.

(9) حيث يقيم منهم ما يقرب من المائتى ألف فى شبه القارة الهندية وباكستان ويلقب الشخص منهم بالمولى أو الخاجة، ولا يزال قسم منهم فى سوريا فى مدن سلمية والقدموس ومصياف، وهناك فئة أخرى فى سوريا تعرف باسم "النصيرية" أو "العلوية" وهم إسماعيليون فى الأصل، ويرجع أسمهم إلى محمد بن نصير الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى، ويبلغ عددهم نحو ثلاثمائة ألف ويقيمون فى محافظة اللاذقية راجع تفصيلا:

- فيليب حتى، تاريخ العرب (مطول)، مطبعة الكشاف، بيروت 1961.
- فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجى، دار الثقافة بيروت 1959م.

(10) دكتور محمد أسعد طلس ، تاريخ العرب، المجلد الثامن ص 168- 169.

(11) المرجع نفسه.

(12) ينسب الأيوبيون إلى أيوب شادى بن مروان الكردى، وقد هاجر شادى جد هذه الأسرة إلى بغداد التى كانت تحت سيطرة السلاجقة، واستطاع استقطاب الأكراد لجانبه تحت حكم السلاجقة، وشارك أيوب فى حسم الخلافات بين آل زنكى وبعضهم البعض فى بلاد الشام، فساعده عماد الدين فى هجومه على بغداد ضد الخليفة المسترشد سنة 529هـ/ 1132م فكأفاه عماد الدين بتعيينه حاكما على بعلبك سنة 543هـ/ 1139م،وبعد مقتل عماد ا لدين سنة 541هـ/ 1146م، أصبح أيوب أحد قواد معين الدين يسيطر على دمشق، وتعاون أيوب مع أخيه شيركوه لمساعدة نور الدين صاحب حلب للسيطرة على دمشق،وتوطيد حكمه فى بلاد الشام، ثم تعيين أيوب حاكما على دمشق وصلاح الدين رئيسا للشرطة، وهذا الأخير بدأ نجمه يبزغ على مسرح الأحداث، حيث تولى الوزارة فيما بعد وتلقب بالملك الناصر، ثم السلطان فى سنة 565هـ/ 1169م، والواقع أن صلاح الدين قد نجح على حد قول المؤرخين فى جمع كلمة المسلمين، وتوحيد الأمة الإسلامية، ودفع خطر الصليبيين، وكانت إنجازاته الأولى القضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية، وإعادة مصر إلى المذهب السنى وقد شجعه كل من نور الدين والخليفة العباسى المستنجد بالله على تحقيق ذلك، واستغل صلاح الدين فرصة وفاة نور الدين وتولى ابنه القاهر.فأسرع صلاح الدين بجيش إلى دمشق ودخلها سنة 570هـ/ 1175م وحاصر حلب ثم تم الصلح مع والى حلب فرفع عنها الحصار، غير أنه قام بضمها فيما بعد، وأصبحت دولته تحيط بالإمارات الصليبية، ومن ناحية أخرى فإن تنامى قوته قد مكنته من إسقاط الدولة الأتابكية.

- راجع : المقريزى، تقى الدين أبو العباس أحمد بن علـــى، كتـــاب الـــسلوك لمعرفة دولة الملوك.
- القرمانى، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى، أخبار الدول وآثـــار الأول، القاهرة.
- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء السابع ص 45- 48، 109- 112.
- ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء الخامس ص 158- 161.
- دكتور عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسى للدولة العربية، الأنجلو المـــصرية، القاهرة، 1975.
- دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص 196- 199..
- دكتور أحمد قاعور، دكتور شحادة الناطور، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى ص 196- 199.
- دكتور حسن حبشى، نور الدين، دار الفكر العربى، القاهرة 1959.

(13) راجع تفصيلا: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، الجزء 12 ص 434- 438.

الفصل السادس
الغــــزو الصليـــبى

- جذور الحقد الصليبى تجاه المسلمين . .
- الحملة الصليبية الأولى . .
- الحملة الصليبية الثانية . .
- الحملة الصليبية الثالثة . .
- من الحملة الرابعة إلى الحملة السابعة . .
- نتائج الحملات الصليبية . .

جذور الحقد الصليبى تجاه المسلمين:

سبقت الإشارة إلى الأوضاع السيئة التى تردى لها العالم الإسلامى – وخاصة فى آسيا – إبان الفترة الأخيرة من حكم الدويلات الإسلامية حيث السلاجقة وحكام الولايات الأتابكية فقد استفحلت الحروب الدامية داخل كل فريق ودويلات الأتابكة هى الأخرى متناثرة ومفككة، فضلا عن تصاعد الأخطار من جانب الحركات الباطنية وأهمها فئة الحشاشين الذين نشروا الاضطراب والفوضى فى الدولة السلجوقية.

أما الفاطميون فكانوا يشكلون الفئة الأخرى المتنازعة على حكم العالم العربى الإسلامى، وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يحكمون مصر، إلا أنهم تركوا دفة الحكم للوزراء المتنافسين على السلطة، فى حين كان الخلفاء الفاطميون فى حالة تنافس ونزاع مستمر مع الأتابكة بسبب بلاد الشام التى سيطر الفاطميون على الجزء الجنوبى منها عشية الغزو الصليبى حيث كانوا قد احتلوا بيت المقدس سنة 1098م. وقد شمل الضعف، فى حكم العالم الإسلامى، أيضا الغزنويين فى إيران وما وراء النهر الذين انشغلوا فى محاربة الأتراك ومحاولات توسيع رقعة دولتهم.

أما التهديد الصليبى تجاه العالم الإسلامى فإنه يرجع إلى فترة تاريخية سابقة على نهاية القرن الخامس الهجرى، حيث سيطر المسلمون على أجزاء من دولة الروم، فضلا عن حسرة الصليبيين تجاه ما فقدوه فى شبة جزيرة أيبريا حتى استعادوه من المسلمين وأنهوا بذلك صفحة إسلامية مضيئة فى حركة التاريخ الإسلامى والتى ترجع إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب حيث سلسلة الحروب والغزوات بين المسلمين والروم قد استمرت فى آسيا الصغرى خلال حكم الدولتين الأموية والعباسية إلى سيف الدولة، ثم تصاعد حملات الكراهية الصليبية تجاه المسلمين والتى اتخذت فيما بعد شكل هجوم حربى استعمارى على البلاد الإسلامية والعربية وخاصة فى الشرق الأدنى

من أجل احتلالها وامتلاكها، ويذكر بعض المؤرخين أن الإمبرطور كومنين Alexés Comnene قد استنجد بروبرت كونت الفلاندر (1071- 1093م) حينما مر به في سنة 1087م وهو عائد من الأراضي المقدسة، ثم كتب إليه رسالة، وإلى البابا أربان الثاني يستند به لتجهيـز حملـة ضـد المـسلمين، وشهدت الفترة اللاحقة أعنف حروب إبادة ضد المـسلمين فـي العـصور الوسطى استمرت حوالى مائتى عام (1096- 1291م) وقضت تماما علـى ملايين البشر، ودمرت رموز الحضارة الإسلامية[1].

خريطة
غزوات الصليبيين
وإماراتهم

مقياس الرسم

طريق الغزو

المصدر : دكتور أحمد قاعور ، دكتور شحادة الناطور ، مرجع سابق .

الحملة الصليبية الأولى:

تذكر المصادر أن البابا جريجورى كان يرأس مجمعا دينيا فى إحدى المدن الإيطالية عام 489هـ- 1095م ووجه نداءا إلى العالم المسيحى الغربى دعاه إلى نصرة إخوانهم فى الدين بالأماكن المقدسة فى فلسطين[2].ويفسر هذا طابع الحملة الصليبية الأولى فى سنة 488- 1095م لإثارة عواطف مسيحيى أوروبا على ما يلقاه مسيحيو الشرق فى بيت المقدس من اضطهاد،وذلك حين دعا البابا إلى مؤتمر "كليرمونت" ، واتخذ المؤتمرون من مسيحيى أوروبا الكاثوليك قرارا بإنفاذ الحملة الصليبية الأولى للأراضى المقدسة وأخذ المسيحيون" المتدينون" ينخرطون فى هذه الحملة، ولم يكتف البابا بذلك، بل راح يطوف فى أرجاء فرنسا، وإيطاليا داعيا إلى الجهاد فى سبيل إنقاذ مهد المسيح من "المشركين[3]".

والغريب أن هذه الإدعاءات المضللة قد وجدت رد فعل حماسى فخرج بطرس الناسك ومعه خمسة عشر ألف صليبى متوجها إلى القسطنطينية سنة 1096م، ثم تتابعت الحملات الأخرى إلى أنطاكية وبيت المقدس حتى سقطت القدس فى أيديهم سنة 493هـ- 1099م وحدثت مجزرة رهيبة ذبح فيها الرجال، والنساء، والأطفال من سكان المدينة ووصل عدد القتلى إلى ستين ألف، واحتل الصليبيون المدن الساحلية، فاحتلوا يافا سنة 1100م، ثم أرسوف وقيسارية وعكا سنة 1104م، وقاموا ببناء قلعة الشوبك سنة 1115م، وتمكنت هذه الحملة من تحقيق هدفها باحتلال جزء كبير من بلاد الشام، وكان من نتائج هذه الحملة أن ظهرت بوضوح حالة الضعف والتفكك والانقسام فى الشرق الإسلامى، وتكونت المملكة اللاتينية الصليبية فى المشرق العربى، وإمارات ثلاث أخرى هى الرها، وأنطاكية،وطرابلس، واستعادت الدولة البيزنطية معظم آسيا الصغرى.

غير أن أحد النتائج الإيجابية لهذه الحملة- على صعيد العلاقات الإسلامية- هو الدور الذى قام به عماد الدين زنكى والى الموصل الذى أخذ فى إعادة ترتيب مدينة حلب بعد أن استقبله أهلها بالود، وبالفعل أثمرت جهوده فى عدم تمكن الصليبيين من احتلالها سنة 522هـ- 1127م ثم اتجه إلى حماه،ومنها أخذ يغير على أنطاكية سنة 530هـ- 1135م ثم أخذ يعد العدة لكسر شوكة الصليبيين من خلال تعبئة جهود جيرانه المسلمين، والاهتمام بتدريب الجنود وتسليحهم، وعلى صعيد الروح المعنوية والقتالية، فقد تحول العرب من حالة الإحباط واليأس إلى ارتفاع معنوياتهم باستعادة عماد الدين زنكى لإمارة الرها سنة 539هـ- 1144م حيث أقنع مسيحيى المشرق أنه جاء لتحريرهم من ظلم الصليبيين وطغيانهم وقد أحدث سقوط الرها ردود فعل حسنة لدى نفوس المسلمين، وكان بمثابة ضربة كبيرة للإمارات الصليبية، غير أن عماد الدين زنكى قد قتل وخلفه ابنه نور الدين الذى اتخذ حلب عاصمة له، ووقف هو الآخر أمام الصليبيين وقفة قوية خيبت آمالهم، فاستنجدوا بأوروبا والبابا فى سنة 542هـ لتبدأ الحملة الصليبية الثانية.

وفى تقويم الحملة الصليبية الأولى، يمكن القول أن الخيانة من جانب وزراء الدولة الفاطمية كان لها دور كبير فى هزيمة المسلمين، ومن ناحية أخرى فإن هذه الخيانة كانت نتيجة لانقسام العالم الإسلامى وقتئذ، وتفسير ذلك فيما يتعلق بهذا الصدد أن الأفضل شاهنشاه بن بدر المجالى قد بعث رسولا إلى الصليبيين لإبرام اتفاقية بينه وبينهم ضد السلاجقة والمعروف أن السلاجقة سنيون فى حين كان الفاطميون من الشيعة، وهكذا أثمرت الأحقاد الناتجة من الاختلاف المذهبى نتائجها الضارة على العلاقات السياسية الإسلامية، وقضت شروط هذه الاتفاقية أمرين: أن يستقل الصليبيون بأنطاكية على أن يسمح للفاطميين بإقامة شعائرهم الدينية فى القدس، وقد رحب

الصليبيون بهذه الاتفاقية، ولما بلغ ذلك الملك السلجوقى فى حلب، فقد قدم معاونة كبيرة لمواجهة جيش الصليبيين، غير أن هؤلاء تمكنوا من التقدم لحلب والمعرة والبارة.

ومن الغريب أن الدولة الفاطمية قد فرحت بهذا الانتصار ويرى أسعد طلس أن سبب هذا السرور هو شماته الفاطميين بالخلافة العباسية المؤيدة للسلاجقة، من ناحية، ومن ناحية أخرى اعتقادهم خطأ بأن الحملة الصليبية هدفها القدس فقط.

كذلك كانت هذه الحملة بمثابة عار فى تاريخ الصليبيين لفظاعة ما ارتكبوه فيها من جرائم، فضلا عن أنه– ونحن بصدد تقويم هذه الحملة– قد نشبت الخلافات الداخلية بين الصليبيين أنفسهم استمرت لمدة قرنين حتى تهيأ للمسلمين استردادها، وقد نجح الصليبيون فى تقسيم ساحل الشام – فى هذه الفترة– إلى مستعمرات أوروبية.

الحملة الصليبية الثانية:

بدأ زحف الحملة الثانية بقيادة لويس السابع عشر ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا لإنقاذ الإمارات الصليبية فى بلاد الشام، وهب بارونات فرنسا وألمانيا يتبعون ملوكهم وبدأ الزحف فى سنة 543هـ– 1147م حيث وصلوا ساحل صور وعكا، والتقوا فى بيت المقدس، وعزموا على السير إلى دمشق، وقد واجههم الجيش الإسلامى وهزمهم، وكان الجيش الإسلامى مكونا من فريقين، فريق الموصل، وفريق حلب وسدد الفريقان ضربات قاصمة على الجيش الصليبى، فتفرق جنوده وقادته ورحلوا عن دمشق، واستطاع نور الدين أن يسيطر على الشام ومصر ويوحد إماراتها، وكان الصليبيون يخشونه وخاصة بعد أن هاجم أنطاكية سنة 1149م وهزم أميرها[(4)].
واستطاع تحرير عدة مدن، أما فيما يتعلق بدمشق فتجدر الإشارة أن نور

الدين رأى أن ضمها إلى حكمه سيساعد فى تحرير الشام وفلسطين، وهو ما حدث بالفعل حيث صارت دمشق إحدى قواعد التحرير.

وفى سنة 1169م أرسل نور الدين قائده شيركوه وابن أخيه صـــلاح الدين لمساعدة الخليفة العباسى المعتضد، وتمكن شيركوه من إخماد الفتنـــة، وتسلم الوزارة، وبوفاته تسلم صلاح الدين الوزارة وأنهى الخلافة الفاطميـــة وأخذ نجمه فى الصعود بعد أن ضم بلاد الشام ومصر معا فى دولة واحـــدة امتدت من النيل إلى الفرات وأحاط بالصليبيين لتبدأ مرحلة جديدة فى مقاومة الغزو الصليبى، حيث أتم صلاح الدين فتح طبرية وجنين والغور وحاصـــر بيروت وعكا وفتحها، ثم سار نحو غرب الفرات حتى وصل آمد ثم رجـــع ففتح حلب، وبلغه أن الفرنجة المقيمين فى القدس قصدوا دمـــشق، كمـــا أن الفرنجة المقيمين بالكرك والشوبك يريدون المسير إلى المدينة المنورة لنبش قبر الرسول ﷺ، فرجع سريعا وطردهم من دمشق ثم حاصر الكـــرك ســـنة 580هـــ، وفتح نابلس، ولما هاجم الصليبيون قوافل الحجاج وسلبوا أمتعـــتهم وأسروهم، فقد صمم صلاح الدين على مواجهتهم بالرغم من حشد القـــوات الصليبية فى صفوريا بقيادة "غاى" ملك القدس فاتجه صلاح الدين بجيشه نحو طبرية وكانت المواجهة الحاسمة فى سهل حطين ســـنة 582هـــ- 1187م واستطاع صلاح الدين تحطيم الصليبيين فى هذه المعركة وأسر ملك الفرنجة الكبير، وصاحب الكرك، وصاحب جبيل، ثم سار إلى عكا ففتحها، ثم فـــتح الناصرة ، وقيسارية، وحيفا، وصفورية، ودبورية وأكثر مـــدن فلـــسطين[5]. وحاصر عسقلان، والرملة، وغزة والجليل ، واللد فاستسلمت جميعا.

تقدم صلاح الدين من هذه الانتصارات نحو بيـــت المقـــدس ليتـــوج إنجازاته بفتحها، وحاول أن يدخلها سلما لمكانتها المقدسة فى نفوس جميـــع الأديان السماوية، غير أن محاولاته باءت بالفشل، فحاصرها المسلمون حتى طلب الصليبيون الصلح وخرجوا سالمين، وكان فتح القـــدس بمثابـــة نقطـــة

مضيئة فى التاريخ الإسلامى فى هذه الفترة، وهذا هو العامل الرئيسى فى تقويم هذه المعركة حيث يعتبر حدثا هاما فى أحداث الحروب الصليبية هز العالم الإسلامى الوسيط وذهبت الرسائل إلى بغداد ومصر واليمن وغيرها تصف تحرير البيت الأسير، ويورد ابن خلكان(6) فى إحدى هذه الرسائل كيف حث صلاح الدين المسلمين على متابعة الجهاد حتى تتطهر جميع البقاع المقدسة من الاحتلال والرجس الأفرنجى، وتناول الخطباء فى المساجد رد فعل هذا الحدث العظيم(7).

الحملة الصليبية الثالثة:

انطلقت الصيحات من أوروبا تطالب بالقضاء على صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس، ولبى ملوك أوروبا هذا النداء بهدف نجدة الصليبيين فى الشام ومعهم مائة ألف صليبى بقيادة كل من ملك ألمانيا – الذى غرق فى الطريق– وقلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغست ملك فرنسا إلى جانب عدد كبير من الأمراء والدوقات، وقد وصلت الحملة إلى عكا، غير أن جيش المسلمين تمكن من مواجهتها، ومع ذلك فإن البحرية الصليبية قد رجحت كفة الصليبيين، فاستسلمت المدينة على أن لا يتعرض أحد للمدافعين بسوء، غير أن الصليبيين فتكوا بالمسلمين، ثم سار الصليبيون إلى يافا فأخلاها المسلمون، ورأى صلاح الدين تخريب عسقلان والرملة واللد حتى لا تقع فى أيدى الصليبيين، وسار بقواته إلى القدس، وبالتالى فلم يتمكن الصليبيون من التوسع، وتخوف ريتشارد قلب الأسد على ملكه، فحدثت مشاورات بين الطرفين انتهت بعقد صلح الرملة فى 25 أكتوبر 1192م، وهو ما تطلق عليه بعض المصادر أنه كان هدنة بين الجانبين فى البر والبحر لثلاث سنوات وثلاثة أشهر، على أن تستقر بيد الفرنج موانئ يافا وعكا وقيسارية وأرسوف وحيفا، وتظل عسقلان خرابا واشترط صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية

فى الهدنة، فى حين اشترط الفرنج دخول أنطاكية وطرابلس فى الهدنة، وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهما فتم ذلك.

وفى تقويم الحملة الصليبية الثالثة بظروفها الحرجة، فإن فى رسائل صلاح الدين وأصحابه الدليل المدعم بالوثائق على أوضاع المسلمين الحرجة فى تلك الفترة، حيث تتابعت إمدادات أوروبا وتدفقها على الشام بشكل ليس له مثيل فى حين كانت الإمدادت الإسلامية متواضعة فضلا عن الحقد الذى حمله الفرنج معهم ضد الإسلام- كل هذه العوامل وردود فعلها يمكن تلمسها فى رسائل صلاح الدين عن ثقل وطأة هذه الحرب، وأنه لا مساعد ولا معين إلا الله سبحانه وتعالى. ويصف صلاح الدين هذه المعاناة قائلا: "ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه... فإذا قتل المسلمون واحدا فى البحر بعث البحر عوضه ألفا... فالزرع أكثر من الجداد... وهذا العدو المقاتل قد زرع عليه من الخنادق أدراعا متينة...."[8].

وقد حاول صلاح الدين فى هذه الفترة الحرجة الاستنجاد بسيف الاسلام ملك اليمن، وشرح له الوضع الخطير حول عكا، وما يعانيه من قلة العدد وتفوق الصليبيين العددى، غير أن ملك اليمن لم يرد عليه[9]. كما حاول الصليبيون فى الفترة ذاتها غزو الحجاز والوصول إلى المدينة المنورة، فلما وصل الخبر إلى الملك العادل نائب صلاح الدين فى مصر، أرسل رجاله وأسطوله وتمكن من تدمير الأسطول الصليبى، ويستدل على ذلك من رسائل صلاح الدين إلى الملك العادل[10].

وقد بذل المسلمون حول عكا أقصى جهود ممكنة، وظهر أبطال قاموا بخوارق الأعمال مثل الفتى الدمشقى الذى اخترع محلولا كيماويا كان سببا فى تدمير الأبراج الثلاثة التى أقامها الصليبيون لإحكام الحصار حول عكا، ومثل عيسى العوام الذى يحمل الرسائل والنقود إلى أهل عكا سابحا فى

الماء حتى غرق واكتشفت جثته بعد ذلك، وعندما سقطت عكا، بعث صلاح الدين بالرسائل إلى عدد من الملوك والأمراء يصف سقوط عكا بأنه "الفاجعة[11]". وعند حلول كارثة سقوط عكا عقد صلاح الدين مؤتمرا مع قواده ومستشاريه قائلا:" اعلموا أنكم جند الإسلام ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم فى ذممكم معلقة ،والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم.... والمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم....."، وكانت إجابة هؤلاء العادة التى وردت على لسان ابن الشطوب هو إفصاحه عن الحب والولاء والثقة المطلقة الطاعة التى يكنها أفراد الجيش لقائدهم قائلا:" .... أنت الذى أعطيتنا عظمتنا، وليس لنا إلا رقابنا، ونحن بين يديك، والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت[12]......".

وشكلت أساليب العلاقات السياسية الإسلامية ومهارة إدارتها أحد أهم العوامل هى تقويم جهود صلاح الدين حيث دارت بينه وبين قيادات الصليبيين، أظهر فيها كياسة، وأدبا، وحنكة، ودراية حيث كانت المحلصة النهائية هى فرض الإرادة الإسلامية على الصليبيين بتحطيم أحلامهم فى استراجاع القدس واحتلال كامل الساحل السورى، وحين حاول ريتشارد ملك الإنجليز أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعد المواجهة الحربية حول عكا، غير أن صلاح الدين لقنه درسا فيما عرف فيما بعد بالدبلوماسية، أو فن الحوار والتفاوض، وما يجب أن تكون عليه علاقات الملوك، فقد رفض صلاح الدين الاجتماع به إلا بموجب قاعدة ثابتة يتفق عليها الطرفان قائلا[13]:" الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، ومايحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد الملك ذلك فلابد من تقرير قاعدة مثل هذه الحالة، ولابد من ترجمان نثق فيه فى الوسط.. فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بد ذلك إن شاء الله تعالى".

ويضاف إلى العوامل السابقة، استغلال صلاح الدين رغبة ملك الإنجليز لعقد الصلح وتلهفه على ذلك، فماطله حتى جعله يقبل التنازل عن جزء كبير من مطالبه، وفى الحرب امتاز صلاح الدين بسرعة حركته وفرديتها، مثال ذلك هجومة المباغت والمفاجئ ليافا أثناء المفاوضات مع الانجليز وهو ما لم يتوقعه ريتشارد ملك الإنجليز، ولعل أهم العوامل على الإطلاق هى التقوى والتفانى فى الدفاع عن الإسلام، ومقدساته، وأرضه، وأهله، ومع ذلك فإن البعض[14] يرون أنه تسامح أكثر من اللازم مع الصليبيين رغم جرائمهم الوحشية تجاه المسلمين،و حرصة الشديد على كسب رضى خليفة المسلمين فى بغداد بالرغم من أنه لم يقدم عونا يذكر فى الصراع ضد الصليبيين سوى العواطف الكلامية.

وجاءت وفاة صلاح الدين بمثابة صفحة طويت لقائد فى التاريخ الإسلامى ضرب مثالا رائعا للغرب المسيحى فى المثل والأخلاق الإسلامية.

من الحملة الرابعة إلى الحملة السابعة (1202- 1249م):

اضطربت الأحوال بموت صلاح الدين، ذلك أن الصراع على السلطة قد احتدم بين أولاده وابن أخيه العادل، الأمر الذى استغله الصليبيون وأخذوا يجمعون قواتهم لغزو المسلمين، وقد تمكن الملك العادل من توحيد الشام ومصر، وعندما تجمعت جيوش الصليبيين ثم خرجوا إلى بيت المقدس، فقد هرع إليهم الملك العادل حيث اضطر الفرنجة لمهادنته،و تم الصلح على أن يسلم إليهم مدن يافا والناصرة واللد والرملة.

ومن ناحية أخرى كان البابا أنوسنت الثالث 1198- 1216م قد دعا إلى الحملة الرابعة التى كان من أهم زعمائها بلدوين دوق فلندره، وقد اتفق مع رئيس جمهورية البندقية "وندولو" على نقلهم إلى القسطنطينية، فأعادوا الإمبراطور المخلوع سنة 1203م، ولما لم يستطع أن يدفع لهم، قاموا باحتلال القسطنطينية سنة 1204م وأقاموا المملكة اللاتينية التى استمرت إلى سنة 1261م.

وفيما يتعلق بالحملة الخامسة، فقد اتجهت إلى مصر وانهزم الصليبيون[15] فيها- وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدارسة- وفى الشام قدم على سواحل عكا فى سنة 602هـ- 1204م جمع كبير من الفرنج الألمان والنمساويين والمجر فدخلوها، وكان الأيوبيون مشغولين بمشكلاتهم الداخلية وقد غنم الفرنج من المسلمين مغانم كثيرة، ونظرا لوجود كثير من الشباب المتحمس فى عنصريته ضد المسلمين، فقد سميت هذه الحملة بحملة " الشباب" ، ولما مات الملك العادل فى سنة 615هـ ازداد البلاء على المسلمين وطمع فيهم الصليبيون، واستولوا على أقاليم عديدة فى الشام، ولما استولى الصليبيون على دمياط فى مصر، واتجهوا نحو المنصورة،فقد عظم الأمر على الأيوبيين، وطلبوا الصلح من الفرنجة على أن يتنازلوا لهم عن القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجميع ما فتح صلاح الدين من ساحل الشام[16]، باستثناء الكرك والشوبك، فلم يرض الفرنج وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار لقاء تخريب سور القدس مصرين على تسليم الكرك والشوبك، وواجه جيش المسلمين الأيوبى جيش الصليبيين وتم النصر للمسلمين وأسروا ثلاثين ألفا من الصيبين، ويقول صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين: "وبلغنى أن النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور فى كنيستهم حزنا على ما جرى على الفرنج"، ويعلق محمد أسعد طلس على ذلك قائلا: "إن سبب تسليم القدس للصيلبيين لم يكن آتيا من ضعف القوى الإسلامية، بل نتيجة للخلاف بين الملكين الكامل والمعظم، فقد كان الكامل يخشى أنه فى حالة توجهه لمقاتله الإمبراطور فردريك أن يفاجئة الملك المعظم، ففضل تسليم القدس إلى فردريك.

وتتداخل أحداث الحملة الخامسة مع أحداث الحملة السادسة والتى قادها الإمبراطور فردريك (624هـ- 1228م)، ولم يدخل أى معركة، ولكنه أرسل يطلب التفاوض مع الملك الكامل الأيوبى لتسلم القدس وبيت لحم

والناصرة، وهى الأماكن المقدسة عند المسيحيين،وتمت اتفاقيــة يافــا ســنة 1239م ومدتها عشر سنوات، واشترط الملك الكامل عــدم تعرضــهم لقبــة الصخرة أو المسجد الأقصى، وعاد فردريك إلى أوروبا، وأصبحت مملكــة بيت المقدس تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة[17]. أما رد فعل الحملــة السادسة على الرأى العام الإسلامى فكانت سيئة للغاية حيث شعر المــسلمون بالإحباط لتصرف الملك الكامل، وساءت أمور الأيوبيين، بل أن بعضهم قــد استعانوا بالفرنجة، وظلت البلاد لا تتسم بالاستقرار السياسى والداخلى حتــى الزحف المغولى، وظلت القدس بأيدى الصليبيين إلــى أن اســتردها الملــك الصالح أيوب فى سنة 637 – 647هــ بمساعدة الخوارزميين.

أما الحملة السابعة والأخيرة فقد قادها لويس التاسع ملك فرنسا بهدف استرجاع بيت المقدس والانتقام من المسلمين الذين أسروه فــى المنــصورة، غير أنه فشل، وأسر من الجيش الفرنسى ما يقرب من ثلاثين ألفا[18]. وبذلك انتهت فترة الحروب الصليبية التى دامت قرابة قــرنين (491– 690هــــ)، وأكدت معركة حطين وما تلاها أن وجود الصليبيين فى الأراضى المقدســة أصبح أمر وقت، وقام قلاوون أحد سلاطين المماليك باحتلال طرابلس ســنة 1289م، وأنهى ابنه خليل آخر معاقلهم فى عكا سنة 1291م، وبــذلك فقــد تطهرت بلاد الشام من اعتداءات الصليبيين وظلمهم وعــسفهم واعتــداءاتهم المتكررة على المسلمين، ومن الثابت أنه مهما قيل فى وصف حكم سلاطين المماليك فى مصر والشام، فإن أوائلهم كالظاهر بيبرس والملــك المنــصور قلاوون كانا محاربين من نوع نادر، وأعادا وحدة العالم الإسلامى فى الشام ومصر، كما حاربا الصليبيين وانتزعا معاقلهم واحد بعد الآخــر حتــى تــم إجلاؤهم عن سوريا سنة 1291م – كما سبقت الإشارة– إلى جانب هزيمتهم للروم والبيزنطيين أكثر من مرة. ويعنى ذلك أن إنهاء الحكم الصليبى كــان من خلال الملك الظاهر بيبرس والذى كان ضابطا وقائدا للفرسان فى أواخر

الأيوبيين، وحين بلغ العجز أشده بحكام سوريا الفرنج، فقد ألحوا فى طلب الهدنات مع الظاهر بيبرس، بل وقد أصبح هو نفسه حكما بينهم كما حدث عندما تآمر كل من ملك قبرص وحاكم عكا على صاحبة بيروت واحتالا عليها لتترك مملكتها وتذهب إلى قبرص، فبقيت بيروت بدون حاكم، فأرسل الظاهر بيبرس إلى صاحب عكا يقول:" هذه الملكة بينى وبينها هدنة، وما سافر زوجها... وعاد معها إذا سافرت تستودعنى بلادها، ومن هذه المرة ما سيرت لى رسولا، ولابد من حضورها، وأن تتوجه رسلى وتشاهدها، وإلا فأنا أحق ببلادها [19].

سبقت الإشارة أن موضوع هذه الدراسة هو ما يتعلق بالعلاقات السياسية الإسلامية وانتشار الإسلام فى آسيا، وهو المتغير المستقل فى منهج الدراسة وإذا كان هناك متغيرات تابعة، ومنها دور السلاطين المماليك وخاصة فى مصر، فإن هذا المتغير التابع يعتبر رافدا من المتغير المستقل، وقد عرضناه بما يخدم تحقيق أهداف الدراسة، وفى هذا الصدد فقد قام المماليك فى أوائل عهدهم بدور كبير فى تمسك المسلمين فى الشام، عسكريا وسياسيا أيضا حيث تجلت المهارة السياسية للظاهر بيبرس فى تنفيذ خططه فى تطهير بلاد الشام من الصليبيين ليس بالاستعداد الحربى فحسب، وإنما بالجهود السياسية أو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بالدبلوماسية[20]. أى من التفاوض، وفى هذا المقام خالف الظاهر بيبرس بعض الصليبيين لفترة، ليأمن جانبهم، ويتفرغ للآخرين، كما فعل عندما عقد عدة هدنات مع بيروت، وفى نفس الوقت هاجم بقية معاقلهم فى صفد والشقيف واللاذقية ويافا وأنطاكية وفتحها كلها، وتم هذا من خلال حنكة حربية وسياسية، فبعد استيلائه على أنطاكية أرسل إلى صاحبها بوهيموند السادس، وكان يحكم أنطاكية وطرابلس معا، وكان يلقب بالبرنس يخبره بفتحه أنطاكية ويخاطبه بالقومص، ذلك أن سقوط أنطاكية بيد السلطان جعلت رتبة بوهيموند تهبط

من الإمارة إلى الكونتية، كما وأن فتحها دليل على مهارة الملك، الظاهر، فقد هاجم طرابلس أولا، وعندما دافع بوهيموند عنها، انسحب السلطان من ضواحيها، فظن بوهيموند أن دفاعه كان السبب فى رحيل السلطان وإحباط الهجوم على طرابلس، ولذلك ركن إلى الراحة، غير أن ذلك لم يكن سوى جزءا من تخطيط الهجوم، فقد أوهم الملك الظاهر خصمه أن الهجوم الرئيسى هو على طرابلس، فى حين أن هدف الهجوم كان أنطاكية التى حاصرها ولم يلبث أن استولى عليها وفى رسالته السابقة يقول له: "فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيل، وديارك والنهابة فيها تصول والكآبة فيها تجول... لكنت قلت: يا ليتنى كنت ترابا... ولتعلم أنا قد أخذنا بحمد الله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام" ويعلق المقريزى على أسلوب الملك الظاهر الذى يتسم بالروح المرحة التهكمية قائلا:" ... دأب السلطان على نفس الأسلوب مع بوهيموند من إرسال الرسائل له بعد أن يقتطع من أملاكه بلدا من البلدان، كما فعل لما احتل حصن عكار من أملاك طرابلس، فقد أرسل له رسالة ثانية تفيض سخرية، وهى بمثابة إنذار بالتسليم أو الرحيل[21].

توفى الملك الظاهر بيبرس وهو فى قمة مجده بعد أن حطم القسم الأكبر من الاحتلال الصليبى لبلاد الشام، وترك للملك المنصور[22] أعباء إنجاز ما بدأه. وقد تمكن قلاوون من تحرير ما بقى من معاقل الصليبيين فى بلاد ا لشام باستثناء صور التى جرى تحريرها فى فترة حكم ابنه الملك الأشرف، وسار قلاوون على سياسة الملك الظاهر فعقد الهدنات مع مملكة عكا، ليتفرغ لفتح طرابلس، وبعد تحريره طرابلس رجع إلى عكا وقد سبقت الإشارة إلى خاتمة العدوان الصلبى على يد الملك الإشراف خليل الذى طهر صور سنة 1291م، وانتهت الحروب الصليبية فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ولكنها خلفت فى العالم الإسلامى- رغم الانتصارات الإسلامية

وفرض القادة المسلمين إرادتهم على المغتصبين الصليبيين- خلفت آثاراً رهيبة ونتائج بعيدة المدى وخطيرة فى الوقت ذاته يمكن إجمالها- فيما يتعلق بمجال هذه الدراسة فيما يأتى:

نتائج الحملات الصليبية:

أولا: ساهمت الحروب الصليبية فى تغيير عقلية الصليبيين، وجعلتهم يطلعون على حضارة أرقى من حضارتهم، وصححت كثيرا من مفاهيمهم عن الإسلام والمسلمين، غير أنها أوضحت مدى الحقد والأطماع تجاه العالم الإسلامى، ووضعت نواة الاستشراق حيث اتجه الرهبان لدراسة الفكر الإسلامى، واللغة العربية، ويركزون على الوسائل السلمية للتسرب إلى العالم الإسلامى بعد إخفاق الوسائل العسكرية، كما لفتت هذه الحروب أنظار الأوروبيين للاستعمار فيما بعد باعتبارها- أى الحروب الصليبية- أول تجربة من الاستعمار الأوروبى لتحقيق مكاسب اقتصادية.

ثانيا: إذا كانت هذه الحروب قد أدت إلى نتائج إيجابية بالنسبة إلى أوروبا، فقد تركت آثارا سيئة على المشرق الإسلامى حيث اقترن طرد الصليبيين بتدمير عدد من المدن مثل عكا، وأنطاكية، وطرابلس، بالإضافة إلى امتصاص جهود وطاقة العالم الإسلامى من أجل الدفاع عن كيانه، لكن ذلك كان نتيجة إيقاد روح التعصب المقيت بين المسلمين أنفسهم وفى بلادهم تجاه أهل الذمة، وقد لاقى منها المسلمون شرا مستطيرا.

ثالثا: صحيح أن البلاد الإسلامية قد كرست نشاطها ومواردها للقضاء على الغزاة، وبذلك تدهورت الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، لكن الصحيح أيضا أن المسلمين قد تأثروا بعادات الصليبيين فى كثير من مهاراتهم فى البيوع والتجارة،وبالمقابل نقل الصليبيون كثيرا من أصول الهندسة البنائية فى الفن الإسلامى المعمارى،وانعكس ذلك على كثير من الأبنية من قصور وكنائس، كما أفاد الأوروبيون فى الفترة اللاحقة –

وخاصة الإيطاليون- فى مجال التبادل التجارى مع الشرق الإسلامى الذى أدرك أهمية التعاون الاقتصادى المشترك.

رابعا: على الصعيد الثقافى، فإن الحياة الثقافية الإسلامية أبدعت بعد أن كان الجمود قد أصابها، وكان هذا التجديد والإبداع نتيجة الاحتكاك بالثقافة الأوروبية وقد سبقت الإشارة إلى الخطوات البطيئة فى تحقيق الحضارة التى سارت إليها فى العصر العباسى الثانى والثالث، لكن تزامن الغزو الصليبى مع الغزو المغولى كان له نتيجته السلبية على رموز الحضارة الإسلامية حيث فقدت إلى حد ما بعض أصالتها فجعلها تلجأ إلى التقليد وكان لذلك تأثيره فى الجمود الفكرى والحضارى الذى حل بالبلاد لفترة طويلة.

خامسا: ساهمت الحروب الصليبية فى إضعفاف نفوذ البابوية فى الغرب، وبالتالى الكنيسة، وفى إضعاف نظام الإقطاع بمفاهيمه ومكوناته السائدة وقتئذ فى أوروبا، وكان لذلك تأثيره فى تأسيس الملكيات المطلقة ثم فى فترة لاحقة فى إنهاء ملامح مجتمعات العصور الوسطى وبداية عصر النهضة الأوروبية.

سادسا: لعل أهم النتائج على صعيد المشرق الإسلامى، هو أهمية عنصر القيادة الإسلامية الحقيقية التى استقطبت جهود المسلمين إلى جانبها، فكان ظهور عماد الدين زنكى وقيامه بدور بارز فى مقارعة الصليبيين ثم بعده ابنه نور الدين الذى قام بإنجازات عظيمة من خلال تكوين جبهة متحدة متضامنة من مصر والشام، ثم صلاح الدين الذى أكمل الحلقة الأخيرة فأنزل ضربته القاصمة فى حطين لتقضى على آمال الصليبيين فى احتلال القدس.

والخلاصة أن محصلة الحروب الصليبية كانت فادحة الثمن بالنسبة للعالم الإسلامى الذى خسر فيها الكثير وإذا كانت الحملة الصليبية الأولى قد حققت هدفها فى الوصول إلى بيت المقدس، وإقامة عدة إمارات، فإن انتصارها لا يرجع لقوة الصليبيين ولكن يعود لضعف تجمعات القوى الإسلامية وعدم تعبئة جهودها وإمكانياتها بالقدر المناسب فى ذلك الوقت فى الشام والعراق ومصر رغم الإيجابيات التى أسهمت وأهمها القيادات السياسية والعسكرية الإسلامية ودورها فى انحسار هذه الحملات، حيث كانت هذه القيادات قوة فاعلة مشجعة قادرة على الاستجابة للتحديات.

مراجع الفصل الخامس من الباب الثالث

(1) لعل من أفضل المراجع الحديثة، دكتور سعيد عاشور، الحركة الصليبية، الأنجلو المصرية، القاهرة 1963.

(2) راجع: بفيق التميمى، الحروب الصليبية، مطبعة اللواء، القدس1945ص25- 29.

(3) ليس موضوع هذه الدراسة الدخول فى تفاصيل دقيقة عن الحملات الصليبية وتكتيكاتها أو أساليبها الهجومية وقواتها، ولكن ما يتعلق هو دلالتها ومغزاها ونتائجها فى العلاقات السياسية والإسلامية وما أدى إليه تداعى الأحداث من ردود فعل، وقد حوت المكتبة الإسلامية والعربية العديد من أمهات المصادر والمراجع والمؤلفات عن الحروب الصليبية من المؤرخين المسلمين والأجانب.

(4) عماد الدين الأصفهانى، تاريخ دولة سلجوق، القاهرة 1228هـ ص 206.

(5) راجع :- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدس، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، الجزء الثانى تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1956ص 74- 76.

- ابن شداد، عز الدين أبو عبد الله محمد بن على الحلبى، المتوفى سنة 684هـ الأعلاق الخطيرة ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامى الدهان، دمشق، المعهد الفرنسى 1962.

(6) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 1948، الجزء الثانى ص 364- 372.

(7) حول سقوط طبريا وعكا والناصرة وقيسارية وحيفا وصيدا فى يد صلاح الدين راجع: ابن شداد، بهاء الدين، كتاب سيرة صلاح الدين المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة.

(8) راجع فى تفصيل هذه الوثائق: القلقشندى، أبو العباس أحمد، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، الجزء السابع ص 126- 131.

(9) المصدر نفسه ص 22- 28.

(10) محمد ماهر حمادة، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى، مؤسسة الرسالة، بيروت 1406هـ/ 1986م ص 41- 53.

(11) ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ ابن الفرات، تحقيق أسد رستم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكية، بيروت 1942ص 24- 25.

(12) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشقى، المتوفى سنة 774هـ، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة 1351هـ ص 345- 351.

(13) ابن شداد، ص 163- 164.

(14) محمد ماهر حمادة ص 53.

(15) لمزيد من التفاصيل راجع: دكتور أحمد قاعور،الدكتور شحادة الناطور ص 22.

(16) راجع: العماد الأصفهانى، محمد بن محمد، الفتح القدسى فى الفتح القسى تحقيق محمد صبيح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

(17) دكتور أحمد قاعور، شحادة الناطور ص 22 نقلا عن الصفدى، صلاح الدين خليل ايبك،المتوفى سنة 764هـ، الوافى بالوفيات، وزارة المعارف، القاهرة 1959.

(18) وتعهد ملك فرنسا بألا يعود ثانية إلى شواطئ الإسلام، وتتضارب المصادر حول ذكر أحداث الحملة السابقة، حيث تذكر أحداهما أنه مات بالطاعون سنة 690هـ/ 1270م قارن: المقريزى، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على، الخطط المقريزية، مكتبة إحياء العلوم، الشياح، لبنان. الذهبى محمد بن أحمد، كتاب العبر فى خبر من غبر، تحقيق صلاح الدين لينجد وفؤاد السيد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت 1960، الجزء الخامس.

- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك. مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية الجزء السادس، القاهرة.

(19) ابن الفرات، الجزء السابع ص 34- 36.

(20) راجع فى تفصيل ذلك: المقريزى، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على، المتوفى سنة 845هـ تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر 1934، الجزء الأول ص 965- 970.

(21) المصدر نفسه.

(22) على الرغم من أن السلطان بركة هو الذى خلف والده الملك الظاهر فى العرش إلا أن شخصيته كانت ضعيفة مما مكن قلاوون من خلعه والحلول محله.

فصل ختامي

في

الفتوحات الإسلامية وتأثيرها على العلاقات السياسية فى آسيا

حاولت جهدى فى هذه الدراسة الموجزة أن أعالج موضوع الفتوحات الإسلامية والعلاقات السياسية فى آسيا منذ عصر النبوة والخلافة الراشدة ومرورا بالدولتين الأموية والعباسية وانتهاءا بالغزو الصليبى للعالم الإسلامى والذى تزامن مع الغزو المغولى بشكل أو بآخر.

إن أهم النتائج التى تم التوصل إليها أن المسلمين الأوائل هم الذين صنعوا التاريخ الإسلامى ولا يمكن أن يكون هناك شعب تاريخه أكثر ارتباطا بالأشخاص أكثر من التاريخ الإسلامى فى عداد القوى العالمية فى فترة فتوحاتها حيث كان يحسب لها حسابها منذ أن استقر رأى الرسول الكريم ﷺ على توسيع دعوته فى الأقطار المجاورة وأرسل رسلا حملوا رسائله إلى ملوك زمانه المجاورين لبلاد العرب يدعونهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع شريعته الغراء، وقد سبقت الإشارة إلى اثنين من هؤلاء الرسل وهما: عمور بن العاص السهمى الذى ذهب إلى عمان وصحار، وأبلى العلاء الحضرمى الذى أرسل إلى البحرين (هجر) واجتمع إلى عبد الله بن الجلندى أمير عمان، وإلى شقيقه جعفر أمير صحار، فرحبا به، وأعلنا وقومهما الدخول فى الإسلام ونطقوا جميعا بالشهادة.

وفى البحرين نجح أبو العلاء الحضرمى حيث استجاب المنذر بن سارو العبدى، أمير المنطقة للدعوة،ودخل الدين الإسلامى الحنيف مع قومه، وفيهم ممثل الدولة الكسروية وبعض أعضاء الجالية الفارسية وهكذا دانت الضفة الغربية للخليج بالإسلام، أما الضفة الشرقية للخليج فقد كانت مأهولة بأكثرية غير عربية، فكانت معركة القادسية فى السنة السادسة عشرة للهجرة بين العرب والفرس الخطوة الأولى التى خطاها الفاتحون العرب للسيطرة على هذه الضفة حيث انتهت بنصر كبير حققه سعد بن أبى وقاص الذى طارد المنهزمين من جيوش الأكاسرة حتى بلغ عاصمتهم "المدائن"وفيها إيوان كسرى الشهير فدخلها ورفع علم الإسلام على أسوارها.

قام الفاتحون العرب بتحرير العراق الذى أدمج فى الدولة الإسلامية الفتية وواصلت الجيوش الإسلامية زحفها شرقا موغلة فى أواسط آسيا، وفى سنة 92هـ/ 711م تحررت منطقة شرق شبه الجزيرة العربية وصولا إلى قلب آسيا وتم ضمها إلى الدولة العربية على يد محمد بن القاسم الثقفى،حيث عقد له عمه الحجاج بن يوسف الثقفى عامل العراق لعبد الملك بن مروان وأرسل على رأس حملة عسكرية واصلت الزحف من "واسط" عاصمة العراق وقتئذ، حتى بلوجستان مكتسحة الضفة الشرقية للخليج العربى وانطلقت الأساطيل العربية من ثغورها إلى موانى الهند وسيلان وبورما وبلغ المد الاقتصادى العربى مرحلة كبيرة تم خلالها احتكار التجار المسلمين للتجارة بين الهند والشرق الأقصى وكان للبحارة العرب والتجار العرب دور أعظم بكثير وهو التبشير بالإسلام ونشره فى جميع الثغور والأماكن فى آسيا التى يقفون عليها، أو يمرون بها، ويتفق المؤرخون أن نشر الإسلام فى سواحل الهند وسيلان وبورما كان من خلال الجهود الرائدة لعرب شبه الجزيرة العربية فضلا عن اندفاع البحارة والتجار العرب نحو الصين وإنشائهم المراكز التجارية فى بعض سواحلها وموانيها واعتناق كثير من الصينيين للدين الإسلامى.

إن الفتوحات الإسلامية فى آسيا وما ارتبط بها من علاقات سياسية ترتبط بدون شك بالدولة الأموية وهو ما يستحق وقفة لتقويم دور هذه الدولة، فقد سبقت الإشارة أن الدولة الأموية شقت طريقها بين الكثير من المتاعب فكانت تتقى بأحدى يديها ما يواجهها من ضربات فى الداخل، وتضرب باليد الأخرى هؤلاء الأعداء الأجانب الذين يحيطون بالدولة الإسلامية الفتية فتردهم إلى الوراء وترغمهم على الخضوع حتى استطاعت أن تمد سلطانها ذات اليمين وذات الشمال فوصلت الفتوحات الإسلامية إلى بلاد الصين شرقا، وإلى المحيط الهندى والصحراء الأفريقية الكبرى جنوبا.

وهذه الفتوحات الخالدة التى تمت فى العهد الأموى وفقا لرؤى الدكتور محمد الطيب النجار هى التى ارتفع عليها صرح الدولة وسط العواصف الهوجاء التى كانت تتناوشها "لو كان الجو صفا لبنى أمية ونعموا بالهدوء والسلام فى الداخل، ماذا كان سيتم على أيديهم من فتوحات؟ وأغلب الظن أن الأرض كانت ستبدل غير الأرض، وأن موجة الفتح الإسلامى كانت ستكسح كل ما يصادفها من عقبات فيعلو لواء الإسلام خفاقا فى أغلب الانحاء من أرض الله الواسعة".

كما سبقت الإشارة أن الفتوحات تضمنت فى ثناياها العلاقة بين الأمويين ودولة الروم، لأن المسلمين حينما فتحوا بلاد الشام ومصر إنما كانوا يمزقون دولة الروم ويقتطعون منها جزءا بعد جزء ولأن الأمويين حينما كانوا يقفون على أسوار القسطنطينية، ويدقون بمطارقهم القوية أبواب العاصمة البيزنطية إنما كانوا يتمون شوط الفتوحات الذى بدأه الخلفاء الراشدون من قبلهم.... ولأن دولة الروم حينما كانت تغير – أحيانا– على أطراف الدولة الإسلامية فى العهد الأموى فهى أنما تريد أن تضعف قوة هذا الفتح العظيم، وتحاول استرجاع مجدها القديم الذى نال منه العرب وأصابه المسلمون فى الصميم.

وفى تقويم الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى يستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلا: "إن معاوية قد ورث عن أسلافه من الخلفاء الراشدين ملكا واسعا عرضا يحتاج إلى جهود مضنية حتى يتوطد الأمن والسلام فى ربوعه لم يكن ليصرف معاوية عن التطلع إلى المزيد من المجد والسلطان فرتب الشواتى والصوائف– مما سبقت الإشارة إليه تفصيلا– حتى يتتابع الغزو والجهاد، وحتى لا يركن المسلمون إلى الكسل والخمول ويحافظوا على ما ورثوه من أمجاد حيث فتحت بلاد الفرس فى عهد الراشدين حتى بلاد ما وراء النهر. كما فتحت الشام وأجزاء من

أفريقيا وهو ما لا يتعلق بمجال هذه الدراسة وعموما فقد حاولت أطـــراف بلاد فارس أن تتخلص من الجزية المفروضة عليها فقامت بثـــورة ضـــد الحكم العربى فأخضعت جيوش معاوية هذه الثورة ثم تابعت الزحف شرقا للتوسع فى الفتح فعبرت نهر جيحون وفتحت بخارى ثم سمر قند وترمذ.

وكان الرومان قد أكثروا من الغارات على حدود الدولة الإسلامية فى الناحية الشمالية الغربية، فأخذ معاوية العدة وجيش الجيوش وانتـــصر عليهم فى مواقع كثيرة.

وأرسل جيشا كبيرا فتح القسطنطينية. وهذه المحاولة تدل وفقا لهذه الآراء على اعتداده بقوة جيشه وثقته الكاملة، وكان ذلك فى سنة 48هـــ وقد خرج إلى هذه المعركة عدد من الصحابة وجاهدوا حق الجهاد ولكنهم لم ينالوا من أسوار القسطنطينية وحصونها المنيعة شيئا، واستعصت عليهم فلم يستطيعوا فتحها.

وعلى الرغم من فصل تلك المحاولة فقد استولى العـــرب علـــى جزيرة كبيرة بالقرب من القسطنطينية وبقيت فى أيديهم سبع سنوات ثـــم تركها يزيد بن معاوية فى مدة خلافته.

وفى عهد عبد الملك بن مروان انقسمت الدولـــة الإســـلامية وأدى ذلك إلى طمع الدولة الرومانية فى استرداد شىء من نفوذها القديم وإرجاع بعض البلاد التى فتحها المسلمون من قبل.

وكان عقبة بن نافع قد وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسى فتحالف الرومان مع البربر وتعاونوا على إضعاف النفوذ العربى وتمكنوا من قتل عقبة بن نافع وهزيمة جيشه، كما أن الرومان قد أغاروا على بلاد الـــشام ومنها " المصيصة" وتقع على حدود الشام وأصبحت الدولـــة الإســـلامية تشعر بمزيد من الخوف والقلق بسبب هذا العدو المتربص.

وتولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى هذه الظروف العصيبة، فعقد فى أول الأمر هدنة مع الدولة الرومانية وكان الغرض منها كسب الوقت حتى يتهيأ له الجو المناسب ويتخلص من أعدائه فى الداخل، ثم زادت رحى القتال فى آسيا الصغرى وقد اشترك الإمبراطور البيزنطى بنفسه فى القتال ولكنه ارتد مهزوما أمام جيوش عبد الملك، ويرجع ذلك إلى عدم الانسجام والتعاون فى جيوش الإمبراطور البيزنطى حتى لقد انضمت بعض عناصره إلى المسلمين وكانوا- فيما بعد- خير عون لهم فى معرفة الطرق والمسالك والمعاقل الهامة فى آسيا الصغرى.

وأما فى المشرق فقد اتجه عبد الملك إلى التوسع فى بلاد ما وراء النهر ففتح قائدة المهلب بن أبى صفرة كش، وفتح ابنه يزيد بعض القلاع الأخرى... وكان يرجى على يد المهلب خير كثير لو امتد به العمر لما كان يمتاز به من شجاعة وطموح وسماحة نفس حببته إلى الناس ومكنت له فى قلوبهم. ولكنه مات فى ذى الحجة سنة 72هـ.

وجاء الوليد بن عبد الملك فعادت أيام الفتوحات الإسلامية الأولى على عهد أبى بكر وعمر، وانصرف الناس إلى الجهاد فى سبيل الله وجعلوه هدفهم وغايتهم فكتب الله لهم النجاح والتوفيق.

وقد اشتهر فى عهد الوليد أربعة من القواد كان لهم أثر عظيم فى هذه الفتوحات، وهم قتيبة بن مسلم الباهلى، ومحمد بن القاسم الثقفى وموسى بن نصير، ومسلمة بن عبد الملك.

فأما قتيبة بن مسلم فقد ولاه الحجاج الثقفى على خراسان سنة 86هـ فخرج قتيبة إلى بلخ غازيا، وتلقاه عظماؤها وساروا معه مؤيدين له. وفى سنة 87هـ أغار قتيبة على الصغد، وفى سنة 88هـ استخلف قتيبة على مرأخاه بشار بن مسلم وواصل فتوحاته فكان النصر حليفه فى بلاد كرملية ثم سار إلى بخارى وتمكن من فتحها بعد كفاح طويل.

وفى سنة 93 غزا قتيبة مدينة سمرقند ففتحها بعد قتال شديد وفى سنة 94هـ اتجه إلى مدينة خجنده وتمكن من فتحها بعد نضال عنيف، ثم فتح مدينة كاسان وهى عاصمة بلاد فرغانة.

وهذا العرض السريع لفتوحات قتيبة بن مسلم يوضح لنا أنه منذ تولى خراسان لم ينم لحظة واحدة عن الكفاح حتى لفت بكفاحه الرائع نظر الخليفة الوليد بن عبد الملك فأرسل كتابا يدل على مدى تقديره له.

وكان من الطبيعى أن يزداد شجاعة، وإقداما بعد وصول كتاب الخليفة له فنراه يسير إلى حدود ا لصين على رأس جيش عظيم.. وبالرغم من علمه وهو فى الطريق بوفاة الوليد إلا أنه مضى فى سبيله حتى قرب من الصين، وبعد أن دارت بينهم وبينه عدة مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه إلى العرب:" انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإنى عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا أبعث إليكم من يهلككم ويهلكه. فقال له هبيرة " كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادكم وآخرها فى منابت الزيتون؟ كيف يكون حريصا من خابر الدنيا قادرا عليها وغزاك؟ وأما تخويفك بالقتل فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه، ولا نخافه" فأجابه ملك الصين: فما الذى يرضى صاحبك؟ فقال له هبيرة: "أنه قد حلف ألا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية، فقال الملك: "فإنا نخرجه من يمينه، نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها"، ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة، فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطئ التراب، ثم عاد بعد ذلك إلى خراسان.

ويستطرد فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار قائلا: "ويتضح لنا من ذلك مدى ما كان يتمتع به قتيبة بن مسلم من هيبة ونفوذ عظيم، فإن مثل هذا الإذلال الذى أصاب ملك الصين يقوم مقام الفتح لهذه البلاد أو يزيد. وهو يعطينا فكرة واضحة عن الروح الإسلامية التى كانت تعمر القلوب وتملى إرادتها فى غزة وإباء، وكيف كان الأعداء يذعنون أمام تلك الروح التى يتمتع بها مثل هؤلاء القادة الأمناء".

أما محمد بن القاسم الثقفى فقد سبقت الإشارة تفصيلا له فهو فاتح بلاد السند وهى البلاد الممتدة من إيران غربا إلى جبال الهملايا فى الشمال الشرقى، وتكون جزءا كبيرا من دولة الباكستان حاليا.

وكانت هذه البلاد فى عهد الوليد ملجأ للخارجين على الدولة الأموية وكان يخرج منها أحيانا بعض القراصنة فيغيرون على التجار المسلمين فإذا طلب إلى ملكهم أن يرد للمسلمين كرامتهم واعتبارهم لم يستجب، فكان ذلك مما دعا الحجاج إلى أن يلح على الخليفة فى فتح هذه البلاد، ليرد هذا العدوان ويؤمن طريق التجارة وحدود البلاد الإسلامية.

وقد بدأ سير حملة محمد بن القاسم الثقفى إلى بلاد السند سنة 89هـ فاتجه إلى مدينة الديبل وظل يحاصرها حتى تمكن من الاستيلاء عليها عنوة، ثم اتجه إلى البيرون فاستقبله أهلها استقبالا حسنا،وأخذ يواصل الفتح والتوسع حتى التقى بملكهم "داهر" على نهر السند ودارت معركة رهيبة بين الفريقين، وانتهت بقتل "داهر" وهزيمة أتباعه.

واستمر محمد بن القاسم الثقفى فى غزوه وتوسعه حتى وصل إلى الملتان فى جنوب بلاد البنجاب فقاتله أهلها فانتصر عليهم، وظل ينتقل من نصر إلى نصر حتى دانت له جميع بلاد السند.

ولما مات الوليد سنة 96هـ وتولى سليمان بن عبد الملك استدعى محمد بن القاسم وولى على هذه البلاد يزيد بن أبى كبشة السكسكى ثم جوزى محمد بن القاسم بعد هذا الفتح العظيم جزاء سنمار، فحمل من بلاد السند مقيدا مغلولا، وبكاء أهلها أحر بكاء.

وقد مات تحت تأثير العذاب الذى صب عليه من صالح بن عبد الرحمن وما كان ينبغى أن تكون تلك نهاية القائد الشجاع الذى رفع لواء الإسلام والعروبة ولكنها الأحقاد والمؤامرات والأنانية التى تمتلئ بها النفوس، فتفيض بالشر والبلاء.

وأما مسلمة بن عبد الملك بن مروان فقد كان له جهاد متواصل مع الروم فى آسيا الصغرى، فافتتح كثيرا من معاقلها الهامة،و كان يسير إليه الجنود فى كل عام فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التى أقامها الروم لحفظ بلادهم ومن الحصون التى افتتحوها حصن طوانه وحصن عمورية وهرقلة وسبسطية وقمونية وطرسوس، إلى غير ذلك من الحصون حتى ألقوا الرعب والفزع فى نفوس الروم، ولما أطمأن الخليفة الوليد إلى أن أخاه مسلمة قد عهد الطريق إلى القسطنطينية، بدأ فى إعداد حملة لمهاجمتها، وكانت الاستعدادات لهذه الحملة واسعه النطاق حتى ترامت أخبارها إلى الروم فأوقد الإمبرطور الرومانى انسطاس الثانى سفارة إلى دمشق للتباحث مع السلطات الإسلامية فى شأن عقد هدنة بين الدولتين، ولكن كان الغرض منها فى الواقع هو التأكد من صدق عزيمة المسلمين فى غزو القسطنطينية، ولما وصل هذا الوفد الرومانى إلى دمشق وضح له أن المسلمين جادون فى إعداد هذه الحملة فعادوا إلى الإمبراطور "البيزنطى" ينصحونه باتخاذ الاحتياطات للدفاع عن العاصمة، ويبلغونه صدق عزيمة المسلمين على الجهاد فى هذا السبيل.

على أن هذا الإعداد الضخم لغزو القسطنطينية لم يقدر له أن ينتهي في عهد الوليد، فقام بهذا المشروع العظيم من بعده أخوه الخليفة سليمان بن عبد الملك وبذل في ذلك قصارى جهده حتى تم إعداد الجيش وخرج إلى القسطنطينية سنة 98هـ بقيادة مسلمة بن عبد الملك وزوده بتعليمات قوية تؤكد تصميمه على الكفاح من أجل هذه الغاية المجيدة.

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصارا قاسيا شديدا على الرغم من برد شتاء قارس رهيب، ولكن طال الحصار حتى مات سليمان بن عبد الملك سنة 99هـ. وجاء بعده الخليفة عمر بن عبد العزيرز فآثر أن يدعم ما فتحه المسلمون من بلاد بدل أن يوزع قوتهم في فتوحات جديدة فعاد المسلمون دون أن يتحقق هذا الأمل.

وفي تقويم ما وصلت إليه الفتوحات الإسلامية في عهد الوليد يقول فضيلة الدكتور محمد الطيب النجار: "وهكذا يتبين لنا مدى ما وصلت إليه الفتوحات الإسلامية في عهد الوليد بن عبد الملك، وهذا العهد وإن لم تطل مدته فهو- بلا ريب- أزهى عهود الدولة الأموية، وكان الفضل في ذلك إلى أعوانه المخلصين وقادته الأمناء، وإلى صفاء الجو الداخلي إلى حد كبير جعل الدولة تركز قوتها في كفاح الأعداء من الأجانب وتدعيم النفوذ الإسلامي العربي".

الفتوحات بعد عهد الوليد:

أحدث ذلك التوسع في الفتوحات على عهد الوليد هزة قوية في أرجاء الدولة الإسلامية أشعرت الأعداء في كل مكان بمزيد من الخوف والرهبة، وإذا كانت سياسة الدولة بعد عهد الوليد قد اقتضت الوقوف عند هذا الحد من الفتوح فإن تيار الزحف القوي قد انعكس إلى الداخل قوة إيجابية تقمع الفتن والقلاقل التي كانت تنشب بين الحين والحين.

ويستطرد قائلا: ".... وبعد، فهذه نظرة سريعة إلى الفتوحات الإسلامية فى عهد الدولة الأموية، وفى اعتقادنا أن هذه الدولة لو اكتفت بمجرد المحافظة على ما ورثته من أسلافها الخلفاء الراشدين ولم تتقدم شبرا واحداً لكفاها ذلك شرفاً وفخراً .. ولكنها قد ضربت فى ميدان الكفاح والنضال أروع الأمثال وبسطت نفوذها ذات اليمين وذات الشمال حتى فتحت بلاد السند وبلاد الأندلس غربا وأضافت إلى الرقعة الفسيحة التى ورثتها عن أسلافها فتوحات جديدة كان لها فى تاريخ العرب والمسلمين أثر خالد على إقامة الأمويين بصبرهم وإيمانهم قد نفذت إليه العلل والأدواء وتسلطت عليه معاول الهدم يوما بعد يوم فنالت منه وعجلت بنهايته".

وفيما يتعلق بسقوط الدولة الأموية وانتهاء فتوحاتها بالتالى، فإن المؤرخين يعزون ذلك إلى دور الأحزاب المعارضة التى قامت فى وجه هذه الدولة، وظلت تناصبها العداء حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.

فكانت العصبية العربية هى السمة البارزة التى كان يتميز بها حكم بنى أمية وقد تجلى ذلك فى معاملتهم للمسلمين من غير العرب وهى معاملة كانت تختلف الاختلاف كله عن معاملتهم للعرب المسلمين، فكانوا يسمونهم "الموالى" وهى تسمية تشعر بسيادة العنصر العربى، وكانوا لا يسوون بين العربى وغير العربى فى العطاء ولا فى وظائف الدولة وينظرون إلى غير العرب نظرة احتقار وازدراء ممزوجة بالبغض والكراهية.

فكانت العصبية العربية فى حياة الدولة الأموية عاملا من عوامل الضعف، وسوسا ظل ينخر فى بنائها ويهد كيانها.

أما العصبية القبلية فهى عصبية أضيق نطاقا من العصبية العربية ولكنها كانت أكثر ضررا وأشد خطرا، فهى تجعل من كل قبيلة أمة مستقلة، وهى تقتضى من أفراد القبيلة أن يتعاونوا على الباطل،ومعنى ذلك أنها تجعل بأس العرب بينهم شديدا، وبلغ من خطورة العصبية القبلية وآثارها المدمرة أنه ترتب عليها قتل خليفة من الخلفاء الأمويين وهو الوليد بن يزيد.

كما أحيا الأمويون عصبية أخرى أضيق من العصبية القبلية وهى عصبية الأسرة، ويوضح لنا ذلك ما فعله معاوية بن أبى سفيان من حملة الناس على الاعتراف بولده يزيد خليفة من بعده وولى عهد له، ولقد سلك معاوية لتحقيق ذلك سبيل الوعد والوعيد والترغيب والترهيب حتى تمت البيعة ليزيد بينما يوجد غيره ممن يتميزون عنه كالحسين بن على وعبد الله بن الزبير وغيرهما من أفذاذ العرب، فأوغر هذا النظام نفوس الجمهرة الغالبة من المسلمين.

ولئن كانت ولاية العهد للإخوة والأبناء من عوامل الشر وأسباب البلاء فإن جعل ولاية العهد لاثنين كان أكثر شرا وأشد بلاء، إذ كان عاملا من عوامل الهدم يتسلط على الأمويين أنفسهم.

وفضلا عن العوامل السابقة التى عجلت بهدم الدولة الأموية فقد اتجه بعض الخلفاء الأمويين إلى حياة البذخ والترف وهاموا بها فشغلهم ذلك عن تدبير الأمور الداخلية والخارجية بما فيها الفتوحات، وصرفهم إلى حد كبير عن ميادين الجد والعمر فكان يزيد بن معاوية كما يقول المسعودى: "صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب.... وغلب على أصحابه وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى وأظهر الناس شرب الشراب، وكان يزيد ابن عبد الملك بن مروان رجل لهو ولعب".

والأسباب السابقة كانت الوقود الذى سعر الفتنة وأشعلها فى أرجاء الدولة الإسلامية، وكانت الأحزاب المعارضة هى الريح التى زادتها تسعرا واشتعالا، فلما قامت الدعوة لآل البيت فى خراسان... كانت الدولة الأموية قد أطيح بها من كل مكان فقاومت بعض الوقت ولكن لم تكن تلك المقاومة إلاصحوة الموت.

وقد سبقت الإشارة إلى توحد صفوف الشيعة بعد مقتل الحسين بن على وزادت الدعوة لآل على قوة. ودعى لمحمد بن على بن أبى طالب وهو المعروف بابن الحنفية، ثم دعى من بعده لابنه أبى هاشم، وأخذ أبو هاشم يرتب الدعوى مستعينا بحوارييه من الشيعيين فى حيطة وحذر، ولكن تسربت أسرار هذه الدعوة إلى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك فاستدعى إليه أبا هاشم وتظاهر بإكرامه، ويقول بعض المؤرخين أنه دس له السم وهو فى طريقه إلى الحميمة حيث كان يقيم معه منفيا محمد بن على بن عبد الله ابن عباس فلما شعر أبو هاشم بدنو أجله أفضى إلى محمد بن على هذا بأسرار الدعوة وأمده بأسماء الدعاة فى الكوفة، ويقال أنه تنازل له عن حقه فى الخلافة وبذلك انتقلت الدعوة إلى بنى العباس.

ولقد ابتدأت هذه الدعوة فى أول القرن الثانى الهجرى، ورأى محمد بن على بن عبد الله بن عباس أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبق بإعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية لابد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالروية والحزم فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى ولاية أهل البيت دون أن يسموا أحدا. خوفا من بنى أمية أن يعملوا على القضاء عليه إذا عرفوه.

ومن حسن سياسة الدعاة العباسيين أنهم حاولوا جلب الشيعة العلويين إلى صفوفهم، فأظهروا أن غايتهم هى قلب الحكومة القائمة والقضاء على دولة الأمويين. ولم يكن يظهر منهم ما يشعر بأنهم يطلبون

الخلافة لأنفسهم فلم تكن تؤخذ البيعة باسم العباسيين، بل كانت تؤخذ لشخص غير معين من آل البيت رمزوا إليه بالرضا من آل محمد كما سبقت الإشارة تفصيلا.

وبزغت هذه الدعوة فى الكوفة ثم انتقلت إلى إقليم خراسان وهو المركز الرئيسى للخلافة وكانت تتجلى فيها روح السخط والعداء للدولة الأموية وذلك لغلبة العنصر الأعجمى فيها على العنصر العربى.

ففيها من أسلم رغبة فى الإسلام وهؤلاء كانوا يحقدون على الأمويين لتجافيهم عن مبادئ الإسلام فى بعض الأحيان.

وفيها من أسلم طمعا فى الامتيازات التى نادى بها الإسلام وأهمها المساواة.

وفيها من حافظ على دينه الأصلى وهؤلاء كانوا ينتهزون الفرصة لإنقاذ دينهم.

ولعل مما يوضح لنا صلاحية خراسان لتلك الدعوة الجديدة تلك الكلمة المنسوبة لمحمد بن على بن عبد الله بن عباس والتى يروون أنه قالها لدعاته حينما وجههم إلى خراسان قائلا:

"ولكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر. وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب – يشير إلى شجاعتهم- وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فأنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق".

وقد مرت الدعوة العباسية فى طريقها بدورين متباينين:

الدور الأول: الذى استمر من مطلع القرن الثانى الهجرى حتى سنة 127هـ. وقد كان الدعاة فى هذا الدور يجوبون خراسان فى صورة تجار ثم يقومون بنشر الدعوة من بيت إلى بيت ومن بلدة إلى أخرى فى حيطة وحذر.

أما الدور الثانى فقد بدأ منذ سنة 127 هـ حينما اتخذت الدعوة طريقا إيجابيا وانتقلت إلى دور الكفاح "المدجج بالسلاح" وقد تولى القيادة فى هذا الدور العملى رجل من دعاة السياسة وعباقرة الحروب وأفذاذ التاريخ وهو أبو مسلم الخراسانى.

وكان من يمن الطالع للدعوة العباسية أن يقود أهل خراسان رجل منهم عرف بكفايته وإخلاصه، فأهاب بهم إلى الكفاح والعمل وخاطبهم قائلا:

"أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر،وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب"، ثم عقد لقواده الألوية وهو يتلو قوله تعالى: "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير". وأخذ يشق طريقه وينتقل من نجاح إلى نجاح.

وتسابق أهل خراسان من السكان الأصليين إلى تأييد أبى مسلم ونصرته ولقد بلغ عددهم زهاء مائة ألف رجل.

وكانت الكثرة الساحقة من الخراسانيين تحارب فى جيش أبى مسلم وأن هؤلاء بعد انضمامهم إلى العرب المناوئين لبنى أمية أصبحوا قوة لا قبل للأمويين بها وكان من الطبيعى حينئذ أن ينهزم نصر بن سيار عامل الأمويين أمام أبى مسلم، وعلى الأخص بعد أن فرق أبو مسلم كلمة العرب وجعل بأسهم بينهم شديدا، وقد تراجع نصر بن سيار أمام قوة أبى

مسلم حتى مات فقد سقطت المدن الخراسانية فى أيديهم مدينة بعد أخرى. وكان انتفاض خراسان على الدولة الأموية مطلعـا رائعـا لانتصـارات الهاشميين قوى بعده جانبهم وعزت كلمتهم ثم سارت الجيوش والفرق فى خراسان تغزو وتنتصر حتى أخضعت بلاد العراق حيث بويع أبو العباس "السفاح" بالخلافة فى ربيع الأول سنة 132هـ.

وحينما تم الأمر للعباسيين فى الكوفة كانت الدولة الأموية الغاربة تحاول أن تتجمع لتلقى بآخر سهم فى وجه أعدائها الألداء من بنى العباس وقد جمع مروان بن محمد لذلك جيشا بلغت عدته أكثر من مائة ألف بينما كان جيش العباسيين أربعين ألفا فحسب، ودارت معركة عنيفة على نهـر الزاب فى جمادى الآخر سنة 133هـ وعلى الرغم من ضخامة الجـيش الأموى فإنه منى بالهزيمة، وذلك بأنه قد أنهكته الحـروب وهـدت قـواه وضعفت الروح المعنوية فى نفوس أفراده بسبب الدعاية الضخمة التى قام بها العباسيون وما أحدثه قيام دولتهم من رجة عنيفة ودوى هائل.

وهكذا تم القضاء على القوة العسكرة للأمويين ولـم يبـق مـنهم إلا أفراد وجماعات يئسوا من الكفاح فـألقوا الـسلاح وأعلنـوا الـولاء والطاعة، وكان من الواجب على العباسيين- وهم من آل البيت- أن يقتدوا برسول الله ﷺ فى العفو والصفح الجميل عمن أساءوا إليهم ولكنهم كـانوا مثالا للقسوة التى لا ترحم، وللعنف الذى لا يعقل، فارتكبوا من الفظائع ما يندى له الجبين وتقشعر من هولـه الأبـدان، وقـد أجمعـت المـصادر وتضافرت الروايات على أن بنى العباس قد تعقبوا الآمنين من بنى أميـة وهم مجردون من السلاح، فأذاقوهم الويل والنكال، وهو ما رواه تفـصيلا أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه الأغانى.

بدأت عربة العباسيين تزداد سرعة ولم يكن هناك من شيء يمنع الملايين من أهل فارس والعراق من أن يركبوا فوقها، وقاد أبو مسلم الخراساني- وإلى خراسان- جيشه في مواجهة الأمويين والخوارج وقتل منهم نحو خمسين ألفا قبل أن يفرض الهدوء على إقليمه، وبموت أبى العباس بويع جعفر بالخلافة واتخذ لنفسه لقب "المنصور" وواجه أبو مسلم قدره المحتوم، بالرغم من محاولاته استعادة مكانته لدى سيده الجديد فعندما ادعى عبد الله عم أبى جعفر أنه الأحق بالخلافة، أخرجه أبو مسلم من خراسان وفى طريق عودته إلى خراسان دعى إلى زيارة بلاط أبى جعفر، فقبل الدعوة فى لهفة ظناً بأنها تبشر بمكافأة له على إنجازاته غير أنه كان مخدوعاً إذ عند وصوله شرع أبو جعفر فى لومه، و نترك الطبرى يسرد تفصيل ذلك قائلا: ذكروا أن المنصور قال يعاتبه: أخبرنى عن كتابك إلى أبى العباس تنهاه عن الموات، أردت أن تعلمنا الدين!... قال فأخبرنى عن تقدمك إياى فى الطريق ... فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلى : فنقدم فنرى من رأينا، ومضيت فلا أنت أخرت حتى ألحقك ولا أنت رجعت إلى... فجارية عبد الله بن على أردت أن تأخذها؟... فمراغمتك وخروجك إلى خراسان؟... والمال الذى جمعته بحران؟[1].

وعند إشارة معلومة انقض حرس الخليفة على أبى مسلم فقطعوه إربا وألقوا بجثته المتناثرة فى نهر دجلة، وكانت الظنون أنه بالقضاء على الأمويين والخوارج وعلى أبى مسلم فى وقت واحد، فإن أبا جعفر سيقضى فترة حكمه الإحدى وعشرين دون خوف من منافس، غير أنه يبدو أنه كان لا يزال لا يثق بأن العرب- وهم ذوى قرباه- يمكن أن يخدموه، ومن ثم حرص هو وخلفاؤه المباشرون على احلال المؤثرات الفارسية فى داخل الخلافة محل العربية، فنقل مقر الخلافة من الشام إلى العراق وأدخل

الثقافة والتعليم والعادات الاجتماعية الفارسية، ولم يعد حرس الخليفة وجماعة الضباط فى الجيش من مصادر عربية ولكن من خراسان ثم من قبائل التركمان الواقفين إلى الشرق.

ويذكر أنتونى ناتنج: "إن هذه التغييرات الثورية كان لها تأثير مرير على قطاعات معينة من السكان العرب أصبحوا من حيث الواقع- وإن لم يكونوا من الناحية القانونية- مواطنين من الدرجة الثانية فى امبراطوريتهم، ولم تكن هناك مقاومة، وقبل العرب الوضع الجديد لأنه أعطاهم مجتمعا إسلاميا برغم "أنغامه" الأجنبية.....".

أما تأثير هذه التغييرات على العلاقات السياسية فى عصر الدولة العباسية فى عهدها الأول، فقد كسب الموالى فى فارس والعراق نصرا جديدا ورائعا ووجدوا مكانا تحت الشمس فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية وكان أبو جعفر- على حد تعبير أنتونى ناتنج- الرجل الصحيح بمعنى الكلمة... فلم يكن طاغية... وكان من أول أفعاله أن بدأ العمل فى إنشاء حاضرة جديدة حيث اختار موضعا على نهر دجلة يدعى بغداد، بعيدا عن مواقع الشيعة، ويلى العاصمة الفارسية القديمة – طيسفون- واصبحت بغداد "مدينة السلام" فى سنوات قليلة ومركزا للتجارة،وعاصمة سياسة لها مكانه دولية، ويصفها المؤرخ فيليب حتى قائلا: "... كما لو كانت ظهرت إلى الوجود بفعل عصا ساحر، فإن مدينة المنصور هذه ورثت قوة ومكانة طيسفون وبابل وأور وغيرها من عواصم المشرق القديم، وبلغت درجة من الشهرة والروعة، وربما لم يكن ينافسها فى العصور الوسطى سوى القسطنطينية"، ويستطرد فيليب حتى قائلا"... وفتح الموقع الجديد الطريق أمام أفكار من الشرق .... رضخ الإسلام للثائر الفارسى، وأصبحت الخلافة بعثا للاستبداد الإيرانى أكثر منها مشيخة عربية، وبالتدريج انتصرت الألقاب الفارسية، والزيجات الفارسية.. فضلا

عن الآراء والأفكار الفارسية... ومهدت الطريق إلى عصر جديد يتميز بالاهتمام بالعلم والأعمال العلمية....".

كان أبو جعفر دبلوماسيا ورجل دولة ممتاز، أعظم ما وهبه للخلافة سلام دام أكثر من ثلاثين عاما، واستطاع قمع كل تهديد لسلامة الدولة الإسلامية وأن يوسع حدودها فى الشرق بضم طبرستان- وهى إقليم جبلى جنوبى بحر الحزر- وضم قندهار على حدود الهند، وإذا كان أبو جعفر المنصور قد أدى هذه الإنجازات الضخمة فإن حفيده هارون الرشيد قد حقق مجدا أسطوريا وعظيما فى تاريخ الدولة العباسية إبان عصرها الأول والذهبى والذى لقب بعصر "ألف ليلة وليله". وفيما يتعلق بمجال هذه الدراسة- فإن نجم هارون الرشيد كان قد لمع فى سن العشرين خلال حكم والده محمد، عندما شن العباسيون أول هجوم لهم على جيرانهم الروم أملا فى الاستفادة من السلام والانسجام داخل الدولة العباسية ليتخلصوا من التهديد البيزنطى فى آسيا الصغرى،و سار هارون مصحوبا بخالد بن يزيك على رأس مقدمة جيش الخليفة الذى راح يتوغل حتى بلغ البوسفور، وهناك أرغم الوصية على العرش وهى الملكة إيرين على توقيع معاهدة، وأداء الجزية إلى جيوش الخليفة، وكانت هذه رابع وآخر مرة يقف فيها جيش عربى أمام أسوار القسطنطينية.

تبددت أحلام امتداد عصر السلام بعد موت هارون الرشيد، وواجهت الخلافة صراعا مريرا بين ولديه محمد الأمين وعبد الله المأمون، وكان المأمون قد عين قبل موت والده سنة 809م واليا على خراسان، وعندما طالبه الأمين- وهو الخليفة الجديد- بأن يعيد جيوشه إلى العراق، فقد رفض أن يترك بغير دفاع، وكان يشك فى أن الأمين سوف يسلبه نصيبه فى وصيه أبيهما، فلجأ إلى الخراسانيين يطلب نصرتهم له، وكان أصل أمه الفارسى فى صالحه عندما عزله الأمين من منصبه وأرسل له

جيشا للقضاء عليه وعلى أنصاره ولكن الجيش أبيد عند الرى القريبة من طهران على يد قوة خراسانية.

استمرت الفتنه بين المأمون والأمين وانعكست على جيش الأمين الذى ازدادت أوضاعه تدهورا كما يقول المؤرخ الذائع الصيت أبو الحسن المسعودى حيث حوصر الأمين فى قصره، وتم قتله أثناء عبوره نهر دجلة وأرسلت رأسه إلى المأمون، ويذكر الطبرى(2). أن الأمين قرر أن يرسل نفسه إلى المأمون، فهاجمه أنصار المأمون رغم عبوره النهر وقتل.

تولى المأمون الحكم غير أنه اختار خراسان بدلا من بغداد قاعدة له، وثارت بغداد ضد مستشارى المأمون من الفرس وزيادة المؤثرات الفارسية، وظل العراقيون فى حالة من الفوضى شهورا عدة إلى أن أرسل الخليفة أحد أعمامه من خراسان ليعيد السلام هناك، وجعلت الخلفية الفارسية للمأمون كيف يبدو فى مظهر جديد وحافظ عليه حتى نهاية عهده وكان يحب الفنون والعلوم والثقافة والفلسفة، وشجع حضور رجال العلم بغض النظر عن أجناسهم أو دياناتهم، فالنصارى والروم واليهود والمجوس– هؤلاء جميعا كانوا موضع رعايته.

وفى عهده جرى تعديل نظام التعليم وتحديثه وأنشئت أكاديميات التعليم العالى، وتم تأسيس مدرسة للشريعة والفقه وجرى التنقيب عن مؤلفات الفلاسفة والرياضيين الإغريق وأنشئت دار للترجمة أشرف عليها عربى نصرانى هو حنين بن اسحق الذى ترجم بنفسه "جمهورية أفلاطون" وكتابى المقولات والطبيعة لأرسطو ، وكان هذا هو العصر الذهبى للدولة العباسية حيث تم أيضا تطوير تراث مصر وفارس والهند، ويعلق فيليب حتى قائلا: "إن من المجد الخالد للإسلام فى العصور الوسطى أنه نجح فى التنسيق والتوفيق بين الفكر الإسلامى والفلسفة اليونانية التى هى أعظم ما

أنجزه العالم الأوروبى القديم، وبذلك قاد الإسلام أوروبا المسيحية تجاه وجهه النظر الحديثة".

وفيما يتعلق بتقويم خلافة المأمون على صعيد العلاقات السياسية، فمن الثابت أن المأمون حين مات فى سن الثامنة والأربعين كان قد سحق الثورات فى كردستان وأمن حدود الدولة العباسية مع بيزنطة. ويحدثنا الثعالبى أن عصر التفوق العباسى استهله أبو جعفر، ونضج وأثمر تماما فى عهد المأمون إلى هذا المزيج الرابع من الدم العربى والفارسى وتحولت بغداد إلى مركز للثقافة والعلم فى الوقت الذى لم يكن فيه فى استطاعة حكام أوروبا حتى أن يكتبوا أسماءهم.

ومن المؤسف أنه لم يمر على موت المأمون أقل من سبعين سنة حتى كان تفوق العباسيين السياسى قد انتهى وراحت الخلافة مرة أخرى فى طريق الانحلال والتفكك حيث كان الشيعة ما يزالون ينتظرون أن يحكموا الدولة الإسلامية واعتقدوا أنهم خسروا الكثير من التأييد الشعبى لهم وخاصة فى العراق بوصفه مركز الرخاء والازدهار الفكرى للدولة الإسلامية وتلى ذلك انقسام الشيعة إلى مجموعات متباينة على نحو ما سبقت الإشارة إليه تفصيلا وذلك بالإضافة إلى الطوائف والفرق الأخرى وانعكس ذلك سوءا على صعيد العلاقات السياسية من خلال سلسلة المعارك التى أشتبك فيها القرامطة لتأييد ثورة الزنج فيما بين عامى 868-883م- على سبيل المثال- وما حققوه من نصر على الجيوش الإسلامية فى البصرة فى عام 900م ثم زحفهم على الشام واستيلائهم على جزئها الشمالى سنوات عدة قبل هزيمتهم من الأتراك وفرارهم إلى العراق وسيطرتهم على جنوبه من البصرة إلى الكوفة ولما مات قرمط أقام مبعوثة سعيد الحسن الجنابى دولة قرمطية مستقلة فى البحرين، وخلال السنوات المائة التالية واصل القرامطة هجماتهم على الخلافة وأغرقوا الشام والعراق فى الدماء، وانقضت حوالى مائة عام أخرى من الحركات

الاستقلالية والانفصالية عن الخلافة وكان على العالم الإسلامى أن يواجه غزوتين شرستين تمثلتا فى الغزو المسيحى والغزو الوثنى، وكتب كل من السلطان صلاح الدين الأيوبى والسلطان المملوكى بيبرس فصولهما الباهرة فى تاريخ العلاقات السياسية فى الإسلام فى هذه الفترة، وكانت مصر فى تاريخ العلاقات السياسية فى الإسلام فى هذه الفترة، وكانت مصر هذه المرة- وليست بغداد- هى القوة التى ألقت بالصليبيين خارجا وأوقفت غزو الوثنيين المغول الذين جاءوا فى أعقابهم- قبل اعتناقهم الإسلام - ولم تعد بغداد صانعة للأحداث بل مجرد متفرج عليها فيما تبقى من الإمبراطورية الفارسية.

وفى تقويم دولة صلاح الدين على صعيد ما يتعلق بمجال هذه الدراسة يمكن القول أنه سواء تعلق الأمر بأخلاقة أو سلوكه فقدكان قائدا إسلاميا بمعنى الكلمة، ولم يكن يتسم بالقسوة إلا إذا تعلق الأمر بالخيانة والغدر، ومن المعروف أن هاتين الصفتين هما سمتا هذا العصر من خلال احتكاك المسلمين بالصليبيين، وبخلاف ذلك كان من أشد المحاربين عزوفا عن الحرب أو استخداما لأية قوة لا لزوم لها ضد الصليبيين، وكان عزوفا دائما عن اللجوء للحرب إذا كان التفاوض يخدم غايته بنفس الدرجة، وعلى خلاف الصليبيين فإنه لم ينكث أبدا بعهد قطعه لأى أناس آخرين، ومع ذلك لم تتح له الفرصة ليكسب تفوقا ثقافيا على نحو ما فعله المأمون ولكن الأهم من ذلك فإن صلاح الدين قد جمع،ووحد العالم الإسلامى والعربى من النيل إلى الفرات فقويت الشعوب الإسلامية التى كانت مهددة فى وجودها ودينها، ووجه صلاح الدين إلى الغزاة الأوروبيين ضربة قاصمة وجعل من الإسلام قوة يعمل لها حساب فى الشرق والغرب على السواء، وكان مثالا يحتذى به فى الشهامة والروح الإنسانية ندر إن كان له مثيل ولم يتفوق عليه مثال آخر فى هذه الفترة.

مراجع الفصل الختامي

(1) الطبري، تاريخ الطبري، الجزء السابع، ص 489- 491.

(2) الطبري، تاريخ الطبري، الجزء الثامن ص 481- 483.


المصادر والمراجع

أولا : المصادروالمراجع العربية:

- القران الكريم
- إبراهيم العدوى (دكتور)، الأمويون والبيزنطيون، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- إبراهيم بيضون (دكتور)، تكون الاتجاهات السياسية فى الإسلام الأول، دار اقرأ، بيروت 1985.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم ت 182هـ)، الخراج، المطبعة السلفية، القاهرة 1396هـ.
- احمد أمين،- فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1975،- ظهر الإسلام، دار الكتاب العربى، بيروت 1969.
- أحمد بن بيليك المحسنى (ت 753هـ)، الجوهر الثمين فى سيرة الأمين، معهد المخطوطات، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- أحمد قاعور (دكتور)، شحادة الناطور (دكتور)، تاريخ الدولة العربية حتى نهاية الغزو المغولى، مطبعة الاتحاد، عمان، 1982.
- آدم ميتز، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، أو عصر النهضة فى الإسلام، ترجمة دكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة- جزآن- القاهرة 1957.
- إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، بدون مكان وتاريخ إصدار.
- ابن العماد الحنبلى أبو الفلاح عبد الحى، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، تحقيق دار إحياء التراث العربى- ثمانية أجزاء فى أربعة مجلدات، بيروت، بدون تاريخ إصدار.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد، تاريخ ابن الفرات، تحقيق أسد رستم وقسطنطين زريق ونجلاء عز الدين، المطبعة الأمريكية، بيروت 1942.

- ابن أبى لاحديد، نهج البلاغة، بدون مكان وتاريخ إصدار.
- ابن حزم، أبو محمد على بن سعيد الأندلسى، (ت 456هـ)، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون،دار المعارف، القاهرة 1491هـ/ 1971م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن على بن حوقل البغدادى، (ت 367هـ)، المسالك والممالك، ليدن 1800م.
- ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- ابن اسحق، أبو عبد الله محمد بن يسار المطلبى (ت 151هـ) سيرة النبى، هذبها ابن هشام بن أيوب الحميرى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد – جزآن- دار الاتحاد العربى للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- ابن خلدون،عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر ومن تبعهم من ذوى السلطان الأكبر، – 7 أجزاء- القاهرة 1962.
- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن خلكان الشافعى (ت 681هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- ابن الجوزى، أبو الفرج عبدالرحمن بن على (ت 597هـ)، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند 1358هـ.
- ابن شداد، بهاء الدين، كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.

- ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسى (ت 328هـ)، العقد الفريد، تحقيق محمد سيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1953.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدنيورى، (ت 276هـ)، الإمامة والسياسة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة،بدون تاريخ إصدار.
- ابن النديم، محمد بن اسحق أبو الفرج (ت 235هـ)، الفهرست، دار المعرفة، بيروت 1978.
- أبو إسحاق بن محمد الفارسي الاصطخرى، كتاب الأقاليم، بدون مكان إصدار 1839.
- أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمى محمد أحمد، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1956.
- إسماعيل بن على بن عماد الدين أبو الفداء (ت 732هـ)، المختصر فى أخبار البشر، القاهرة 1351هـ/ 1934م.
- أنتونى ناتنج، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة دكتور راشد البراوى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1974.
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسين على بن أبى الكرم الشيبانى، (ت 630هـ)، الكامل فى التاريخ، دار الكتاب العربى، بيروت 1381هـ/ 1967م.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732هـ)/ المختصر فى أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت 1956.
- البغدادى، عبد القادر بن طاهر بن محمد التميمى (ت 429هـ) الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ إصدار.

- البلاذرى، أحمد بن يحيى بن جابر البغدادى (ت 279هـ)، فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، بدون مكان وتاريخ إصدار.
- برنارد لويس، أصول الإسماعيلية، ترجمة خليل أحمد جاد، وجاسم محمد الرجبى، دار الكاتب العربى، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- تيلر، فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد، القاهرة 1966.
- الجاحظ، عمر بن بكر ، (ت 255هـ)، البيان والتبيان، دار الفكر للجميع، بيروت 1954.
- الجهشيارى، محمد بن عبيدوس الكوفى (ت331هـ)، الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى وعبد الحفيظ السبكى، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة 1938.
- حسن على إبراهيم (دكتور)، الإسلام السياسى، القاهرة 1973.
- حسن حبشى (دكتور)، نور الدين، دار الفكر العربى، القاهرة 1959.
- الخطيب البغدادى، أبو بكر أحمد بن على (ت 463هـ)، تاريخ بغداد، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة 1931.
- الدنيورى، أبو حنيفة أحمد بن داود الدنيورى، (ت 382هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد القومى، القاهرة 1960.
- راشد البراوى (دكتور)، التفسير القرآنى للتاريخ، دار النهضة العربية، القاهرة 1973.
- رفيق التميمى، الحروب الصليبية، مطبعة اللواء، القدس 1945.
- سعيد عاشور (دكتور)، أوروبا فى العصور الوسطى، النظم والحضارة، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- سعيد عاشور (دكتور)، الحركة الصليبية، الأنجلو المصرية، القاهرة 1963.

- السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر السيوطى، (ت 911هـ)، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الطاعة، القاهرة 1351هـ.
- شكرى فيصل، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول، دار العلم للملايين، بيروت 1952.
- الشهرستانى، محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر (ت 584هـ)، الملل والنحل، تحقيق محمد رشيد الكيلانى، دار المعرفة، بيروت 1975.
- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، دول الإسلام، القاهرة 1368هـ.
- شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى، معجم البلدان، 1325هـ/ 1908م.
- الصولى، أبو بكر محمد بن يحيى (ت 335هـ)، أخبار الراضى بالله والمتقى بالله ،دار المسيرة، بيروت 1979.
- الصفدى، صلاح الدين خليل أيبك (ت 764هـ)، الوافى بالوفيات، وزارة المعارف، القاهرة 1949.
- الطبرى، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت 224- 310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- عباس محمود العقاد، المجموعة الكاملة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، الطبعة الأولى 1974.
- عبد العزيز الدروى (دكتور)، دراسات عن العصور العباسية المتأخرة، بغداد، بدون تاريخ إصدار.
- عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة، بدون مكان وتاريخ إصدار.

- عبد الله بشر الطرازى (دكتور)، موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية)، الجزء الأول، عالم المعرفة، جدة 1403هـ/ 1983م.
- عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، (ت 808هـ)، تاريخ ابن خلدون، القاهرة 1284هـ.
- عبد الفتاح السرنجاوى، الخلافة العباسية، اضمحلالها وسقوطها، مكتبة عطايا بمصر، القاهرة 1955.
- عبد المنعم ماجد (دكتور)، التاريخ السياسى للدول العربية، الأنجلو المصرية، القاهرة 1975.
- على حسنى الخربوطلى (دكتور)، الدولة العربية الإسلامية، البابى الحلبى، القاهرة 1960.
- على سامى النشار (دكتور)، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام،دار المعارف بمصر، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- العماد الأصفهانى، محمد بن محمد، الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة،بدون تاريخ إصدار.
- عماد الدين الأصفهانى، تاريخ دولة سلجوق، القاهرة 1228هـ.
- العينى، أبو محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفى (ت 855هـ)، عقد الجمان فى تاريخ أهل زمان، أو تاريخ العينى (مخطوطة)، دار الكتب المصرية، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- فتحى عثمان، أضواء على التاريخ الإسلامى، دار العروبة، القاهرة،، بدون تاريخ إصدار.
- فتحية النبراوى (دكتورة)، دراسة فى عصر الخلفاء الراشدين، الإدارة العامة لكليات البنات، الرياض 1397هـ/ 1977م.

- فتحية النبراوى (دكتورة)، محمد نصر مهنا (دكتور)، تطور الفكر السياسى فى الإسلام، دار المعارف بمصر، القاهرة 1983.
- فيليب حتى، تاريخ العرب (مطول)، مطبعة الكشاف، بيروت 1961.
- فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجى، دار الثقافة، بيروت 1959.
- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى، دار العلم للملايين، بيروت 1965.
- القرمانى، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى (ت 685هـ)، أخبار الدول وآثار الأول، مكتبة المثنى، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- القلقشندى، نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الإبيارى، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- القلقشندى، أبو العباس أحمد بن على (ت 821هـ)، صبح الأعشى فى صياغة الإنشا، بدون مكان وتاريخ إصدار.
- الماردينى، عبد السلام بن عمر بن محمد، (ت 1259هـ)، تاريخ ماردين (مخطوطة)، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- محمد أسعد طلس (دكتور) ، تاريخ العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،بدون تاريخ إصدار.
- محمد جمال الدين سرور(دكتور)، الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثانى بعد الهجرة،دار الفكر العربى، القاهرة 1966.
- محمد رشاد خليل (دكتور)، المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره، بدون مكان إصدار، الطبعة الأولى، 1402هـ/ 1983م.
- محمد ضياء الدين الريس (دكتور)، عبد الملك بن مروان والدولة الأموية، القاهرة 1969.

- محمد الطيب النجار (دكتور)، الدولة الأموية فى الشرق، القاهرة، بدون تاريخ إصدار.
- محمد ماهر حمادة (دكتور)، وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى للعالم الإسلامى، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1406هـ/ 1986م.
- محمود شاكر، التاريخ الإسلامى، الجزء الثالث، (الخلفاء الراشدون)، المكتب الإسلامى، بيروت 1985.
- الشيخ محمد عبده، رسالة التوحيد، بدون مكان وتاريخ إصدار.
- الشيخ محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، المكتبة التجارية، القاهرة 1970.
- محمد كرد على، الإسلام والحضارة العربية، جزآن- الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1968.
- المسعودى، أبو الحسين على بن الحسين بن على (ت 346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة 1387هـ/ 1967م.
- المقريزى، تقى الدين ابو العباس أحمد بن على، الخطط المقريزية، مكتبة احياء العلوم، الشياح، لبنان،بدون تاريخ إصدار.
- محمد نصر مهنا (دكتور)، علوم السياسة،دراسة فى الأصول والنظريات،دار الفكر العربى، القاهرة 1988.
- محمد بن أحمد، كتاب العبر فى خبر من خبر، تحقيق صلاح الدين المنجد وفؤاد السيد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، 1960.
- هنرى لادوست، نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية فى السياسة والإجتماع، ترجمة محمد عبد العظيم على، تقديم ومراجعة دكتور مصطفى حلمى، دار الأنصار، القاهرة،بدون تاريخ اصدار.

- الهيتمى، الأمام أحمد بن محمد المعروف بابن حجر (ت 974هـ)، كتاب اخوان الصفا بنبذ أخبار الخلفاء (مخطوطة)، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- الأزدى، محمد بن عبد الله الأزدى البصرى، (ت 165هـ)، تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة،بدون تاريخ إصدار.
- الاصطخرى، أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى، مسالك الممالك، ليدن 1870م.
- ناجى معروف (دكتور)، عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية فى خراسان، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة كتب التراث (46)، بغداد 1976.
- اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 192هـ)، تاريخ اليعقوبى، مطبوعات المكتبة الحيدرية، النجف، 1394هـ/ 1974م.

ثانيا : المراجع الأجنبية

- Abboit. J; Sind: A Reinterpretation of Un happy Valley. Oxford University Press, 1924.
- De Goge, Memoire Sur Les Carmathes de Bahrain Leiden 1882.
- Eeonard Binder, Religion and Politics in Pakistan , University of California Press 1961.
- Ivanov, The Rise of the Fatimide, Calcutta, 1942.
- Ivamov, A Gide to Ismaili Culletative, London 1933.
- Lambrick, H.T.: Sind: A General Introduction Hyder, Abad Sind, Sindhi Adabi Board 1964.
- Lewis Bernard, The Origine of Ismailism, Cambridge 1940.
- Toynbee, A Study of History, London 1945.
- Raverty: " The Mahran of Sind" in: Journal of Royal Asiatic Society, Bengal 1892.
- Syikes, (Sir Percy), History of Persia , London 1951.

المحتويـات

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة	3
الباب الأول	
عصر النبوة والخلافة الراشدة	15
الفصل الأول: عصر النبوة	17
- من العهد المكى إلى العهد النبوى	19
- أسس الدولة الإسلامية	22
- الردة وحروبها	26
الفصل الثانى: عصر أبى بكر الصديق:	
10- 13هـ/ 632- 634م	33
- فتح العراق وفارس	35
- الدروس المستفادة	39
- أبو بكر فى الشام	44
الفصل الثالث: عصر عمر بن الخطاب	
13-23هـ/ 634- 644م	49
- رسائل عمر إلى قادة الجيوش الإسلامية	51
- من فتوح العراق إلى فتوح إيران	56
- فتوح السند والبنجاب	58
السند والبنجاب، بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية	58
الفصل الرابع: عصر عثمان بن عفان	
23- 35هـ/ 644- 656م	69
- توغل جيوش المسلمين فى بلاد الترك	71

الموضــوع	الصفحة
- أسماء لامعة فى الفتوحات الإسلامية	73
- السند والبنجاب	76
الفصل الخامس: عصر على بن أبى طالب	
35- 40هـ/ 656- 661م	
- خضوع الأقاليم المفتوحة فى آسيا	81
الباب الثانى	
الفتوحات الإسلامية	
فى عصر الدولة الأموية	89
الفصل الأول: من معاوية بن أبى سفيان 40- 60هـ/660- 680	
إلى يزيد بن معاوية 60- 64هـ/ 680- 684م	91
- توطيد أركان الدولة الإسلامية	93
- عصر يزيد 60- 64/ 680- 684م والفترة اللاحقة	98
من معاوية الثانى إلى مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير	
والحجاج بن يوسف الثقفى	101
الفصل الثانى: من عبد الملك بن مروان 65- 66 هـ إلى	
الوليد 86- 96هـ وسليمان بن عبد الملك 86-	
96هـ	107
- الفتن الداخلية وانعكاساتها الآسيوية	109
الفصل الثالث: من عمر بن عبد العزيز 99- 101هـ/ 707-	
730 م إلى ما قبل سقوط الدولة الأموية سنة	
132هـ	113
- دور البصرة فى فتح خراسان	115

الموضـــوع	الصفحة
- دخول أعداد هائلة من سكان آسيا فى الدين الإسلامى	117
- حركة الفتوح الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز	119
الفصل الرابع: محمد بن القاسم الثقفى وفتح السند	125
- ما قبل حملة محمد بن القاسم الثقفى	127
- عودة الفتوحات الإسلامية النشيطة	130
- الحملة العربية بقيادة محمد بن ا لقاسم الثقفى (92- 96هـ)	131
الفصل الخامس: بلاد السند بعد محمد بن القاسم	141
- اضطراب الأحوال السياسية	143
الباب الثالث **الدولة العباسية ومسلمو آسيا** **حتى الغزو الصليبى**	151
الفصل الأول: أسس الدولة الجديدة وفتوحاتها	153
- الدولة الجديدة والعلاقات السياسية الإسلامية	155
- الفتوحات الإسلامية	160
- الخلفاء العباسيون والعلاقات الخارجية	164
1- أبو العباس السفاح 132- 136هـ	164
2- أبو جعفر المنصور 136- 158هـ	165
- الجيش ودوره الإسلامى	169
3- المهدى بن المنصور(158- 168هـ) (775- 785م)	172
4- من الهادى بن الهدى (169- 170هـــ) (775- 776م) إلى الرشيد بن المهدى (هارون الرشيد) (170- 193هـ) (786- 808م)	176

الموضـــوع	الصفحة
- شئون بلاد السند	180
الفصل الثانى: الفتن الداخلية وانعكاساتها الخارجية	187
- من الأمين بن الرشيد (193- 198هـــ) (808- 813م) إلى المأمون (198- 218هـ)، والمعتصم (218- 227هـ) (833- 842م)	189
- الفتن وأحداث التمرد والعصيان فى عهد المأمون	191
- العلاقات الخارجية فى عهد المأمون	194
- المعتصم بن الرشيد (218- 227هـ) (833- 843م)	197
- العلاقات الخارجية فى عهد المعتصم	198
- شئون بلاد السند حتى سنة 240هـ	201
الفصل الثالث: من عصر الانحلال الأول إلى بـروز الولايـات الإسلامية الانفصالية فى آسيا	207
- خلفاء عصر الانحلال الأول	210
- شئون الخلافة	213
- بروز الولايات الإسلامية الانفصالية الاستقلالية	215
1- الدولة الصفارية (247- 289هـ)	215
2- الدولة الطاهرية (205- 259هـ) (820- 872هـ)	217
3- الدولة السامانية (218- 389هـ) (874-999م) والدولـة الغزنوية (351- 582هـ) (862- 1186م)	218
4- دولة آل بوية (334- 447هـ) (945- 1055م)	223
5- الحمدانيون (293- 402هـ)	226
6- من الدولة الزيادية (203- 253هـ) إلى الدولة الزيديـة (250- 355هـ) والدولة الساجية (266- 318هـ)	228

الموضـــوع	الصفحة

7- الدولة الهبارية (240- 416هـ)	231
8- الدولة الملتانية (151- 401هـ)	234
الفصل الرابع: عصر الانحلال الثـانى وتعـاظم دور الفـرق الإسلامية	243
- الخلفاء	245
- الفرق الإسلامية وتأثيراتها	248
1- الخوارج	250
2- تجمع الفرق فى حركات معقدة	254
3- الشيعة	257
4- المرجئة	263
5- القدرية والجبرية	266
6- المعتزلة	268
7- الإسماعيلية	272
8- القرامطة	281
- الفرق الإسلامية فى بلاد السند والبنجاب	285
الفصل الخامس: سقوط الدولة وظهور دويلات جديدة	293
- ما قبل السقوط	295
- شئون الخلافة والحركات الباطنية	297
- ظهور دويلات جديدة	304
1- السلاجقة	304
2- الأتابكية	306
3- الخوارزم	308
الفصل السادس: الغزو الصليبى	313

الموضــوع	الصفحة
- جذور الحقد الصليبي تجاه المسلمين	315
- الحملة الصليبية الأولى	318
- الحملة الصليبية الثانية	320
- الحملة الصليبية الثالثة	322
- من الحملة الرابعة إلى الحملة السابعة (1203- 1249م) ..	325
- نتائج الحملات الصليبية	330
فصل ختامي: في الفتوحات الإسلامية وتأثيرها على العلاقـات السياسية فى آسيا	335
المصادر والمراجع	359

تم بحمد الله

رقم الإيداع : 7360/ 2010

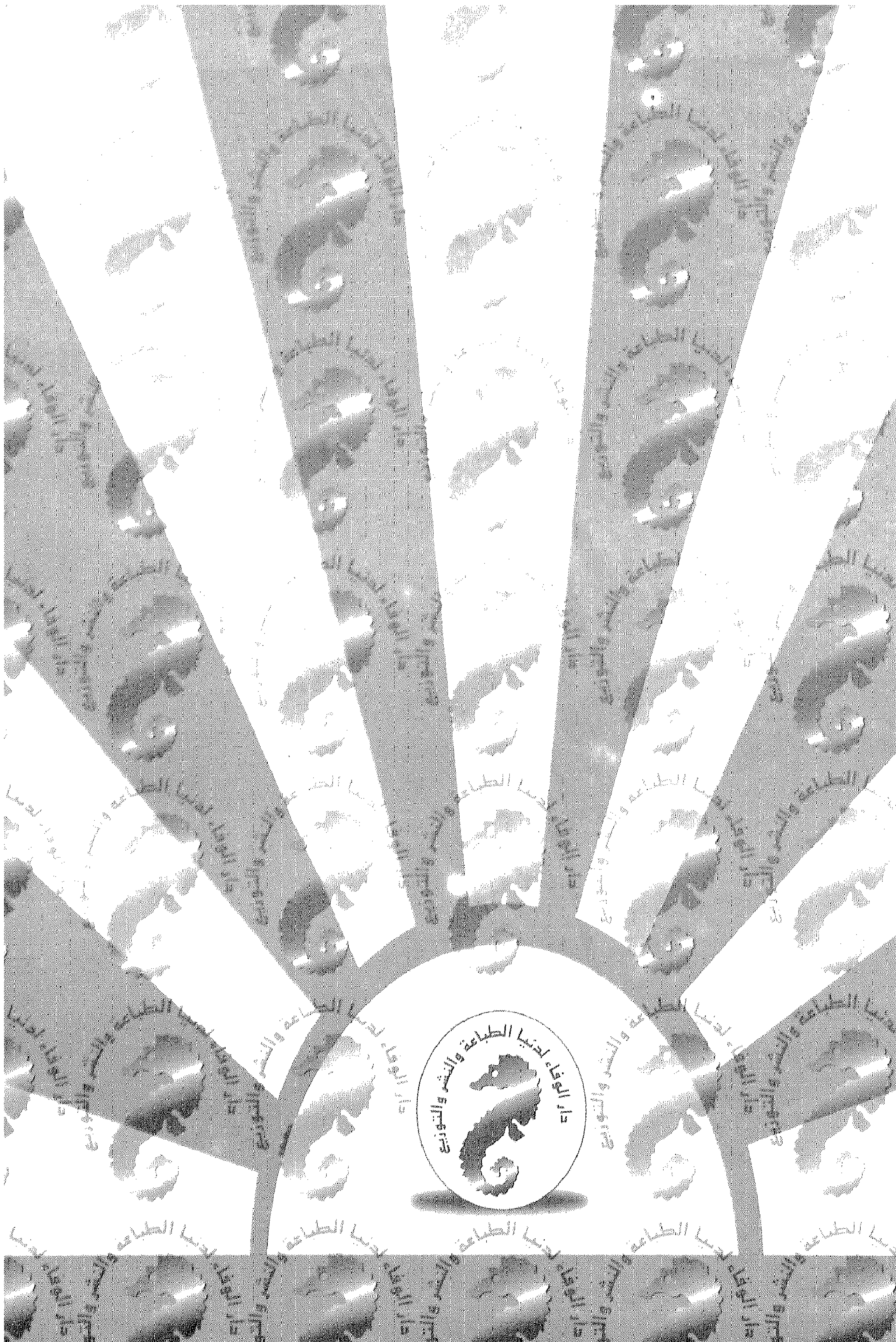
الترقيم الدولي : 978-977-327-761-5

مع تحيات

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : 5274438 – الإسكندرية


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع


دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر والتوزيع


الفتوحات الإسلامية
من عصر النبوة إلى الغزو الصليبي
دراسة في العلاقات السياسية الآسيوية
محمد نصر مهنا